سيسيليا أهيرن

رواية

كيف تقع في الحب



سيسيليا أهيرن

كيف تقع في الحب

رواية

ترجمة: إيهاب عبد الحميد



إلى دافيد

الذي علمني كيف أقع في الحب


mohamed khatab

1

كيف تقنع رجلاً أن يخفض مسدسه

يقولون إن الصاعقة أبداً لا تضرب مرتين. غير صحيح. أو، صحيح أنّ الناس يقولون ذلك؛ لكن العبارة نفسها ليست صحيحة كحقيقة.

بتمويل من وكالة ناسا، اكتشف علماء أن الصاعقة التي تمتد من السحاب إلى الأرض كثيراً ما تضرب الأرض في موضعين أو أكثر وأنّ فرص الإصابة بصاعقة أكثر ممّا يتصور الناس بنسبة خمسة وأربعين بالمئة تقريباً. لكن الناس يقصدون، على الأغلب، أن الصاعقة أبداً لا تضرب المكان نفسه في أكثر من مناسبة، وهي أيضاً مقولة غير صحيحة كحقيقة. ومع أن احتمالات الإصابة بصاعقة لا تزيد عن واحد لكل ثلاثة آلاف، فبين عامي 1942 و1977، أصيب روي كليفلاند سوليفان، وهو حارس على إحدى حدائق فيرجينيا العامة، بضربة صاعقة في خمس مناسبات مختلفة. نجا روي من جميع الصواعق، لكنه انتحر عندما كان في الحادية والسبعين، إذ أطلق الرصاص على معدته، وقيل إن السبب كان حباً من طرف واحد. إذا تجاوز الناس عن تشبيه الصاعقة، واكتفوا بقول ما يقصدون وحسب، لجاءت العبارة كالآتي: إن الشيء بعيد الاحتمال

أبداً لا يقع مرتين للشخص نفسه. غير صحيح. إذا كان السبب من وراء مقتل روي صحيحاً، فكسرة القلب تحمل وسماً لحزن لا يشبه حزناً آخر، ولا بد وأنّ روي كان سيدرك أكثر من أي شخص آخر أن ثمة احتمال قوي أن يُصاب ثانية بهذه البلوى بعيدة الاحتمال. وهو ما ينقلني إلى نقطة انطلاق قصتي؛ الواقعة الأولى من بين واقعتين بعيدَتَي الاحتمال حدثتا لي.

كانت الساعة الحادية عشرة مساء في إحدى ليالي ديسمبر قارسة البرودة في دبلن ووجدت نفسي في مكان لم يسبق أن كنت فيه. ليس ذلك تشبيهاً بلاغياً لحالتي النفسية، وإن كان يصلح لذلك؛ ما أقصده هو أنني لم يسبق لي حرفياً وأن كنت في هذه المنطقة من قبل، من الناحية الجغرافية. هبّت ريح باردة كالثلج بين مساكن «ساوثسايد» المهجورة، فردّدت نغمات سماوية لدى مرورها بالنوافذ المحطّمة والسقالات التي يؤرجحها الهواء. كانت ثمة فجوات سوداء واسعة محلّ النوافذ، أرضيات بلا تشطيب بها حُفر متوغّدة وبلاطات مقلوبة، أنابيب متناثرة في الشرفات ومخارج الطوارئ، أسلاك ومواسير تبدأ من مكان عشوائي وتنتهي في لا مكان، المكان مسرح مهيّأ لمأساة. المنظر وحده، ناهيك عن درجة الحرارة التي تقلّ عن الصفر، جعلني أرتجف. كان يفترض بهذا العقار أن يكون ممتلئاً بأسر غارقة في النوم، أنوار مطفأة وستائر مسدلة؛ لكن المجمع السكني كان خالياً من الحياة، إذ أخلاه أصحاب الشقق بعدما وجدوا أنفسهم يعيشون داخل قنبلة موقوتة مهدّدين في مكان لا يوفر لهم الأمن من الحرائق إضافة إلى بقية قائمة الأكاذيب التي قالها لهم المقاولون الذين لم يفوا بوعدهم المتمثّل في توفير حياة رغدة بأسعار السوق في فترة انتعاشها.

ما كان يجب أن أكون هناك. كان وجودي تعدياً على أملاك الغير، لكن ليس ذلك ما كان يجب أن يقلقني؛ لقد كان الوضع خطيراً. بالنسبة إلى الشخص العادي التقليدي كان مكاناً غير مرحّب، كان عليّ أن أستدير وأرجع من حيث أتيت. كنت أعرف كلّ هذا ومع ذلك مضيت في طريقي، وأنا أحاول استجماع شجاعتي. ودخلت.

بعدها بخمس وأربعين دقيقة كنت أقف في الخارج ثانية، أرتعد، أرتجف، وأنتظر مجيء الشرطة كما طلبوا مني عندما اتصلت برقم 999. رأيت أضواء سيارة الإسعاف من بعيد، وسرعان ما لحقت بها سيارة شرطة لا تحمل أية علامة مميزة. قفز منها المحقّق ماغواير، بوجه غير حليق، وشعر أشعث، وملامح خشنة ما لم يكن منهكاً. وقد عرفت بعدها أنه شخص حادّ المزاج، أشبه بعفريت علبة مضغوط في علبته جاهز للاندفاع في أية لحظة. ومع أنّ مظهره العام كان يليق بعازف روك، فقد كان ضابطاً في السابعة والأربعين من عمره، وفي أوقات العمل الرسمية، وهو ما أزاح الأناقة جانباً وأكّد على خطورة الموقف الذي وجدت نفسي فيه. بعد أن أرشدتهم إلى شقة سايمون، عدت إلى الخارج في انتظار إعادة سرد قصتي.

أخبرتُ المحقق ماغواير بما حدث مع سايمون كونواي، ذلك الرجل البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً الذي قابلته داخل البناية، والذي أُجلي من العقار، مع خمسين عائلة أخرى، لأسباب تتعلق بالسلامة. كان سايمون قد تكلّم بالأساس عن المال، عن الضغوط التي صار يتعرّض لها بعد أن وجد نفسه مُجبَراً على سداد أقساط قرض على شقة لم يكن مسموح له بالعيش فيها، وعن المجلس، الذي لم ينظر حتى الآن إلى دعواه التي يطالب فيها بإعفائه من دفع

إيجار سكنه البديل. وعن فقدانه لوظيفته مؤخراً. أعدتُ سردَ حواري مع سايمون على المحقق ماغواير، لكنني لم أتذكر كلماتي إلّا على نحو مشوّش، ورحت أقفز بين ما ظننت أنني قلته وما أدركتُ أنني لا بد قد قلته.

إذاً، كان سايمون كونواي يمسك بمسدس عندما رأيته. أظنّ أن دهشتي لرؤيته كانت أكبر من دهشته لظهوري المفاجئ في داره المهجورة. بدا لي أنه ظنّ أنّ الشرطة أرسلتني لأتكلم معه، ولم أخبره أن الأمر ليس كذلك. أردته أن يظنّ أن لدي جيشاً من الناس في الغرفة المجاورة بينما يمسك هو بهذا السلاح الأسود في يده، ملوّحاً به في كلّ اتجاه وهو يتكلم، وأنا أجاهد لكي أمنع نفسي من الانبطاح أرضاً، وفي لحظات لكي أمنع نفسي من الفرار. وبينما كان الذعر والخوف يتصاعدان بداخلي، حاولتُ أن ألاطفه، أن أهدِّئه وأقنعه أن يضع المسدس جانباً. تكلَّمنا عن طفلتيه، وفعلتُ ما بوسعي لأظهر له بصيصاً من النور وسط ظلامه، واستطعتُ أن أنجح في جعل سايمون يضع المسدس على منضدة المطبخ حتى أستطيع طلب الشرطة من أجل المساعدة، وهو ما فعلته. وعندما أغلقتُ الخط، حدث شيء ما. كانت كلماتي، برغم براءتها - تلك الكلمات التي أعرف الآن أنني ما كان يجب أن أنطق بها في تلك اللحظة - قد قدحت زناد شيء ما.

نظر سايمون إليَّ، وعرفتُ أنه لم يكن يراني. كان وجهه قد تغيّر. ودقت في رأسي أجراس إنذار، لكن قبل أن تُتَح لي فرصة قول أو فعل أيّ شيء، تناول سايمون المسدس، ورفعه إلى رأسه. وانطلقت الرصاصة.

2

كيف تهجرين زوجك
(من دون ان تجرحيه)

أحياناً، عندما تشهد أو تخوض شيئاً حقيقياً بحق، تجد نفسك راغباً في التوقف عن التظاهر. تشعر بأنك أبله، دجال مدّعي. تجد نفسك راغباً في الهروب من كلّ ما هو زائف، سواء كان زائفاً على نحو بريء وحَميد، أو كان أخطر من ذلك؛ مثل زواجك. وهذا ما حدث معي.

عندما يضبط شخص نفسه وهو يحسد الناس على إنهاء زيجاتهم، فعلى هذا الشخص أن يعرف أن ثمة مشكلة في زواجه. هذا هو الموقف الذي وجدتُ نفسي فيه على مدار الأشهر القليلة الماضية على هذا النحو غير المألوف، حيث تستطيع أن تعرف شيئاً لكنك في الوقت نفسه لا تعرفه بحقّ. وفور أن انتهى الأمر أدركتُ أنني لطالما كنت أعرف أن الزواج لم يكن صائباً. عندما كنت داخل الزواج كنت أشعر بلحظات من السعادة وبإحساس عام بالأمل. ومع أنّ الإيجابية هي البذرة التي تطرح كثيراً من الأشياء العظيمة، فإن التفكير الطموح وحده لا يشكّل أساساً جيداً للزواج. لكن الحادث، تجربة سايمون كونواي، كما صرتُ أسميها، ساعدتني على أن أفتح

عيني. كنت قد شهدت واحداً من أكثر الأشياء حقيقية في حياتي وجعلني ذلك أريد أن أكفّ عن التظاهر، جعلني أريد أن أكون حقيقية وأن أجعل كلّ ما في حياتي حقيقياً وصادقاً.

ظنّت أختي بريندا أنّ السبب وراء انفصالي هو الاضطراب الناتج من التعرّض لصدمة، ورجتني أن أتكلم مع شخص حول الأمر. أخبرتها بأنني أتكلم مع شخص بالفعل، وأن ثمة حوار داخلي يدور منذ بعض الوقت. وهذا صحيح من زاوية ما؛ وما فعله سايمون أنه جعل لحظة الاستنارة الأخيرة تأتي بسرعة. بالطبع لم يكن ذلك هو الردّ الذي انتظرَته بريندا؛ كانت تقصد حواراً مع شخص مدرَّب بطريقة احترافية، لا دردشة سكارى حول زجاجة نبيذ في مطبخها عند منتصف الليل، وفي يوم من أيام وسط الأسبوع.

طالما كان زوجي، باري، متفهماً وداعماً لي وقت الحاجة. هو أيضاً ظنّ أنّ القرار المفاجئ جزء من «أثر التموّج» الذي أطلقه دوي الرصاصة. ولكن عندما أدرك - بينما كنت أحزم أغراضي وأغادر المنزل - جدّيتي، سارع ووصفني بأكثر الأشياء انحطاطاً. لم ألُمْه، مع أنني لم أكن بدينة ولم يسبق لي أن كنت، ودُهشت حين تبيّن لي أنني كنت مغرمة بأمه أكثر بكثير ممّا كان يظن. أنا أفهم أن الجميع مرتبكون وغير قادرين على تصديقي. الأمر يرجع إلى مهارتي في إخفاء تعاستي، كما يرجع إلى التوقيت الذي اخترته.

في ليلة تجربة سايمون كونواي، وبعد أن أدركتُ أن الصرخة المروعة قد انطلقت من فمي أنا، وبعد أن اتصلتُ بالشرطة للمرة الثانية وأدليتُ بشهادتي من أجل كتابة البلاغ، وبعد تناول شاي بالحليب في كوب من «الستايروفوم» من أحد فروع «يوروسبار» القريبة، قدتُ السيارة إلى منزلي وفعلتُ أربعة أشياء. أولاً، أخذت

حماماً في محاولة لتطهير نفسي من المشهد؛ ثانياً، تصفَّحت نسختي التي قرأتها مراراً من كتاب **كيف تتركين زوجك (من دون أن تجرحيه)**؛ ثالثاً، أيقظتُه بكوب من القهوة وشريحة من الخبز المحمص لأخبره أن زواجنا قد انتهى؛ ورابعاً، عندما استجوبني، أخبرته أنني شاهدتُ رجلاً يطلق النار على نفسه. الآن حين أتذكر، يسترعي انتباهي أن باري سألني عن تفاصيل الحادث أكثر ممّا سألني عن موضوع إنهاء زواجنا.

من وقتها، ظلّ سلوكه يفاجئني، ودهشتي نفسها صدمتني بالقدر نفسه، لأنني كنت أظنني أعرف الكثير من قراءتي في هذه الأمور. كنت قد استقصيت كثيراً قبل هذا الامتحان الحياتي الكبير، إذ قرأتُ كثيراً حول المشاعر التي سوف تنتابنا، وتلك التي قد تنتابنا، إذا قررتُ في لحظة ما أن أنهي الزواج - فقط لأستعدّ، لأحيط علماً، لأعرف إن كان ذلك هو القرار الصحيح. كان لدي أصدقاء انتهت زيجاتهم، وقضيت ليالٍ طويلة وأنا أنصت للطرفين. مع ذلك لم يخطر ببالي قط أن يتحوّل زوجي إلى ذلك الرجل الذي صار، أنه سيخضع لعملية زراعة شخصية كاملة، يصبح بعدها على هذا القدر من البرود والسفالة، على هذا القدر من المرارة والخبث كما صار. الآن أصبحت الشقة، التي كانت ملكنا معاً، شقته؛ لن يسمح لي بأن أضع قدمي داخلها. السيارة التي كانت ملكنا معاً صارت سيارته، لن يسمح لي باستخدامها. وكل ما كان ملكنا معاً، سوف يفعل كلّ ما بوسعه لكي يحتفظ به لنفسه. حتى الأشياء التي لا يحتاجها. وهذه هي كلماته نصاً. لو كان لنا أطفال لاحتفظ بهم ومنعني من رؤيتهم بتاتاً. وقد ذكر ماكينة القهوة تحديداً، وأبدى هوسه بالتملّك تجاه أكواب الـ«اسبرسو»، وتكلم مسعوراً عن محمصة الخبز وهاج وماج

على غلاية الشاي. تركته يرغي ويزبد في المطبخ، وكذا فعلت في غرفة الجلوس، وغرفة النوم، بل وقد تبعني إلى الحمام ليصرخ فيّ وأنا أتبوّل. حاولت الحفاظ على هدوئي وتفهّمي بقدر استطاعتي. لطالما كنت مستمعة جيدة، أستطيع أن أستمع إليه حتى النهاية، ما لم أكن ماهرة فيه هو التفسير واندهشتُ أنني بحاجة إلى ذلك قدر حاجته. كنت متأكدة أنه، في أعماقه، يشعر بالأحاسيس نفسها تجاه زواجنا، لكنه كان مجروحاً جداً لأن هذا يحدث له حتى أنه نسي الأوقات التي كنا نشعر فيها، كلانا، بأننا أسرى لشيء كان خطأ من البداية. لكنه كان غاضباً، والغضب كثيراً ما يصمّ الآذان عن الحقيقة؛ هكذا كان غضبه على أية حال. وهكذا، انتظرتُ حتى تنتهي نوبات الغضب على أمل أن تأتي لحظة نتكلم فيها عن الأمر بصدق.

كنت أعرف أنّ ما فعلته هو الصواب ولكن كان صعباً عليّ أن أتعايش مع الألم الذي شعرتُ به في قلبي بسبب ما فعلته به. وهكذا أصبحتُ أحمل على عاتقي همَّ ذلك، إضافة إلى ذلك همَّ فشلي في منع رجل من إطلاق النار على نفسه. كانت شهور قد مرّت لم أنعم فيها بنوم هانئ، وبدا لي وقتها أنني لم أحظَ بلحظة واحدة من النوم طوال أسابيع.

قلت للعميل الجالس في المقعد ذي الذراعين أمام مكتبي:

– أوسكار، سائق الحافلة لا يريد أن يقتلك.

– بل يريد. إنه يكرهني. وأنتِ لن تعرفي لأنك لم تريه ولم ترَي كيف ينظر إليّ.

– ولماذا تعتقد أن سائق الحافلة لديه هذا الشعور تجاهك؟

هزّ كتفيه:

- فور أن تقف الحافلة، يفتح الباب ويرميني بهذه النظرة.
- هل يقول لك أي شيء؟
- عندما أصعد لا يقول شيئاً. عندما لا أصعد، يدمدم متأففاً.
- هل هناك مرات لا تصعد فيها؟
قَلَّب عينيه ونظر إلى أصابعه.
- أحياناً لا أجد مقعدي شاغراً.
- مقعدك؟ هذا أمر جديد. أي مقعد؟
يتنهّد، مدركاً أن أمره قد افتضح، ويرتبك.
- اسمعي، كلّ مَن في الحافلة يحدق فيّ، طيب؟ أنا الوحيد الذي يصعد من تلك المحطة وكلهم ينظرون إليّ. ولأنهم جميعاً يحدقون فيّ أجلس في المقعد خلف السائق مباشرة. تعرفين، المقعد المدار بحيث يواجه النافذة. وهو معزول تماماً عن بقية الحافلة.
- تشعر بالأمان هناك.
- إنه مثالي. أستطيع أن أجلس في هذا المقعد طول الطريق داخل المدينة. لكن أحياناً أجد هذه الفتاة جالسة فيه، هذه الفتاة ذات الاحتياجات الخاصة، تستمع إلى الـ «آي بود» خاصتها وتغني أغنيات فريق «ستيبس» حتى تسمعها الحافلة كلها. عندما تكون هناك لا أستطيع الصعود ليس فقط لأنّ ذوي الاحتياجات الخاصة يثيرون أعصابي ولكن لأنه مقعدي. تعرفين؟ ولا أستطيع أن أعرف إن كانت جالسة عليه حتى تتوقف الحافلة. وبعدها ألقي نظرة على المقعد لأرى إن كان شاغراً، ثم أخرج إذا وجدتها هناك. سائق الحافلة يكرهني.
- منذ متى وأنت تفعل ذلك؟
- لا أعرف، بضعة أسابيع.

- أوسكار، أنت تعرف معنى هذا. علينا أن نبدأ من الأول مرة أخرى.

دفن وجهه بين يديه وبدا على حافة الانهيار.

- يا إلهي! لكنني وصلت إلى نصف الطريق.

- حذار من أن تطرح قلقك الحقيقي على خوف مستقبلي آخر. دعنا ننهي هذا الأمر الآن. إذاً، غداً ستصعد إلى الحافلة. ستجلس في أي مقعد شاغر في الحافلة وستظلّ فيه لمحطة واحدة، ثم تنزل وتسير إلى المنزل. في اليوم التالي، ستصعد إلى الحافلة، وتجلس في أي مكان، وستظل جالساً لمحطتين ثم تسير إلى المنزل. ويوم الخميس ستظل جالساً لثلاث محطات، والجمعة لأربع محطات، هل تفهم؟ عليك أن تأخذ الأمور بالتدريج، خطوات صغيرة وستجد نفسك وصلت.

لم أكن أعرف، هل كنت أحاول إقناعه أم إقناع نفسي.

رفع أوسكار وجهه ببطء. كان قد صار شاحباً لا لون فيه.

قلت برقّة:

- تستطيع أن تفعلها.

- أنتِ تجعلين الأمر يبدو بسيطاً جداً.

- وهو ليس بسيطاً بالنسبة لك، أفهم ذلك. استخدِم تقنيات التنفس. وسرعان ما ستدرك أنه ليس بتلك الصعوبة. ستكون قادراً على البقاء في الحافلة طيلة الطريق إلى المدينة، وهذا الخوف سوف يحلّ محله شعور بالابتهاج. وسرعان ما ستتحول أسوأ أوقاتك إلى أسعد الأوقات لأنك ستكون قد تغلبت على تحديات هائلة.

بدا عليه الشكّ.

- ثِقْ بي.

- أنا أثق بك، لكنني فقط لا أجد في نفسي الشجاعة.

- ليس الشجاع هو مَن لا يخاف، الشجاع هو مَن يتغلب على خوفه.

- أحد كتبك؟

قالها وهو يشير إلى الأرفف المكدّسة بكتب المساعدة الذاتية في مكتبي.

ابتسمت:

- بل نيلسون مانديلا.

قال، وهو ينهض من المقعد:

- مؤسف أنك تعملين في مجال التوظيف، كنت لتصبحي اختصاصية نفسية جيدة.

- طيب، أنا أفعل ذلك لأجلنا نحن الاثنين. إذا استطعت الجلوس في الحافلة لأكثر من أربع محطات سوف يزيد هذا من فرص العثور على وظيفة لك.

حاولتُ إخفاء التوتر من صوتي. كان لوسكار عالِماً موهوباً ولامعاً أستطيع أن أجد له وظيفة بسهولة - بل إنني وجدت له ثلاث وظائف من قبل - لكن بسبب مسألة المواصلات، كانت فرصه محدودة. كنت أحاول مساعدته ليتغلب على مخاوفه حتى أستطيع في النهاية أن أضعه في وظيفة يذهب إليها كلّ يوم. كان خائفاً من تعلم قيادة السيارة ولم أستطع أن أذهب بعيداً إلى حدّ أن أصبح معلمته، لكنه وافق على هزيمة خوفه من المواصلات العامة على الأقل. ألقيت نظرة على الساعة فوق كتفه.

- طيب، حدد موعداً الأسبوع القادم مع جيمّا، في انتظار أن أسمع منك كيف سارت الأمور.

فور أن أغلق الباب من خلفه تخلّيت عن ابتسامتي وفتّشتُ في رفّ الكتب بحثاً في مقتنياتي من مجموعات «كيف تـ. . .». كان العملاء يندهشون من كمية الكتب التي أحتفظ بها، وكنت أعتقد أنني وحدي أحافظ على المكتبة الصغيرة المملوكة لصديقتي أميليا مفتوحة. كانت أشبه بمجموعة من الكتب المقدّسة، وسيلتي لإصلاح ما فسد عندما أشعر بالضياع أو أحتاج إلى حلول من أجل العملاء المتعثرين. ولطالما حلمتُ على مدار السنوات العشر الماضية بكتابة واحدٍ من هذه الكتب، لكنني لم أتجاوز قطّ مرحلة الجلوس إلى مكتبي وتشغيل الكمبيوتر، وأنا مستعدة، وجاهزة لسرد قصتي، لأنتهي وأنا أحدق في الشاشة البيضاء وفي وميض الأيقونات فقط، فيما يعكس الفراغ أمام عيني ما أتمتع به من تدفق إبداعي.

قالت شقيقتي بريندا إنني شغوفة بفكرة كتابة كتاب أكثر من شغفي بالكتابة نفسها، لأنني إنْ كنت أريد الكتابة حقاً، لكتبت، كل يوم، بنفسي، لنفسي، سواء كان كتاباً أم لا قالت إن الكاتب يشعر بأنه مدفوع للكتابة سواء كانت لديه فكرة أم لا، سواء كان لديه كمبيوتر أم لا، سواء كان لديه قلم وأوراق أم لا والرغبة التي لديه لا يتحكّم فيها قلم من ماركة معينة أو لون معين أو إن كانت قهوته بها سكر كفاية أم لا - وهي الأمور التي كانت بمثابة عناصر إلهاء وعقبات تعرقل عمليتي الإبداعية كلما جلست لأكتب. كثيراً ما كانت بريندا تخرج بآراء مثيرة للشفقة، لكن ملاحظاتها عني تلك المرة ربما كانت حقيقية. كنت أريد أن أكتب، ولكنني لم أعرف إن كنتُ أستطيع الكتابة، وكنت أخاف إن بدأت يوماً ما أن أدرك أنني لا أستطيع. طيلة شهور كنت أنام وإلى جوار سريري كتاب كيف تكتب رواية ناجحة لكنني لم أفتحه ولو مرة واحدة، خوفاً من أن أدرك

عدم مقدرتي على الالتزام بالنصائح وأن يعني ذلك عجزي عن تأليف كتاب قط، لذا خبّأته في الخزانة المجاورة للفراش، مؤجّلة هذا الحلم تحديداً حتى يأتي الوقت المناسب.

أخيراً اكتشفت ما كنت أبحث عنه على الرف. **ست نصائح حول كيف تطرد موظفاً (بالصور).**

لستُ واثقة من كون الصور مفيدة، لكن سبق لي وأن قمتُ بمحاولة فوقفت أمام مرآة الحمام وحاولت تقليد النظرة القلقة على وجه الموظف. راجعت الملاحظات التي كنت كتبتها على وريقة لاصقة ثبتُّها على الغلاف من الداخل، غير واثقة ما إذا كنت سأستطيع القيام بالأمر. كانت شركتي، «روز للتوظيف»، قد بدأت منذ أربع سنوات، وكانت مكتباً صغيراً يضمّ أربعة أشخاص، بالإضافة إلى سكرتيرة، جيمّا، تساعدنا على إنجاز أعمالنا. لم أكن أرغب في التخلي عنها، لكن الضغوط المالية الشخصية المتزايدة جعلتني مضطرة للتفكير في الأمر. كنت أقرأ ملاحظاتي عندما سمعتُ طرقاً على الباب، سرعان ما تبعه دخول جيمّا.

- جيمّا!

صرختُ، وقلبتُ الكتاب في محاولة لإخفائه عنها وأنا أشعر بالذنب. وبينما كنت أدسّه في رف مكدّس بالفعل، أفلتَ مني وسقط ليرتطم بالأرض، حيث هبط عند قدمي جيما.

ضحكت جيما وانحنت لتلتقط الكتاب. وإذ لمحت العنوان، امتقع وجهها. نظرت إليّ وقد اكتست ملامحها بمزيج من الدهشة، والفزع، والارتباك، والألم. فتحتُ فمي وأغلقته، من دون أن تخرج أية كلمة، وأنا أحاول تذكّر الترتيب الأمثل لإعلان الخبر كما ينصح به الكتاب، الصياغة الصحيحة، تعبيرات الوجه الصحيحة،

النصائح، الوضوح، التعاطف، من دون مبالغة في التأثر، التحدّث بصراحة أم من دون صراحة؟ لكن الأمر استغرق مني وقتاً طويلاً جداً، وفي أثناء هذا كانت قد فهمتني بالفعل.

- طيب، أخيراً تبيّن أن أحد كُتبك الغبية له فائدة.

قالتها جيمّا بعينين تترقرقان بالدموع وهي تدفع بالكتاب إلى ذراعيّ وتستدير، ثم سحبت حقيبتها واندفعت خارجة من المكتب.

رغم حرجي البالغ، شعرت بالمهانة لتأكيدها على كلمة أخيراً. كنت أعيش على تلك الكتب. إنها كتب مفيدة.

- ماغواير.

صاح الصوت غير المرحّب في الهاتف.

- المحقق ماغواير، أنا كريستين روز.

وضعت إصبعاً في أذني الحرة لأمنع صوت جرس الهاتف الذي لا يتوقف عن النواح في غرفة الاستقبال على الجانب الآخر من الحائط. لم تكن جيما قد عادت بعد خروجها العاصف، ولم أستطع إقناع زميليّ، بيتر وبول، بتقاسم واجبات جيمّا، إذ رفضا القيام بمهام شخص فُصل تعسفاً. كانوا جميعاً ضدي، بغضّ النظر عن اعترافي بخطئي مرة بعد أخرى. وعبارة «لم أقصد أن أفصلها اليوم» لم تكن وسيلة دفاع ناجعة.

كان صباحاً كارثياً بكل بساطة. لكن برغم حاجتي الواضحة إلى الإبقاء على جيما - وهو أمر كنت متأكّدة أن جيمّا تحاول إثباته - فإن حسابي البنكي رفض هذا الأمر. كان لا يزال أمامي سداد نصف قرض المنزل الذي كنت أملكه أنا وباري معاً، وابتداء من ذلك الشهر كان عليّ تدبير ستمئة يورو إضافية لاستئجار شقة من غرفة

واحدة في انتظار أن نحلّ مشاكلنا. وحين كنت أفكر أننا سوف نضطر إلى بيع شقة لا يريدها أحد، بسعر لا يستطيع أيّ منا العيش عليه حقاً، تخيّلت أنني سوف أنبش في مدخراتي لوقت طويل جداً. وحتى مع الاضطرار إلى اللجوء إلى إجراءات حرجة في الأوقات الحرجة، شنّ باري غزوة على مجوهراتي، مستعيداً كل قطعة أهداها لي ومحتفظاً بها لنفسه. تلك كانت رسالة البريد الصوتي التي استيقظتُ عليها ذاك الصباح.

- نعم؟

هكذا ردّ ماغواير، وقد بدا بعيداً عن الانشراح لسماع صوتي، وإن أدهشني تذكره لاسمي.

- ظللتُ أحاول الاتصال بك على مدار أسبوعين. وتركت لك رسائل.

- وصلتني جميعاً، وتكدست في بريدي الصوتي حتى أغلقته. لا داع للفزع. أنت لست في ورطة.

صدمتني هذه العبارة. لم يخطر ببالي أن أكون في ورطة.

- ليس هذا ما أتكلم من أجله.

تصنّع الدهشة وهو يقول:

- لا؟ لأنك لم تفسري لي حتى الآن ماذا كنت تفعلين في بناية مهجورة ضمن ممتلكات خاصة في الحادية عشرة مساء.

ظللتُ صامتة وأنا أتدبر الأمر. كلّ مَن أعرفهم تقريباً كانوا قد سألوني السؤال نفسه، ومَن لم يسألني كان من الواضح أنه يفكر في الأمر، ولم أعطِ أيّ منهم جواباً. كنت أحتاج إلى تغيير الموضوع بسرعة قبل أن يحاول محاصرتي ثانية.

- كنت أتصل لأسأل عن مزيدٍ من التفاصيل بخصوص سايمون

كونواي. أردت أن أعرف ترتيبات الجنازة. لم أجد أي شيء في الصحف. لكن ذلك كان قبل أسبوعين، لذا فقد فاتني.

حاولت أن أبقي غيظي بعيداً عن صوتي. كنت أتصل به من أجل المزيد من المعلومات، كان سايمون قد خلّف ثقباً هائلاً في حياتي وأسئلة لا تنتهي في رأسي. لم يكن لي أن أستريح قبل أن أعرف كلّ ما حدث وكلّ ما قيل بعد ذلك اليوم، أردت الاتصال بأسرته لكي أتمكن من إخبارهم جميعاً بالأشياء الجميلة التي قد قالها عنهم، كيف كان يحبهم كثيراً وكيف أن أفعاله ليست لها علاقة بهم. أردتُ أن أنظر في عيونهم وأن أخبرهم أنني قد فعلت كل ما بوسعي. من أجل تخفيف آلامهم أم تخفيف إحساسي بالذنب؟ وما العيب في أن أرغب في الاثنين معاً؟ لم أكن أريد أن أسأل ماغواير تلك الأسئلة تحديداً حتى لا أبدو يائسة جداً، وكنت أعرف انه لن يخبرني بأية حال، لكنني لم أستطع أن أضع خطّاً تحت هذه التجربة التي مررتُ بها وأواصل حياتي. كنت أريد المزيد، كنت أحتاج إلى المزيد.

- أمران. الأول، لا يجب عليك التورط كثيراً مع أية ضحية. أنا في هذه اللعبة منذ وقت طويل و. . .

- لعبة؟ لقد شاهدت رجلاً وهو يطلق النار على رأسه مباشرة أمام عيني. هذه ليست لعبة بالنسبة لي.

تهدّج صوتي، واعتبرت هذا مؤشراً على ضرورة أن أتوقف.

ساد صمت. انكمشتُ وغطيت وجهي. لقد أفسدتُ الأمر. استجمعت نفسي وتنحنحت.

- هالو؟

انتظرت رداً متذاكياً، شيئاً ساخراً وبارداً، لكنه لم يأتِ. بدلاً

من ذلك جاء صوته ليّناً، وأياً كان المكان الذي يجلس فيه فقد غمره الصمت، حتى أنني فكرتُ في قلق أن الجميع قد تركوا ما في أيديهم لكي ينصتوا إليّ.

قال برقّة، لأول مرة:

- تعرفين أنّ لدينا أناس هنا يمكنك الكلام معهم بعد حادث كهذا. لقد أخبرتك تلك الليلة. أعطيتك بطاقة. هل ما زلتِ تحتفظين بها؟

قلت غاضبة:

- لا أحتاج إلى الكلام مع أي شخص. كفَّ عن لعب دور الشخص اللطيف.

- طبعاً. اسمعي، كما قلت لك قبل أن تقاطعيني، ليست هناك تفاصيل عن الجنازة. ولم تكن هناك جنازة. لا أعرف من أين تحصلين على معلوماتك لكنهم يقولون لك أيَّ كلام.

- ماذا تقصد؟

- أيَّ كلام. أكاذيب.

- لا ماذا تقصد بأنه لم تكن هناك جنازة؟

بدا ساخطاً لاضطراره أن يشرح شيئاً واضحاً كالشمس بالنسبة له.

- إنه لم يمُت. لم يمُت بعد، بأية حال. هو في المستشفى. سوف أعرف أين. وسوف أتصل بهم لأخبرهم أنك تستطيعين رؤيته. لكنه في غيبوبة، ولن يتكلم.

تجمّدتُ، معقودة اللسان.

سادَ صمت طويل.

- هل هناك شيء آخر؟

تحرك ثانية. سمعت ارتطام باب يغلق ثم أصبح مرة أخرى في الغرفة الصاخبة.

جاهدتُ لتركيب فكرة واحدة وأنا أغطس ببطء في مقعدي.

وأحياناً عندما تشهد معجزة، تؤمن بأنّ كل شيء ممكن.

3

كيف تتعرف على المعجزة
وماذا تفعل عندها

كانت الغرفة لا تزال هادئة، والصوت الوحيد هو صفير شاشة القلب الخاصة بسايمون وأزيز جهاز التنفس وهو يساعده على سحب أنفاسه. كان سايمون على النقيض التام من الحالة التي رأيته عليها آخر مرة. كان الآن يبدو مسالماً، الجنب الأيمن من وجهه ورأسه مضمّد، الجنب الأيسر رائق وناعم كما لو أن شيئاً لم يحدث.

اخترت الجلوس على جانبه الأيسر.

همست لأنجيلا، الممرضة المناوبة:

- رأيته وهو يطلق النار على نفسه. رفع المسدس إلى هنا.

رفعتُ يدي إيضاحاً.

- وضغط على الزناد. رأيت كل شيء فيه يتطاير في كلّ مكان. كيف نجا؟

ابتسمت أنجيلا، ابتسامة حزينة، بل ليست ابتسامة حقيقية على الإطلاق، وإنما مجرد عضلات تعمل حول شفتيها.

- معجزة؟

واصلت الهمس، حتى لا يسمعنا سايمون.

- أيّ نوع من المعجزات؟ إنني أظلّ أراجع اللحظة، مرة بعد مرة في رأسي.

كنت قد قرأت كتباً عن الانتحار وعمّا يجب قوله. والكتب تقول إنك إذا استطعت أن تتحدث إلى شخص يهدّد بالانتحار وتقنعه أن يفكر بعقلانية، إذا فكر حقاً في حقائق الانتحار وعواقبه، فيمكن، ربما، أن يتراجع عن قراره. إنّ ما يبحث عنه هو تصحيح سريع لإنهاء آلامه العاطفية، لا لإنهاء حياته، وهكذا فإذا استطعت مساعدته على رؤية طريق آخر لتخفيف الألم، أصبح بإمكانك مساعدته.

- أظنني أبليت بلاء حسناً، باعتبار أنني لا أملك أية خبرة. أظنني استطعتُ النفاذ إلى داخله، أظنه استجاب لي حقاً. للحظة، على أية حال. أقصد أنه وضع المسدس جانباً. وسمح لي بأن أتّصل بالشرطة. لا أعرف ما الذي حدث فأعاده ثانية إلى تأملاته الداخلية.

قطبت أنجيلا حاجبيها وكأنها تسمع أو ترى شيئاً لا يروق لها.

- تعرفين أنها ليست غلطتك، أليس كذلك؟

قلت متّفقة معها:

- نعم، أعرف.

تفحصتني جيداً، متأملة، وركزتُ أنا على العجلة اليمنى من سرير المستشفى، وكيف تترك أثر احتكاك أسود عندما تتحرك في كلّ مرة، الكثير من آثار الاحتكاك جيئة وذهاباً، وحاولت أن أعدّ المرات التي تحركّت فيها. عشرات المرات على الأقل.

- تعرفين أنّ هناك أشخاصاً يمكنك التحدّث إليهم في هذا النوع من الأمور. ستكون فكرة جيدة أن تنفسي عن هواجسك.

- لماذا يقول الجميع هذا طوال الوقت؟

ضحكتُ، محاولة أن أبدو هادئة البال ولكن في أعماقي كنت أشعر بالغضب يحرق صدري. تعبت من كوني موضوعاً للتحليل، تعبتُ من معاملة الناس لي كما لو كنت شخصاً بحاجة إلى معاملة خاصة.

- أنا بخير.

- سأتركك معه لبعض الوقت.

غادرت أنجيلا، حذاؤها الأبيض صامت على الأرض، كما لو كانت تطفو عليها.

الآن وقد أتيت، لم أعرف بالضبط ماذا أفعل. مددتُ يدي إلى يده ثم أوقفتُ نفسي. إن كان واعياً، فربما لا يريدني أن ألمسه، ربما كان يلومني على ما حدث. كانت مهمتي أن أمنعه ولم أفعل. ربما كان يريدني أن أغيّر رأيه، ربما كان يحاول أن يدفعني إلى قول الكلمات الصائبة ولكنني خذلته. تنحنحت، ونظرت حولي لأتأكد أن أحداً لا يسمع وانحنيت على أذنه اليسرى من دون الاقتراب كثيراً كي لا أفزعه، وهمست:

- أهلاً يا سايمون.

نظرت إليه بحثاً عن ردة فعل. لا شيء.

- اسمي كريستين روز. المرأة التي تحدّثت إليك ليلة الـ. حادث. أتمنى ألا تمانع في جلوسي معك لبعض الوقت.

أنصتُّ لأسمع شيئاً، أي شيء، وتفحصت وجهه ويديه بحثاً عن علامات على كونه منزعجاً من وجودي. لم أكن أريد أن أسبب له مزيداً من الألم. وعندما ظلّ كل شيء على السطح كما هو، هادئاً وساكناً، استندتُ بظهري في المقعد وشعرت بالارتياح. لم أكن

أنتظر منه أن يفيق، ولم يكن لدي أي شيء أريد قوله. أحببت أن أكون هناك فقط، في الصمت، إلى جواره. لأنني عندما أكون بجواره لا أكون في أي مكان آخر، قلقة عليه.

في التاسعة مساء، بعد ساعات الزيارة، لم يكن أحد قد جاء ليطلب مني المغادرة. خمّنت أن المواعيد العادية لا تُحتسب لشخص في مثل حالة سايمون. لقد كان في غيبوبة، معتمداً على جهاز إعاشة، وحالته لم تكن تتحسن. قضيت الوقت وأنا أفكر في حياتي وحياة سايمون وكيف تسبّبت مقابلتنا في تغيير حياة كلٍّ منا تغييراً لا رجعة فيه. لم تكن قد مرَّت سوى أسابيع قليلة منذ محاولة انتحار سايمون، لكنها غيَّرت مسار حياتي بضربة جعلتها تدور حول نفسها. تساءلت إنْ كانت مجرد صدفة أم كان وجودي في هذا المكان العشوائي من تصاريف القدر!

- ماذا كنتِ تفعلين هناك؟

كان باري قد سألني هذا السؤال، مرتبكاً، وناعساً، وهو جالس في الفراش بوجه متغضّن، وقد تضخّمت عيناه الدقيقتان بعدما تناول نظارته ذات الإطار الأسود من على الطاولة ووضعها على وجهه. لم أعرف كيف أجيبه؛ ولن أعرف كيف أجيبه الآن. فالمجاهرة بالقول ستكون أمراً محرجاً، ستكشف كم وجدت نفسي ضائعة على نحو سخيف - ولا يفوتني ما في هذه العبارة من مفارقة.

وبعيداً عمّا كنت أفعله هناك، كان اختياري التورّط مع شخص يحمل مسدساً في بناية مهجورة كافياً لكي أسائل نفسي. كنت أحبّ مساعدة الناس لكنني لم أكن واثقة أنّ الأمر يقتصر على ذلك. كنت أنظر لنفسي بوصفي حلّالة مشاكل وأطبّق هذا التفكير على معظم جوانب حياتي. إذا كان ثمة شيء لا يمكن إصلاحه، فيمكن على

الأقل تغييره، وبخاصة السلوك. كانت منظومتي العَقدية نابعة من وجود أب حلّال للمشاكل. كان من طبيعته أن يسأل عن المشكلة ثم يشرع في حلّها كما كان يفعل مع بناته الثلاث اللاتي نشأن من دون أمهن. ولأنه كان يفتقر إلى غريزة ماما في معرفة إن كانت الأشياء مناسبة لنا أم لا، ولم يكن لديه مَن يناقش هذه الأمور معه، كان يسألنا، ويصغي إلى إجاباتنا، ثم يبحث عن الحل. هكذا كانت طريقته وهكذا كانت فكرته عمّا يستطيع فعله لأجلنا. فالأب الذي يُترك مع ثلاث طفلات دون العاشرة، أصغرهن لم تتجاوز الرابعة، يفعل ما بوسعه لحماية أطفاله.

أنا أدير وكالة توظيف خاصة بي، وهو أمر يبدو بسيطاً، وإن كنت أفضّل أن أفكر في نفسي بوصفي وسيط علاقات، أجد الشخص المناسب للوظيفة المناسبة. من المهم أن تجلب الطاقة المناسبة للشركة المناسبة، والعكس صحيح، أن تعرف ماذا تستطيع الشركة أن تقدّم لهذا الشخص. أحيانا يكون الأمر بسيطاً مثل الرياضيات، وظيفة متاحة لشخص متاح يمتلك المهارات اللازمة؛ وفي أحيان أخرى، عندما أتعرف أكثر على الشخص، مثل أوسكار، أتجاوز نداء الواجب عندما يتعلق الأمر بتسكينه في المكان المناسب. الناس الذين أتعامل معهم لديهم مشاعر مختلفة تجاه أهدافهم، بعضهم لأنهم فقدوا وظائفهم ويعانون من ضغط هائل، وبعضهم الآخر ببساطة لأنهم يحلمون بتغيير مسارهم المهني ويشعرون بالقلق لكنهم مشحونون بالتوقعات السعيدة، ثم هناك الذين يدخلون إلى محلّ العمل للمرة الأولى، متحمسين للبدايات الجديدة. وبغضّ النظر، فإن الجميع في رحلة، وأنا في وسط كلّ ذلك. لطالما شعرت بالمسؤولية نفسها تجاه كل منهم - أن أساعد الناس على العثور على

مكانهم المناسب في العالم. مع ذلك، ومع استخدام تلك الفلسفة، فقد أودَت كلماتي بسايمون كونواي إلى هذه الغرفة.

لم أرغب في تركه وحيداً، والعودة إلى شقة مستعارة لم تكن تروقني كثيراً، بلا تلفزيون وبلا شيء أفعله إلّا التحديق في الجدران الأربعة. كان لدي الكثير من الأصدقاء الذين أستطيع الإقامة معهم، لكن لأنهم أصدقاء مشتركون لي ولباري، تباطأوا في تقديم العروض، وترددوا في توريط أنفسهم في هذه المعمعة، أن يُنظر إليهم بوصفهم منحازين لأحد الطرفين، خاصة وأنني أنا مَن كنت أظهر بهيئة الشرير، الذئبة الكبيرة الشريرة التي حطَّمت قلب باري. وفضَّلتُ ألّا أعرِّضهم لهذه الضغوط. كانت بريندا قد دعتني لأذهب وأقيم معها، لكنني لم أستطِع تحمل انشغال أختي باضطراب ما بعد الصدمة الذي تفترض أنني أعاني منه. كنت بحاجة إلى أن أروح وأجيء على هواي من دون أن توجَّه لي أية أسئلة، وخاصة عن سلامتي العقلية. أردت أن أشعر بالحرية - فهذا هو السبب الذي جعلني أنفصل عن زوجي في المقام الأول. والحقيقة أن شعوري بالراحة وأنا في غرفة العناية المركزة أكثر من أي مكان آخر لهو شعور بالغ الدلالة.

إذاً، هذا هو الأمر الذي لم أستطع قوله للمحقق ماغواير، أو لباري، أو لبابا وشقيقتيّ، أو لأي شخص، حقاً. كان هناك مكان معين أحاول العثور عليه ليحسن مشاعري تجاه نفسي. تعلمت هذا من كتاب **كيف تعيش في مكانك السعيد**. كانت الفكرة تتمثل في اختيار مكان يرفع حالتك المعنوية. قد يكون مكاناً ربطته بذكرى أثرَت روحك أو ببساطة مكاناً أحببتَ إضاءته، أو مكاناً جعلك تشعر

بالرضا لسبب لا تستطيع تبيّنه على المستوى الواعي. وفور أن تجد المكان، كان الكتاب يقدِّم لك تمرينات لمساعدتك على استدعاء الإحساس السعيد نفسه الذي ربطته بهذا المكان في أي لحظة وفي أيّ مكان يرغب فيه قلبك، لكن ذلك لن يُجدي إلّا بعد أن تعثُر على المكان المناسب. وكنت أبحث. هذا ما كنت أفعله في موقع البناء تلك الليلة التي قابلتُ فيها سايمون كونواي. لم أكن أبحث عن هذه البناية نفسها، وإنما عمّا كان هناك قبل أن تظهر البناية. كانت لدي ذكرى سعيدة هناك على تلك القطعة من الأرض.

كانت مباراة كريكيت بين فريقَي «كلونتارف» و«ساجارت». كنت في الخامسة من عمري وكانت أمي قد توفيت قبل أسابيع قليلة وأتذكر أنه كان يوماً مشمساً، أول يوم مشمس بعد شتاء بارد مظلم طويل، وأنا وشقيقتاي هناك لمشاهدة بابا وهو يلعب. كان نادي الكريكيت بأكمله يحضر المباراة، أتذكّر رائحة البيرة، وأستطيع أن أستدعي المذاق المالح على شفتي من أكياس الفول السوداني التي كنت ألتهمها واحداً تلو الآخر. كان بابا يرمي الكرة وكنا قد اقتربنا من نهاية المباراة؛ رأيت تلك النظرة القوية على وجهه، النظرة التي كنا نراها كلّ يوم على مدار الأسابيع القليلة السابقة، النظرة الداكنة وعيناه ضائعتان فعلياً تحت حاجبيه. جاء دور رميته الثالثة وأطاح الضارب مضربه فأخطأ الكرة تماماً. اصطدمت الكرة بجذوع الـ«ويكيت» وخرج الضارب من اللعبة. صرخ بابا صرخة عالية وضرب الهواء بقبضته بقوة، وانفجر كلّ مَن حولنا بالهتاف. أخافني ذلك في البداية، أن أشاهد هذه الهستيريا الجماعية، وكأنهم جميع التقطوا فيروساً غريباً سبق وأن رأيته في فيلم من أفلام الزومبي وكنت الوحيدة التي لم تُصب به، لكن فور أن نظرت إلى وجه بابا فهمتُ

أنّ الأمر على ما يرام. كان يبتسم أكبر ابتسامة، وأتذكر النظرات على وجهي شقيقتيّ. هما أيضاً لم تكونا من عشاق الكريكيت - الحقيقة أنهما لم تتوقفا عن الندب طيلة الطريق في السيارة لحرمانهما من اللعب مع صديقاتهما في الشارع، لكنهما كانتا تتابعانه وهو يحتفل، يُرفع على أكتاف لاعبي فريقه، وكانتا تبتسمان، وأتذكر أن تلك هي اللحظة التي فكرت فيها: سوف نكون على ما يرام.

دخلت إلى المجمع السكني لأحظى بهذا الشعور مجدداً، لكن عندما دخلت رأيت أطلالاً وقابلت سايمون.

عندما تركت سايمون في المستشفى تلك الليلة واصلتُ بحثي من أجل العثور على أماكن سبق وأن رفعت حالتي المعنوية. كنت قد بدأت هذه العادة قبلها بستة أسابيع، حيث ذهبت إلى مدرستي الابتدائية القديمة، وملعب كرة سلة كنت قد قبّلتُ فيه صبياً ظننته من قبل بَعيد المنال بالنسبة لي، وإلى كليتي، وبيت جديّ، ومشتل اعتدتُ زيارته بصحبة جديّ، والحديقة المحلية، ونادي التنس حيث كنت أقضي الصيف، وغير ذلك من الأوكار التي كانت موضعاً للذكريات الطيبة. وكنت قد مررتُ دون تخطيط مسبق على منزل إحدى صديقاتي من المدرسة الابتدائية وبدأتُ أكثر الحوارات إحراجاً في حياتي، وسرعان ما تمنيتُ لو أنني لم أتعب نفسي بالذهاب إلى هناك. كنت قد زرتها لأنه لدى مروري ببيتها راودتني ذكرى مفاجئة: الرائحة الحلوة الدافئة الساخنة للخبيز في مطبخها. كلّ مرة كنت ألعب هناك، كان يبدو لي أن أمها تخبز. بعدها بأربعة وعشرين عاماً، كانت رائحة الخبيز قد رحلت، وكذا أمها، وحلّ محلها طفلان متعبان هما طفلا صديقتي القديمة، ظلا يتسلقان عليها

ولم يسمحا لنا ولو بثانية واحدة للكلام، وخيراً فَعَلا حيث لم يكن لدينا ما نقوله بأية حال باستثناء السؤال الصامت على شفتيها: ما **الذي أتى بك إلى هنا؟ إننا لم نكن مقرّبتين إلى هذه الدرجة حتى.** ومع أنها افترضت أنني أعاني من شيء ما، فقد كانت مهذبة بما يكفي لكي لا تسأل هذا السؤال.

على مدار الأسابيع القليلة الأولى، لم يزعجني كوني لم أعثر على مكاني، كان البحث طريقة لإزجاء الوقت، ولكن بعد ثلاثة أسابيع بدأ عجزي عن العثور على مكاني يشغل بالي. وبدلاً من إعادة شحني بالطاقة، وجدته يمحو الذكريات الطيبة التي كانت عندي.

بعد زيارة المستشفى تلك، زادَ إصراري على العثور على مكان أكثر فأكثر. كنت بحاجة إلى شيء يرفع معنوياتي وكنت أعرف أن العودة إلى شقتي المستأجرة بحوائطها ذات اللون «الكريمي» لن يقدِّم لي أي عزاء.

هذا ما كنت أفعله في اللحظة التي وقع فيها الحدث بَعيد الاحتمال للمرة الثانية في الشهر نفسه للشخص نفسه.



4

كيف تتمسك بالحياة الغالية

كانت شوارع مدينة دبلن هادئة في ليلة الأحد تلك من شهر ديسمبر وكان البرد قارساً وأنا أمضي في طريقي من رصيف ميناء ولينغتون باتجاه جسر هابيني. كان الجو ينذر بهطول الثلج، لكنه لما يهطل. جسر هابيني (أو النصف درهم)، واسمه الرسمي جسر ليفي، جسر المشاة الساحر القديم هذا بأسواره الحديد، يقطع النهر، رابطاً بين شمال المدينة وجنوبها. وقد عُرف بهذا الاسم (النصف درهم) لأنّ هذه كانت قيمة رسم عبوره عندما شيِّد عام 1816. على هذا الجسر يتبدّى واحد من أكثر المناظر تميزاً في دبلن، ويزداد جماله ليلاً عندما تُضاء مصابيح الزينة الثلاثة. كنتُ قد اخترت هذا المكان لأنني حين كنت أدرس اللغة الإسبانية والأعمال في الجامعة، اضطررتُ إلى الإقامة في إسبانيا لمدة عام. لا أتذكر درجة ترابطنا الأسري قبل وفاة ماما، لكنني أتذكّر بكل تأكيد كيف أخذنا نوثّق علاقاتنا بعدها، ومن ثم، مع مرّ السنين، بدا من غير المفهوم أن يترك أي منّا الحظيرة لأي سبب كان. حين بدأت دراستي الجامعية كنت أعرف أن برنامج «إيراسموس» للتبادل الطلابي هو واقع محتوم ولا يمكن تجنّبه، وفي تلك المرحلة شعرتُ برغبة كاسحة أن أقطع

هذه الروابط وأن أفرد جناحيّ. وفور وصولي إلى هناك عرفت الخطأ الذي وقعت فيه، وصرت أبكي طوال الوقت، ولم أعد أستطيع تناول الطعام، ولم أعد أستطيع النوم، ولم أعد قادرة على التركيز على دراستي إلّا قليلاً. كنت أشعر وكأنّ قلبي قد انتُزع من صدري وظلّ في الديار مع أسرتي. كان أبي يكتب لي كلّ يوم، تأملات خفيفة الظلّ عن حياته اليومية هو وشقيقتيّ حاول من خلالها أن يرفع من روحي المعنوية، لكن كلّ ما فَعَلَته هو أنها أذكَت نار الحنين أكثر وأكثر، لكن كان ثمة بطاقة بريدية واحدة تحديداً ساعدتني على الإفلات من براثن الحنين المزمن. أو بالأحرى، ظلّ الحنين موجوداً، لكنني أصبحت قادرة على التعامل معه. كانت البطاقة البريدية تحمل صورة جسر هابيني، في الليل، وخطّ أفق دبلن مضاء في الخلفية وكل الأنوار الملونة تنعكس على نهر ليفي بالأسفل. فتنتني الصورة، وظللتُ أنظر إلى الناس بملامحهم المشوّشة وأحاول أن أعطيهم أسماء وقصصاً، أفكر في الأماكن التي يتجهون إليها، والأماكن التي جاءوا منها، أسماء مألوفة تذهب من وإلى أماكن أعرفها. كنت أعلقها على الحائط عندما أنام وفي النهار أحملها معي في دفتر يوميات الجامعة الخاص بي. وشعرتُ كما لو أنني أحمل معي جزءاً من دياري طوال الوقت.

لم أكن غبية لحدّ أن أظن أنني قادرة على استدعاء هذا الشعور بالضبط فور رؤية الجسر، لأنني كنت أرى الجسر كلّ أسبوع تقريباً. عند تلك النقطة كنت قد تمرّست جيداً على البحث عن أماكن سعادتي وعرفتُ أنّ الأمر لن يكون فورياً، لكنني أملتُ أن أتمكن من الوقوف هناك على الأقل لاسترجاع الإحساس، الخبرة، المشاعر. كنا في الليل، وكان خطّ الأفق مُضاء في الخلفية، ومع أنّ المباني

الجديدة المطلّة على أحواض السفن خلقت صورة مختلفة عن البطاقة البريدية القديمة، كان انعكاس الأنوار على النهر المظلم لا يزال شبيهاً. كان المنظر يضمّ جميع العناصر المضبوطة في البطاقة البريدية.

باستثناء شيء واحد.

رجل وحيد، يرتدي ملابس سوداء، ويتشبّث بالجانب الخارجي من الجسر بينما ينظر إلى النهر البارد وهو يجري أسفله بسرعة وعلى نحو غدار.

على دَرَج مدخل رصيف ميناء ولينفتون كان عدد قليل من الناس قد تجمعوا. كانوا واقفين ينظرون إلى الرجل على الجسر. انضممتُ إليهم في صدمتهم، متسائلة إذا كان هذا هو ما شعر به روي كليفلاند سوليفان عندما ضربته الصاعقة للمرة الثانية: ليس ثانية.

كان شخص ما قد استدعى الشرطة وكانوا يتناقشون كم من الوقت سيمرّ قبل وصولهم، وكيف أنهم قد لا يصلوا في الوقت المناسب. كانوا جميعاً يتجادلون حول ما ينبغي فعله. ورغماً عني، ظهر أمامي وجه سايمون قبل أن يضغط على الزناد ثم بعد ذلك، في العناية المركزة، مستعيدة كيف تغيّرت ملامحه في شقته قبل أن يلتقط المسدس. شيء ما كان قد قدح الزناد تلك اللحظة. أكان ما قلته له؟ لم أستطِع تذكّر الكلمات التي نطقتُ بها؛ ربما كانت غلطتي. فكرت في ابنتيه الصغيرتين، وهما تنتظران بابا أن يستيقظ، وتتساءلان لماذا لا يستيقظ كما كان يفعل دائماً. ثم نظرت إلى الرجل على الجسر وفكّرت في الحيوات التي لا تُعدّ التي ستتأثر بحاجته إلى إنهاء ألمه، وبعدم قدرته على رؤية مخرج آخر.

فجأة، اندفع الأدرينالين في جسدي ولم يعُد ثمة قرار آخر

بإمكاني اتخاذه. لم يكن أمامي خيار: كان عليّ أن أنقذ الرجل على الجسر.

هذه المرة، سأفعلها بشكل مختلف. منذ حادثة سايمون كونواي قرأتُ بضعة كتب، في محاولة لفهم ما الخطأ الذي ارتكبته، وكيف كان بإمكاني إقناعه. الخطوة الأولى يجب التركيز على الرجل، وتجاهل الهرج من حوله. كان الأشخاص الثلاثة الواقفون بجواري قد بدءوا في النقاش حول ما يجب فعله، وهذا لم يكن ليفيد أياً مَن كان. وضعت قدمي على الدرجة. قلت لنفسي: أستطيع أن أفعلها، وشعرت بأنني واثقة ومسيطرة على الأمر.

صدمتني الريح الثلجية مثل صفعة على الوجه، وقالت لي «اصحي! استعدي». كانت أذناي قد بدأتا تتألمان من البرودة وبدأ أنفي ينمَل ويرشح. كان المد عالياً في نهر ليفي، المياه سوداء، قاتمة، خبيثة، ومنفِّرة. عزلت نفسي عن الناس المترقبين من خلفي، وحاولت نسيان أنّ كلّ كلمة أنطق بها وكلّ نَفس مرتعش أسحبه يمكن للريح أن تحمله إلى آذان المتفرجين. وازدادت رؤيتي له وضوحاً: رجل يرتدي الأسود، يقف على الجانب الخطأ من السور، قدماه على النتوء الضيق فوق الماء، يداه تُمسكان بالدرابزين. كان وقت التراجع قد فات.

- هالو!

ناديته بلطف، كي لا أفزعه فيسقط في الماء. ومع أنني حاولتُ أن يكون صوتي مسموعاً فوق الريح، فقد حافظتُ عليه هادئاً وواضحاً بنبرة منتظمة وتعبير ناعم، وقد تذكرت ما سبق لي قراءته: تجنبي النبرات الحادة وحافظي على التواصل بالعيون.

- أرجوك لا تفزَع. لن ألمسك.

استدار لينظر إليّ، ثم عادت عيناه مباشرة إلى النهر في الأسفل ثانية، وراح يحدق في الماء بتصميم. كان من الواضح أنني لم أنجح إلّا قليلاً في النفاذ إلى الأفكار التي تدور في عقله: كان تائهاً في رأسه بما لا يسمح له بالانتباه إليّ.

- اسمي كريستين.

قلتها، وأنا أخطو خطوات بطيئة ثابتة باتجاهه. ظللتُ بالقرب من حافة الجسر، حيث أردتُ التمكّن من رؤية وجهه وأنا أحدثه.

صرخ قائلاً، بصوتٍ كشف عن ذعره:

- لا تقتربي أكثر من ذلك!

توقفت، سعيدة بالمسافة التي حققتها؛ كان على بُعد ذراعٍ مني. إن اضطررت لذلك ولم يكن ثمة بديل، أستطيع أن أمدّ يدي وأشدّه.

- طيب. طيب. سأنتظر هنا.

استدار ليرى مدى بُعدي عنه.

- حافظ على تركيزك. لا أريدك أن تسقط.

- أسقط؟

رفع رأسه إليّ بسرعة ثم نكسها مرة أخرى، ثم رفعها من جديد تجاهي فالتقَت أعيننا. كان في الثلاثينيات، وجهه منحوت، شعره مختبئ تحت قبعة صوفية سوداء. حدّق فيّ بعينين زرقاوين، كبيرتين ومرتعبتين، الحدقتان واسعتان حتى تكادا تستوليان على عينيه، وتساءلت إنْ كان سكران أو تعاطى شيئاً.

قال:

- هل أنتِ جادة؟ أتظنين أنه يهمني أن أسقط؟ أتظنين أنني جئتُ إلى هنا بالصدفة؟

حاول أن ينصرف عني ثانية وأن يركز على النهر.

- ما اسمك؟

احتدّ قائلاً:

- اتركيني لحالي.

ثم أضاف بلطف:

- أرجوكِ

حتى في تعاسته كان مهذباً.

- أنا مهتمة لأمرك. أرى أنك تعيس. أنا هنا لمساعدتك.

- لا أحتاج إلى مساعدتكِ.

سدّ الطريق أمامي وركّز على المياه ثانية. راقبتُ مفاصل أصابعه القابضة على الحديد ولونها يتحوّل من الأبيض إلى الأحمر وهو يشدد قبضته ويرخيها. ضرب قلبي بعنف في كلّ مرة ترتخي فيها قبضته وارتعبت أن تفلت نفسها تماماً. لم يكن أمامي وقت طويل.

اقتربت خطوة صغيرة.

- أريد أن أتكلم معك.

- أرجوكِ ابتعدي. أريد أن أكون وحدي. لم أكن أريد أياً من هذا، لم أكن أريد أن أتسبب في منظر كهذا، فقط أردت أن أفعلها وحدي. فقط... لم أفكر أن الأمر سيستغرق كل هذا الوقت.

ابتلع ريقه ثانية.

- اسمع، لا أحد سيقترب منك إلّا بموافقتي. لذا لا داعي للذعر، ولا للعجلة، لستَ مضطراً إلى فعل أي شيء من دون التفكير فيه جيداً. لدينا الكثير من الوقت. كلّ ما أطلبه منك هو أن تتكلم معي.

ظلّ صامتاً. الأسئلة الأكثر لطفاً لم تأتِ بإجابات. كنت

مستعدّة لأن أسمعه، مستعدة لقول كلّ الأشياء الصحيحة، لكن أسئلتي كانت تُقابَل بالصمت. على الجانب الآخر، لم يكن قد قفز بعد، على الأقل لديَّ هذا.

قلت:

- أريد أن أعرف اسمك.

لم ينبس بكلمة.

تصوّرت وجه سايمون وهو ينظر في عينيَّ ويضغط الزناد. واندفعت موجة من المشاعر في نفسي وأردتُ أن أبكي، أردتُ أن أنهار وأبكي. لم أكن مؤهّلة لهذا. تدفّق الذعر داخلي. كنت على حافة الاستسلام والعودة إلى الحشد الصغير من المتفرجين لأخبرهم أنني لم أستطع أن أفعلها، أنني لا أريد أن أكون مسؤولة عن ضحية أخرى، عندما تكلم.

- آدم.

- طيب.

قلتها، وقد ارتحتُ لكونه بدأ التواصل معي. تذكرت سطراً في أحد الكتب يقول إن الشخص الذي يحاول الانتحار يحتاج إلى مَن يذكّره أن ثمة آخرين يفكرون فيه، ويحبونه، سواء كان يشعر بهذا أم لا، لكنني كنت خائفة أن يودي به ذلك إلى الاتجاه العكسي. ماذا إذا كان هنا بسببهم أو لأنه يشعر أنه عبء عليهم؟ تسارع عقلي وأنا أحاول تبيّن ما عليّ فعله؛ كانت ثمة قواعد كثيرة جداً، وكلّ ما كنت أريده هو تقديم المساعدة.

في النهاية قلت:

- أريد أن أساعدك يا آدم.

- لا فائدة من ذلك.

- أريد أن أسمع ما لديك.

قلتها وأنا أحاول الحفاظ على إيجابيتي. أنصت باهتمام، لا تقل لا تفعلها، لا تقل لا تستطيع. راجعت كل ما سبق لي قراءته. لم يكن مسموحاً لي بالخطأ، ولا في كلمة واحدة.

- لن تستطيعين إقناعي بالتراجع.

- أعطِني فرصة لأبيّن لك أنّ أمامك خيارات عديدة، رغم أنك ربما تشعر الآن أنه ما من خيار آخر أمامك. إن عقلك متعب جداً الآن - دعني أساعدك على النزول. عندها سيمكننا النظر في الخيارات. ربما يصعب عليك رؤيتها الآن، لكنها موجودة. مع ذلك، فالمهم الآن أن تنزل من على الجسر، دعني أساعدك.

لم يردّ. بدلاً من ذلك رفع رأسه تجاهي. كنت أعرف تلك النظرة، النظرة المألوفة. هذا التعبير سبق وأن ارتسم على وجه سايمون أيضاً.

- آسف.

تراخت أصابعه على القضبان الحديد، ومالَ جسده إلى الأمام، بعيداً عن الدرابزين.

- آدم!

اندفعتُ إلى الأمام، ودفعت ذراعيَّ عبر قضبان السور المتباعدة ولففتهما بإحكام حول صدره، وأنا أسحبه إلى الخلف بقوة حتى أنه ارتطم بالقضبان. كان جسدي مضغوطاً جداً على القضبان حتى أن ظهره كان مشدوداً إلى صدري. دفنتُ وجهي في قبعته الصوفية، وأغمضت عينيَّ بقوة وتماسكت جيداً. انتظرتُ أن يجذب نفسه بعيداً، وأنا أتساءل كيف سيمكنني أن أظلّ متمسكة به، مدركة أنّ ذلك لن يظل لوقت طويل إن استخدم قوته لمقاومتي. انتظرتُ أن

يأتي أحد المتفرجين عدواً ويتسلّم المهمة، وكان عندي أمل أن تكون الشرطة بالجوار وأن يتمكن المحترفون من المجيء. كنت أشعر بالعجز، ما الذي كنت أظنني أفعله؟ عصرت عينيّ بقوة، وأرحتُ رأسي على مؤخرة رأسه؛ كانت تنبعث منه رائحة عطر ما بعد الحلاقة، وكأنه قد أخذ حماماً لتوّه. كانت تنبعث منه رائحة الحياة، مثل شخص في طريقه إلى مكان ما، ليس كشخص ظلّ يخطّط للقفز من فوق جسر. كنت أحسه قوياً ونابضاً بالحياة أيضاً؛ كان عريض الصدر حتى أنني بالكاد استطعت لفّ ذراعيّ حوله. تمسّكت به، عازمة على ألّا أفلته أبداً.

- ماذا تفعلين؟

راح يلهث، وصدره يعلو ويهبط.

أخيراً رفعت رأسي ونظرتُ إلى الحشد من خلفي. لم يكن هناك أثر لأضواء سيارات الشرطة، ولا إشارة على أنّ أيّ شخص آتٍ للمساعدة. كانت ساقاي ترتعشان كما لو كنت أنا الذي أحدّق في أعماق ظلام نهر ليفي.

همستُ، وقد بدأت في البكاء:

- لا تفعلها. أرجوك.

حاول أن يستدير ليراني، لكنني كنت خلفه مباشرة ولم يكن باستطاعته رؤية وجهي.

- هل أنتِ... هل تبكين؟

تنشقتُ.

- نعم. أرجوك لا تفعلها.

- يا إلهي!

حاول ثانية أن يستدير وأن ينظر إليّ.

كنت حينها أبكي بقوة أكبر، وقد خرج نشيجي عن السيطرة، وراح كتفاي يقفزان إلى أعلى وأسفل، وذراعاي لا يزالان ملتفان حول صدره، متمسكان بالحياة الغالية.

- ماذا؟ ماذا؟

تحرك قليلاً، وراوح قدميه على حافة النتوء حتى يتمكن من إدارة رأسه ورؤية وجهي.

والتقَت أعيننا.

- هل أنتِ... هل أنت بخير؟

تلطف قليلاً، وهو يخرج من حالة السرحان التي كان فيها، أياً كانت.

- لا.

حاولتُ أن أكفّ عن البكاء. أردتُ أن أجفف أنفي، التي كانت ترشح مثل صنبور، لكنني خفت أن أفلته.

- هل أعرفك؟

سألني، مرتبكاً، وهو يتفحّص وجهي، ويتساءل ما الذي يجعلني أهتم به إلى هذه الدرجة.

تنشقت ثانية وقلت:

- لا

ضغطتُ عليه بقوة أكبر، محتضنة إياه كما لم أحتضن أحداً منذ سنوات، منذ كنت طفلة، منذ كانت أمي تضمني إليها.

كان ينظر إليّ وكأنني مجنونة، وكأنه هو العاقل وأنا مَن فقد عقله. كنا فعلياً أنفاً بأنف وهو يتفحّص وجهي، وكأنه يبحث عن أشياء أكثر بكثير من تلك التي تبدى له.

انكسر السحر الجامع بيننا عندما صرخ أحد البلهاء الذين يتفرجون من على رصيف الميناء قائلاً:

- اقفز!

وبدأ الرجل الذي يرتدي الأسود يحاول التملّص من قبضتي وقد تجدّد غضبه.

قال، وهو يجاهد لكي ينفضني عنه:

- ابعدي يديكِ عني.

هززتُ رأسي:

- لا. أرجوك اسمع...

حاولتُ أن أتمالك نفسي قبل أن أواصل:

- لن يكون الأمر هناك مثلما تظنّ.

قلتها، وأنا أنظر إلى أسفل وأتخيل شعوره، وهو يحدق في الظلام، ويريد لكل شيء أن ينتهي؛ كيف ساءت أحواله بدرجة جعلته يريد ذلك. راح يتفحصني باهتمام ثانية.

- أنت لا تريد إنهاء حياتك، أنت تريد إنهاء الألم، الألم الذي تشعر به الآن، الألم الذي أنا متأكدة أنك تصحو عليه وتنام عليه. ربما لا أحد حولك يفهم ذلك، لكنني أفهمه. صدقني.

رأيت عينيه تترقرقان، كنت أشقّ طريقي إلى داخله.

- لكنك لا تريد إنهاء حياتك طوال الوقت، صحيح؟ فقط في بعض الأحيان تمر الفكرة بعقلك، والأرجح أن تلك الفترات تزايدت مؤخراً أكثر من ذي قبل. إنها أشبه بعادة من عاداتك: محاولة التفكير في طرق مختلفة لإنهاء كل شيء، لكن الفكرة تمرّ، أليس كذلك؟

نظر إليّ بعناية، وهو يستوعب كلّ كلمة، وكنت أنا أهمس، والدموع تسيل على خديّ:

- إنها لحظة، هذا كل شيء. واللحظات تمر. إذا تماسكت هناك، ستمر هذه اللحظة ولن ترغب في إنهاء حياتك. الأرجح أنك تفكر ان أحداً لا يهتم، أو أنهم سيتجاوزون الأمر. ربما تفكر أنهم يريدون منك أن تفعلها. ولكن هذا غير صحيح. لا أحد يريد ذلك لأيّ شخص. ربما تشعر أنك لا تمتلك بدائل، لكن البدائل موجودة - تستطيع تجاوز المحنة. انزل ودعنا نتكلم عن الأمر. أياً كانت المشكلة، تستطيع تجاوزها. إنها لحظة، هذا كل شيء.

ألقيتُ عليه نظرة جانبية. ابتلع ريقه بقوة، كان ينظر إلى أسفل. كان يفكر في الأمر، يوازن بين خياراته. يعيش أم يموت. خلسة، مسحتُ مداخل الجسر بعينيّ من جهة «ممشى باتشلور» و«رصيف ولينغتون»، لم تأتِ الشرطة بعد، ولم يتقدّم أحد لمدّ يد العون. أسعدني ما حققته حتى تلك المرحلة؛ كنت قد استطعتُ أن أشدّه إلى حوار، ولم أكن أريد أن يأتي أيّ شخص آخر ويشتّه، أو يفزعه، أو يعيده إلى تلك النقطة مجدداً. فكرت فيما يجب قوله بعد ذلك، شيء يجعل الوقت يمرّ حتى يصل المحترفون للمساعدة، شيء إيجابي لا يشعل غضبه، لكن في النهاية لم أضطر إلى قول أيّ شيء، لأنه تحدّث أولاً

قال، وصوته يتهدّج من الانفعال:

- قرأت عن رجل قفز في النهر العام الماضي. كان سكران وقرّر أن يسبح، لكنه انحشر تحت عربة تسوّق وسحبته التيارات بعيداً. لم يستطع الخروج.

- وهل أعجبتك القصة؟

- لا، لكن كل شيء سينتهي بعدها. بعد كل ذلك، سينتهي الأمر.

- أو ستكون تلك بداية لنوع جديد من الألم. فور أن تغطس في هذه المياه، وبصرف النظر عن مدى رغبتك في ذلك، ستُصاب بالذعر. ستصارع لتستنشق الأوكسجين وستمتلئ رئتاك بالمياه لأن، رغم أنك تعتقد أنك لا تريد الحياة، غرائزك ستظلّ حية. مسألة البقاء على قيد الحياة موجودة بداخلك. بمجرد صعود المياه إلى حنجرتك، ستدفعك غريزة طبيعية أخرى إلى ابتلاعها. ستملأ المياه رئتيك، وهو ما سيزيد وزنك، وإذا غيرت رأيك وقررت أنك تريد البقاء على قيد الحياة وحاولت الصعود إلى السطح، لن تستطيع. ولا تنسى أن هناك الكثير من الناس حولك الآن، وهم مستعدون للغطس وإنقاذك - وهل تعرف شيئاً؟ أنت تظنّ أنّ الأوان سيكون قد فات، لكن ذلك ليس صحيحاً. حتى بعد أن تفقد وعيك، سيظلّ قلبك ينبض. بإمكانهم إسعافك بالتنفس الصناعي عن طريق الفم، وضخّ الماء ليخرج من جسدك، وملء رئتيك بالهواء ثانية. بإمكانهم إنقاذك.

كان جسده يرتعش، وليس من البرودة فقط. أحسستُ به يرتخي تحت ضغط ذراعيّ. وارتعد صوته وهو يتحدث:

- أريد أن أنهي الأمر. أنا أتألم.

- ما الذي يؤلمك؟

ضحك بِوَهَن:

- تحديداً؟ الحياة. الاستيقاظ هو أسوأ جزء في اليوم. هكذا ظلّ الحال لوقت طويل.

- لماذا لا نتحدث عن ذلك في مكان آخر؟

قلتها بقلق، فيما راح جسده يتصلب ثانية. ربما لم تكن فكرة جيدة أن نتحدث عن مشاكله وهو متدلٍّ من على جانب الجسر.

- أريد أن أسمع كلّ ما لديك، فلتنزل الآن إذاً.

أغمض عينيه وبدا أنه يتحدث إلى نفسه:

- الأمر يفوق الاحتمال.

ثم واصل بصوتٍ خافتٍ، وهو يُرجع رأسه إلى الخلف حتى تستريح على خدّي:

- لا أستطيع تغيير الأمور الآن. لقد فات الأوان.

كنا قريبين بشكل مريب بالنسبة إلى اثنين من الغرباء.

قلت، بصوت لا يعلو عن الهمس إلّا قليلاً، إذ لم يكن ثمة سبب لرفع الصوت، فقد كانت أذنه هناك مباشرة، عند حدود شفتي:

- لا شيء اسمه فات الأوان. صدِّقني، من الممكن أن تتغير حياتك. تستطيع تغييرها. وأنا أستطيع مساعدتك.

نظر في عينيّ ولم أستطع أن أشيح بوجهي. وكأنما ثبّتني مكاني. كان يبدو عليه الضياع الشديد.

- وماذا يحدث إذا لم ينجح الأمر؟ إذا لم يتغير كل شيء مثلما تقولين؟

- سيتغير.

- وإذا لم يحدث؟

- أقول لك إنه سيحدث.

أنزليه من على الجسر يا كريستين!

تفحّصني، وقد ضغط على أسنانه وراح يدوّر الأمور في رأسه. ثم بدأ يهدّد:

- وإذا لم يحدث؟ أقسم أنني سأفعلها ثانية. ليس هنا، لكنني سأجد طريقة، لأنني لن أرجع إلى هذه الحياة.

لم أرغب في التفكير في الجانب السلبي، في الأسباب التي أودت به إلى هنا. قلت بثقة:

- طيب. إن لم تتغير حياتك، فالقرار لك أن تفعل ما تريد. لكنني أقول لك إنها يمكن أن تتغير. سأريك كيف. أنت وأنا، سنفعل ذلك معاً، وسنرى كيف يمكن للحياة أن تكون رائعة. أعدك.

همس قائلاً:

- اتفقنا.

وفجأة اجتاح الذعر جسدي. اتفقنا؟ لم أكن أنوي عقد اتفاق معه، لكنني لن أناقش الأمر. كنت متعبة. كنت أريده أن ينزل عن الجسر فحسب. كنت أريد أن أذهب إلى فراشي، أن أتدثّر تحت أغطيتي، وأن يصبح كلّ ذلك خلف ظهري.

قال:

- عليك أن تفلتيني حتى أستطيع تسلّق السور.

قلت بصرامة:

- لن أفلتك. هذا لن يحدث.

أطلق نصف ضحكة، خافتة نعم، لكنها مسموعة.

- اسمعي. أنا الآن أحاول العودة إلى الجسر وأنت تمنعينني.

حسبتُ ارتفاع القضبان التي كان عليه تسلّقها، ثم فكرت في السقوط بالأسفل. سيكون هذا الأمر خطراً. قلت:

- دعني أنادي على مَن يساعدنا.

ببطء، أزحت إحدى يديّ عن صدره، وأنا لست واثقة تماماً أنه سيحافظ على كلمته.

قال:

- أنا وصلت إلى هنا بنفسي، وأستطيع أن أرجع إلى الجسر بنفسي.

- لا تعجبني هذه الفكرة، دعني أطلب المساعدة.

لكنه تجاهلني ورحتُ أراقبه وهو يحاول الاستدارة، قدماه الكبيرتان على النتوء الضيق. حرّك يده اليمنى إلى قضيب بعيد قليلاً وراوَح قدميه حتى يستطيع الاستدارة ومواجهة الجسر. دقّ قلبي وأنا أراقبه، وشعرت بالعجز. أردتُ أن أصيح في المتفرجين طلباً للمساعدة، لكن الصياح عند تلك النقطة سيفزعه ويلقي به في الماء. فجأة، اشتدّت الريح، وبدا الهواء أكثر برودة وازداد إدراكي للخطر الذي كان يواجهه بعد استراحتنا القصيرة. مال بجسده إلى اليمين، ودار بوسطه استعداداً لأن يؤرجح قدمه اليسرى فوق الماء لكي يستدير ويواجه القضبان، لكن بينما كان يرمي ثقله على قدمه اليمنى، انزلقت عن النتوء الضيق. بطريقة ما استطاعت يده اليسرى أن تقبض على القضيب الذي كان يحاول الوصول إليه في الوقت المناسب، ممّا تركه معلقاً بذراع واحد. سمعتُ الشهيق الجمعي من المتفرجين وأنا أمدّ يدي لأمسك بيده اليمنى وهي تضرب الهواء وأتشبث بها بإحكام، مستخدمة كلّ قوتي لكي أجذبه. في تلك اللحظة كان الخوف في عينيه هو ما أرعبني أكثر من أي شيء، لكن عندما أستعيد اللحظة أدرك أنّ نظرته هي التي منحتني القوة، لأنّ الرجل الذي كان يريد إنهاء حياته قبل لحظات كان الآن يكافح من أجل الحفاظ عليها.

ساعدتُ في جذبه إلى أعلى، وتعلّق هو بالقضيب، بعينين مغمضتين، وهو يشهق بقوة. كنت لا أزال أحاول السيطرة على

نفسي عندما جاء المحقّق ماغواير مسرعاً باتجاهنا وعلى وجهه نظرة رهيبة.

قلت بضعف:

- يريد العودة إلى الجسر.

- أستطيع أن أرى ذلك.

دفعني جانباً وكان عليّ أن أنظر بعيداً فيما كان يناور لرفع آدم إلى برّ الأمان. وفور أن هبط على الجسر، ارتمينا نحن الاثنان على الأرض، وقد استنفدنا طاقاتنا بأكملها.

جلس آدم وظهره مضغوط إلى السور، وجلستُ أنا في مواجهته على الجانب الآخر، محاولة أن أوقف رأسي عن الدوران. دسستُ رأسي بين ساقي ورحت أتنفس بقوة.

سألني بنبرة قلقة:

- هل أنت بخير؟

أغمضت عيني:

- نعم.

ثم أضفت:

- شكراً لك.

- لماذا؟

- لأنك لم تقفز.

تجهّم، وقد لاحَ الإرهاق على وجهه وجسده.

- لا شكر على واجب. الظاهر أنّ الأمر كان يهمك أكثر ممّا يهمني.

منحته ابتسامة مرتعشة.

- طيب، أنا ممتنّة لك.

رفعَ حاجبيه.

- آسف، لم أسمع اسمك.

- كريستين.

- آدم.

مالَ ومدّ يده إلى الأمام. ابتعدت عن السور لأمدّ ذراعي وعندما تناولت يده في يدي ضغط عليها بقوة ونظر في عينيَّ.

- في انتظار أن تقنعيني بأنها فكرة جيدة يا كريستين. أعتقد أنّ عيد ميلادي سيكون موعداً نهائياً مناسباً.

موعد نهائي؟ تجمّدت، ويدي لا تزال ملفوفة بيده. كان قد قالها بنبرة ناعمة، لكنها بدَت لي كتحذير. فجأة، شعرتُ بدوخة، ناهيك عن الشعور بالحماقة، عندما فكرت في الاتفاق الذي قبلته. ما هذا الذي فعلته؟

ورغم رغبتي في التراجع عن الأمر برمّته، أومأت برأسي بعصبية. صافحني مرة، بهزّة واحدة قوية، وسط الجسر، ثم أفلت يدي.

5

كيف تنتقل بعلاقتك إلى المرحلة التالية

- ما الذي كنت تفعلينه هناك بحق الجحيم؟

زمجّر المحقق ماغواير وهو يدفع وجهه قريباً من وجهي.

- كنت أحاول المساعدة.

- من أين تعرفينه؟ أقصد: هو أيضاً؟

- لا أعرفه.

- إذاً، ماذا حدث هنا؟

- كنت أمشي قريباً من هنا ورأيته في ورطة. وخشينا ألّا تصلوا في الوقت المناسب، لذا فكرتُ في أن أتكلم معه.

- لأنّ الكلام أثبت نجاحه أول مرة؟

قالها كأنما ينفّس عن غضبه، ثم بدا وأنه ندم على ذلك.

- حقاً يا كريستين، هل تنتظرين مني تصديق هذه القصة؟ أنك كنت «تمشين قريباً من هنا»؟ مرتين في شهر واحد؟ هل تنتظرين مني أن أصدّق أنها صدفة؟ إذا كنت تلعبين دور البطل الخارق___

- لا ألعب أية أدوار. لقد كنت في المكان الخطأ في التوقيت الخطأ، وفكرتُ أنني قادرة على المساعدة.

شعرتُ بالغضب من معاملتي بهذه الطريقة، وأضفت:

- ونجحت، أليس كذلك؟ أعدته إلى الجسر.
قال بحنق:
- بالكاد.
بدأ يروح ويجيء أمامي.
من بعيد كنت أرى آدم يراقبني بقلق، فمنحته ابتسامة واهنة.
- لا أظنّ الأمر مضحكاً.
- لستُ أضحك.
تفحّصني، محاولاً أن يقرّر ماذا يفعل معي.
- يمكنك أن تحكي لي الأمر من البداية إلى النهاية في المركز.
- لكنني لم أرتكب أي خطأ!
- أنا لا أقبض عليك يا كريستين. أنا أريد تحرير بلاغ.
تحرك ناحية سيارته، منتظراً مني أن أتبعه.
احتجّ آدم، وقد بدا عليه وعلى صوته التعب:
- لا يمكنك أن تأخذها هي أيضاً.
غيّر ماغواير لهجته من أجل آدم، وتحدّث بنبرة ناعمة لم أتصوّر أنه يمتلكها:
- لا تقلق عليها.
اعترض آدم بينما كان ماغواير يساعده على ركوب السيارة:
- حقيقة، أنا بخير. كانت لحظة جنون. أنا بخير الآن. أريد فقط أن أرجع إلى بيتي.
غمغم ماغواير بكلمات داعمة، لكنه صحبه إلى السيارة على أية حال، وعلى خلاف رغبته. وبينما كان آدم يُقاد في إحدى السيارات، كنت أقاد في أخرى إلى مركز الشرطة في شارع بيرسي، حيث طلب مني سرد القصة مرة أخرى. كان واضحاً أنّ ماغواير لم يكن مقتنعاً

تماماً بأنني أقول الصدق. الحقيقة هي أنني كنت أخفي شيئاً وكان هو يعرف ذلك. لم أستطع أن أدفع نفسي لإخباره بما كنت أفعله حقاً على الجسر أو في موقع البناء. ولم أستطع أن أكشف ذلك للسيدة اللطيفة التي دخلت الغرفة وراءه، في انتظار أن تدردش معي حول تجربتي.

بعد ساعة أخبرني الضابط ماغواير أنني أستطيع المغادرة.

- وماذا عن آدم؟

- آدم ليس شغلك الآن.

- ولكن أين هو؟

- مع اختصاصي نفسي لتقييم حالته.

- متى أستطيع رؤيته إذاً؟

- كريستين. . .

قالها بنبرة محذِّرة، محاولاً أن يتخلّص مني.

- ماذا؟

- ماذا قلتُ لكِ عن التورّط في أمور لا تعنيك؟ ستجدين سيارة تاكسي بالخارج. عودي إلى بيتك. احصلي على بعض النوم. وابعدي نفسك عن المشكلات.

وهكذا غادرتُ مركز الشرطة. كنّا في منتصف ليلة الأحد وراح البرد يخترق عظامي؛ وكانت الشوارع خالية من السيارات، باستثناء التاكسي الغريب. كانت «كلية الثالوث» التي لا يغيب شيء عن ناظريها تنتصب مظلمة وخاوية أمام عيني. لا أعرف كم قضيتُ واقفة هناك، أحاول استجماع كل شيء، وأخيراً خمدت الصدمة عند ما انفتح الباب خلفي وأحسستُ بوجود ماغواير قبل أن أسمعه.

- أما زلتِ هنا؟

لم أعرف بماذا أردّ على هذا، فاكتفيتُ بالنظر إليه.

- إنه يسأل عنك.

دقّ قلبي.

- سيقضي الليلة في الخارج. هل أعطيه رقمك؟

أومأت برأسي.

- اركبي التاكسي يا كريستين!

قالها ماغواير، ورماني بنظرة شديدة التوعّد حتى أنني وجدتُ نفسي أشير إلى أقرب تاكسي.

عدت إلى المنزل.

لم أنَم، ولم يدهشني ذلك. جلست منتصبة، وظلت آلة صنع القهوة ترافقني وأنا أراقب الهاتف وأتساءل إن كان الضابط ماغواير قد أعطى آدم الرقم الصحيح. عندما حانت الساعة السابعة صباحاً وبدأتُ أسمع حركة السيارات في الطريق، بدأ رأسي يترنّح من النعاس. بعدها بخمس عشرة دقيقة أيقظني المنبّه لكي أذهب إلى العمل. لم يتصل آدم طيلة اليوم، ثم في السادسة مساء، وأنا أطفئ جهاز الكمبيوتر، رنّ جرس هاتفي.

رتّبنا للقاء عند جسر هابيني، وقد بدا لنا مكاناً مناسباً وقتها إذ كان الرابط الوجيه الذي يجمع بيننا، لكن بمجرد وصولنا إلى هناك، بعد أربع وعشرين ساعة من الحادثة، بدا لنا غير مناسب. لم يكن على الجسر وإنما واقفاً بجواره في «ممشى باتشلور» ينظر إلى الماء. كنت مستعدّة للتضحية بأي شيء لكي أعرف فيمَ يفكر.

- آدم.

استدار لدى سماعه صوتي. كان يرتدي معطف الصوف الأسود

الخشن نفسه وقبعة الصوف نفسها من الليلة الماضية، وقد دسّ يديه في عمق جيبيه.

سألته:

- هل أنت بخير؟

بدا ذاهلاً.

- نعم، طبعاً. أنا بخير.

- إلى أين أخذوك ليلة أمس؟

- بضعة أسئلة في المركز، ثم إلى «مصحة القديس يوحنا» من أجل التقييم النفسي. نجحتُ في الاختبار بكل سهولة.

قالها ممازحاً ثم تابع وهو يراوح قدميه:

- على أية حال. لقد اتصلتُ بك لكي أشكرك شخصياً. إذاً، شكراً لك.

- طيب. لا شكر على واجب.

هكذا أجبته، مرتبكة، وأنا لا أعرف هل الأفضل أن أصافحه أم أعانقه. كلّ الإشارات كانت تدعوني لأن أتركه لحاله.

أومأ برأسه ثم استدار ليعبُر الطريق إلى شارع «الوار ليفي». لم يكن ينظر لموضع قدميه وانطلق بوق أحد السيارات بغضب بعد أن كادت تدهسه. لم ينتبه للصوت إلّا قليلاً، وواصل طريقه.

- آدم!

استدار نحوي، وقال:

- كانت حادثة. صدقيني.

عرفتُ ساعتها أنه سيكون عليّ أن أتبعه. ربما كانت المستشفى قد صدّقته، لكن لم يكن يمكنني بأيّ حال أن أتركه وحيداً بعد ما مرّ به. ضغطتُ على زر المشاة لكي تتغير الإشارات الضوئية لكنها

كانت أبطأ من اللازم. خفتُ أن أفقده، فانتظرتُ حتى تتوافر مساحة بين السيارات وعدوتُ لأعبر الطريق. انطلق بوق سيارة أخرى. عدوتُ لأقترب منه ثم بطّأت من خطاي، بعد أن قلت لنفسي إنني أستطيع التأكد من سلامته عن بُعد. انحرف إلى اليمين في منتصف شارع «آبي» وعندما انعطف عند الناصية واختفى عن بصري، انطلقتُ لألحق به. عندما درتُ حول الناصية، كان قد اختفى، وكأنما تبخّر في الهواء. في تلك الساعة لم تكن المتاجر قد فتحت ليختفي داخل إحداها. بحثتُ في الشارع المظلم المهجور أمامي ولعنت نفسي لأنني فقدته، متمنية لو كنت على الأقل قد أخذت رقم هاتفه.

- بو!

قالها فجأة، بلا مبالاة وهو يخرج من الظلام.

قفزتُ.

- يا إلهي! آدم! هل تريدني أن أصاب بنوبة قلبية؟

ابتسم لي، وقد سُرَّ لردة فعلي.

- كفي عن لعب دور الشرطية معي.

شعرت بوجهي يتورّد في الظلام.

- أردتُ أن أتأكد أنك بخير. لم أكن أريد مطاردتك.

- قلت لكِ إنني بخير.

- لكنني لا أظن ذلك.

أشاح بوجهه، وهو يرمش كثيراً حيث كانت عيناه تترقرقان ثانية. كنت أراهما تتلألآن تحت ضوء المصباح.

- أريد أن أتأكد أنك ستكون بخير. لا أستطيع أن أتركك وحسب. هل ستطلب المساعدة؟

- وكيف لكلّ هذا الكلام الرائع الذي يريد الناس قوله لي أن يُصلح أي شيء؟ هذا لن يغيّر ما يحدث.

- وما الذي يحدث؟

تراجع إلى الوراء.

- طيب. لستَ مضطراً إلى إخباري، لكن على الأقل هل تشعر بالراحة؟ كونك لم تقفز؟

- طبعاً. كان ذلك خطأً كبيراً. أنا نادم على ذهابي إلى الجسر.

ابتسمتُ.

- هل ترى؟ هذا أمر طيب - لقد قطعت عدّة خطوات بالفعل.

- كان الأفضل أن أصعد إلى هناك.

قالها وهو يرفع نظره إلى «قاعة الحرية»، تلك البناية المكوّنة من ستة عشر طابقاً، أعلى البنايات في وسط مدينة دبلن.

تذكرت اتفاقنا، فقلت:

- متى يحلّ عيد ميلادك؟

أطلق ضحكة حقيقية.

- إلى أين نذهب؟

سألته، وأنا أعدو لألحق به وهو يغذّ الخطى في شارع «أوكونيل». كنت أشعر بخدر في قدميّ ويديّ، لذا كنت آمل ألا نذهب بعيداً. بدا وكأنه يمشي بلا هدف، بلا وجهة في ذهنه، وهو ما جعلني أتساءل إنْ كان الموت بعضّة البرد هو وسيلته التالية للانتحار.

- أنا مقيم في فندق غريشام.

أومأ برأسه إلى أعلى «نصب النور» وهو يتابع:

- أو كان بإمكاني أن أقفز قفزة حرة في الهواء وأهبط على هذا. كان سيشقّ معدتي مثل الرمح. أو يشقّ قلبي، وهو الأفضل.

- طيب، لقد بدأت أستوعب مزاحك. وهو مزاح مريض.

- لحسن الحظّ أنّ المصحة لم تره كذلك.

- كيف خرجت من هناك؟

قال، ووجهه لا يزال خالياً من التعبيرات:

- سحرتهم بدهشتي وبهجتي الصبيانية.

- كذبت عليهم؟

هزّ آدم كتفيه.

- وأين تعيش؟

تردّد قليلاً.

- تلك الأيام؟ في «تيبيراري».

- وهل أتيت إلى دبلن خصيصاً لكي...؟

- لكي أقفز من فوق جسر هابيني؟

نظر إليّ وقد لاح عليه السرور ثانية.

- أنتم يا سكان دبلن مغروررون جداً. هناك الكثير من الجسور الممتازة في بقية أنحاء البلاد، تعرفين. لا، جئت إلى هنا لرؤية شخص.

وصلنا إلى فندق غريشام فاستدار آدم إليّ.

- طيب، شكراً لكِ مرة ثانية، على إنقاذك حياتي. هل يجب عليّ، لا أعرف، أن أعطيك قبلة مرتبكة أم عناقاً أم... أعرف ـــ

رفع يده في الهواء فقلبت عينيّ قبل أن أضرب كفّه بكفي.

ثم لم أعرف حقاً ما الذي يمكن أن يُقال بعد ذلك. حظاً سعيداً؟ استمتع بحياتك؟

هو أيضاً لم تكن لديه فكرة، وهكذا استمرّت التعليقات الساخرة في التدفّق.

قال:

- يجب أن أعطيك نجمة ذهبية، أو شارة.

- أنا حقاً لا أفضّل أن أتركك الآن.

- عيد ميلادي بعد أسبوعين. لا يمكن أن تتغير أشياء كثيرة في أسبوعين، لكنني أقدّر كذبك من أجلي.

- بل نستطيع.

قلتها، بثقة أكبر ممّا أحسست بها. أسبوعان؟ كنت آمل أن يكون أمامنا عام بأكمله، لكن إذا كان هذا هو الحال، فليكن.

قلت له بتفاؤل:

- سوف آخذ إجازتي السنوية، وهكذا أستطيع رؤيتك كلّ يوم. الأمر ممكن بكلّ تأكيد.

منحني تلك الابتسامة المتسلية.

- أنا بجدّ أفضّل أن أبقى وحدي.

- حتى تستطيع أن تقتل نفسك؟

- هل يمكن أن تخفضي صوتك؟

همس بذلك فيما كان زوجان يمران بجوارنا ويرميانِنا بنظرة متشكّكة.

- مرة ثانية، أشكرك.

قالها بحماسة أقلّ. ثم اختفى في الباب الدوار، وتركني على الرصيف. راقبته وهو يقطع بهو الفندق، ثم تبعته. سيكون عليه أن يعاني كثيراً لكي يتخلّص مني. دخل المصعد، وانتظرت أنا حتى آخر

لحظة متاحة قبل أن ينغلق الباب، ثم اندفعت إلى الأمام ولحقت به. نظر إليَّ بوجه خالٍ من التعبيرات. ثم ضغط على الزر.

خرجنا في الطابق العلوي وتبعته إلى أحد أجنحة الأدوار العليا، يحمل اسم الممثلة الأميركية «غريس كيلي». وبينما ندخل غرفة الجلوس شممتُ رائحة زهور. كان الباب المؤدي إلى غرفة النوم مفتوحاً واستطعت أن أرى سريراً منثورٌ عليه بتلات ورد، وزجاجة شمبانيا داخل دلو فضي على حافة السرير، مع كأسين متقاطعين. ألقى آدم نظرة على السرير، ثم أشاح بوجهه ثانية وكأن رؤيته تُشعره بالمهانة. اتجه إلى المكتب مباشرة وتناول ورقة.

تبعته.

- هل هذه هي رسالة انتحارك؟

جفل.

- هل يجب أن تستخدمي تلك الكلمة؟

- وماذا تريدني أن أقول؟

- مع السلامة يا آدم، سررتُ بلقياك.

نزع معطفه وألقى به على الأرض، ثم رفع قبعته ورماها في الهواء. كادت أن تسقط في النار التي كانت تخبو في المدفأة الرخامية. ارتمى على الكنبة، منهكاً.

باغتني المنظر؛ لم أكن أتوقّع رؤية رأس له شعر أشقر غزير تحت القبعة الصوف.

- ماذا؟

سألني، فأدركتُ أنني كنت أحدّق في جماله.

اتجهت للجلوس على الكنبة المواجهة له، وأنا أخلع معطفي وقفازي وأتمنى أن تبث النار الدفء في أوصالي سريعاً.

- هل لي أن أقرأها؟

- لا

قرّبها من صدره وطواها.

- لماذا لا تمزّقها؟

وضعها في جيبه.

- لأنها تذكار. من رحلتي إلى دبلن.

- أنت لست مضحكاً.

- وهذا أمر آخر يُضاف إلى الأشياء التي لا أجيدها.

جُلتُ ببصري في المكان وحاولت أن أفهم ما حدث.

- هل كنت تنتظر شخصاً هنا الليلة؟

- طبعاً. أنا دائماً ما أجهّز الشامبانيا والورود للسيدات الجميلات اللاتي يقنعنني بعدم القفز من فوق الجسور.

كان ذلك كذباً، وعرفت أنه كذب، لكنني احتفلتُ بداخلي لأنه وصفني بالجميلة.

قلت وأنا أراقبه:

- لا، لا بد وأن ذلك كان الليلة السابقة.

برغم مزاحه وثقته بنفسه، كان يتململ. فكرتُ أنّ المزاح كان طريقته الوحيدة ليمنع نفسه من أن ينهار ويصير حطاماً في ذلك المكان وتلك اللحظة.

نهض واتجه إلى طاولة التلفزيون، ثم فتح الخزانة أسفلها ليَظهر بار صغير.

- لا أظن أن الشراب فكرة جيدة.

- ربما أشرب مشروباً غازياً.

حدجني بنظرة جريحة فشعرتُ بالذنب. ثم تناول زجاجة «جاك دانيالز» عاد بها إلى الكنبة وهو يرميني بنظرَة لعوب.

لم أعلّق لكنني لاحظتُ أن يديه ترتعشان وهو يصبّ المشروب في الكوب. ظللت جالسة أراقبه لفترة ثم عجزت عن الاحتمال، فجئت بواحدة لنفسي، ولكنني خففتها بمشروب غازي. كنت قد عقدت اتفاقاً مع رجل حاول أن يقتل نفسه، ثم تبعته إلى غرفته في الفندق، فلماذا لا أثمل معه أيضاً؟ لو كان ثمة شيء مثل كتاب قواعد للاستقامة الأخلاقية والمواطنة المسؤولة، فإنني قد سحقت هذه القواعد سحقاً، فلِمَ لا أنهي الأمر وألقي بهذا الكتاب من النافذة؟ إضافة إلى ذلك، فقد كنت مجمّدة حتى العظام وأحتاج إلى شيء يساعد في إذابة الثلج عن أوصالي. أخذت رشفة؛ فسَرَت حرقة من حلقي حتى معدتي، وكان شعوراً طيباً.

- فتاتي.

قالها فجأة قاطعاً أفكاري.

- ماذا عنها؟

- هي الشخص الذي كنت أنتظره. جئت إلى دبلن لكي أفاجئها. قالت إنني لم أكن أهتم بها كثيراً. لا أقضي الوقت معها، أو أياً كان.

فرّك وجهه بقوة.

- قالت إننا في مشكلة. «في خطر»، على حدّ تعبيرها.

قلت، وأنا سعيدة أن أعرف شيئاً عنه أخيراً:

- إذاً فقد جئت إلى دبلن لإنقاذ علاقتك. ماذا حدث؟

قال وهو يصرّ على أسنانه ثانية:

- كانت مع رجل آخر. في مطعم «ميلانو». قالت إنها ستذهب إلى هناك مع البنات. نحن نعيش في شقة هناك تطلّ على رصيف الميناء، لكنني كنت في «تيبيراري» منذ فترة. . على أية حال، لم تكن مع البنات.

قالها بمرارة، وهو يحدق في محتويات كوبه.

- كيف عرفت أنهما ليس مجرّد صديقين.

- كانا صديقين، صحيح. لقد عرّفتهما ببعض. شون أعزّ أصدقائي. كانت يداهما متشابكتان على الطاولة، بل إنهما لم يتنبها لي وأنا أدخل المطعم. لم تكن تتوقع وصولي، كان المفترض أنني ما زلت في «تيبيراري». واجهتهما. ولم ينكرا.

هزّ كتفيه.

- وماذا فعلتَ؟

- وماذا كان يمكنني أن أفعل؟ تركت المكان وأنا مثل الأبله.

- ألم تواتك الرغبة في ضرب شون؟

أرجَعَ ظهره إلى الخلف في خيبة.

- لا. كنْت أعرف ما يجب أن أفعله.

- أن تحاول الانتحار؟

- هلّا توقفتِ عن استخدام هذه الكلمة؟

التزمت الصمت.

- ثم بافتراض أنني ضربته، ماذا كنت لأستفيد؟ أن يتفرّج الناس علينا؟ أن أبدو أكثر حماقة؟

- كان ذلك سيخفّف من توترك.

هزّ رأسه.

- إذاً، العنف أمر طيب الآن. لو كنت قد ضربته لسألتِني لماذا لم أخرج وأتمشى حتى أهدأ!

- توجيه لكمة للشخص الذي تسميه صديقك، وهو يستحق اللكم بالتأكيد، أفضل من الانتحار. لا وجه للمقارنة.

قال بصوت هادئ:

- هلا توقفتِ عن استخدام هذه الكلمة. يا إلهي!

- هذا ما حاولت أن تفعله يا آدم.

صرخ قائلاً:

- وسأفعلها ثانية إذا لم تلتزمي بالجزء الخاص بك من الاتفاق.

فاجأني غضبه. نهض وتوجّه إلى الباب الزجاجي الذي يقود إلى الشرفة المطلة على شارع «أوكونيل» وأسطح الـ«نورث سايد».

كنت متأكدة أن ثمة تفاصيل أكثر بكثير في قصة آدم، وأنه لم يرغب في إنهاء حياته لمجرد أنّ صديقته تخونه. ربما كان ذلك هو الحادث الذي أشعل فتيل عقل مضطرب أصلاً، لكن لم يبدُ لي الوقت مناسباً للتحقق من الأمر. كان قد بدأ يتوتر ثانية وكنا كلانا متعَبَين، وكنا بحاجة إلى النوم.

والواضح أنه كان متفقاً معي. إذ قال وظهره لي:

- يمكنكِ النوم في غرفة النوم، سآخذ الكنبة.

وعندما لم أجبه، استدار لمواجهتي.

- أظنك تريدين البقاء.

- ألن تمانع؟

فكّر في الأمر.

- أظنها قد تكون فكرة جيدة.

ثم استدار ثانية لينظر إلى المدينة من أعلى.

كان بإمكاني أن أقول الكثير كختام لليوم، أن أمنحه كلمات تشجيع إيجابية. كنت قد قرأتُ ما يكفي من كتب المساعدة الذاتية والعبارات الرامية لرفع الروح المعنوية، العشرة منها بفلس. لكن لم تبدُ لي أيٌ من تلك العبارات مناسبة حينها. إذا كنت سأساعده للخروج من هذه الأزمة، سيكون عليّ تدبُّر ما يجب قوله، ومتى يُقال.

قلت:

- تصبح على خير.

تركتُ باب الغرفة نصف مفتوح، إذ لم يعجبني بقاؤه في الغرفة المتصلة بالشرفة. راقبته من الفتحة وهو يخلع الصّديريّ، ويكشف عن «تي شيرت» ضيق تحته. لم أستطع أن أمنع نفسي من نظرة أطول قليلاً من اللازم، وحاولتُ إقناع نفسي أنني أفعل ذلك من أجل سلامته تحسباً لأن يشنق نفسه بصديريّته. جلس على الكنبة ورفع قدميه. كان أطول من الكنبة؛ وكان عليه أن يسند قدميه إلى ذراع الكنبة، ما جعلني أشعر بالذنب لأنني أخذتُ السرير. وكنت على وشك قول شيء عندما بادرني هو:

- هل تستمتعين بالعرض؟

سألني، وعيناه مغمضتان وذراعاه مطويتان تحت رأسه.

توهّجت وجنتاي، وقلبتُ عينيّ وابتعدت عن الباب. جلست على السرير ذي العمدان الأربعة، والكأسان يقرعان إلى جانبي، والثلج الذائب في الدلو يفيض ويسيل على السرير. وضعته على المكتب ومددتُ يدي إلى حبة فراولة مغطاة بالشوكولاتة عندما لاحظت بطاقة صغيرة بجانب شاشة الكمبيوتر. كان مكتوب فيها: إلى خطيبتي الجميلة. مع حبي. آدم. إذاً فقد جاء إلى دبلن ليطلب

يدها. تيقّنت أنني على أول الطريق فحسب، وعزمت على أن أضع يدي على رسالة الانتحار.

كنت قد ظننت أنّ الليلة التي رأيت فيها سايمون كونواي يطلق النار على نفسه، الليلة التي تركت فيها زوجي، وكل ليلة بعدها، كانت أطول الليالي.

لكنني كنت مخطئة.

6

كيف تهدّئ بالك وتحصل على بعض النوم

لم أستطِع النوم. لم يكن ذلك أمراً غير معتاد. كنت قد أصبحت مريضة بالأرق فعلياً على مدار الأشهر الأربعة الأخيرة، منذ أن خطر ببالي أنني أريد لزواجي أن ينتهي. لم تريحني تلك الفكرة. كنت قد بدأت البحث عن طرق للعثور على السعادة، والإنجاز، والمشاعر الإيجابية، طرق أستطيع أن أنقذ بها زواجي - لا طرقاً للخروج. ولكن فور أن خطرت الفكرة ببالي، **الهرب**، لم تغادرني، خاصة في الليل عندما لا تكون أمامي مشاكل أي شخص آخر لتلهيني عن مشاكلي. عادة كان الأمر ينتهي بي وأنا أتبع النصائح الواردة في الكتاب الموضوع على طاولة فراشي، **42 نصيحة لهزيمة الأرق**، وهكذا جرَّبت أن أغطس في حمام دافئ، أنظف ثلاجتي، أطلي أظافري، أمارس اليوغا - أحياناً أفعل شيئين أو ثلاثة في الوقت نفسه - في ساعات الصباح كلها، على أمل أن أحظى بغفوة. وفي أوقات أخرى كنت أكتفي بقراءة الكتاب حتى تلتهب عيناي وأضطر إلى إغلاقهما. لم يحدث لي أن انجرفت إلى النوم كما أكَّد الكتاب؛ لم يراودني ما يشبه ذلك الشعور المظلم والناعم كالريش بالانجراف. كنت إمّا مستيقظة محبطة ومنهكة، أو نائمة محبطة

ومنهكة، ولم أصل إلى ذلك الانزلاق البهيج من أحد العالمين إلى العالم الآخر.

ومع أنني كنت قد أدركت أنني أريد إنهاء زواجي، لم أفكر قطّ في إنهائه فعلياً. لوقت طويل ظللت أقضي الليالي وأنا قلقة كيف سأعيش مع تعاستي، حتى خطر لي في النهاية أنني لست مضطرة إلى ذلك؛ كانت النصائح التي أعطيها للأصدقاء يمكن أن تنطبق فعلياً عليّ. بعدها، قضيتُ ليالٍ لا تحصى وأنا أتخيل حياتي مع شخص آخر، شخص أحبه بحق، شخص يحبني بحق؛ سنكون زوجين من أولئك الأزواج الذين يبدو وكأن شرارة كهربية تسري بينهما مع كلّ نظرة ولمسة. ثم رحتُ أتخيل نفسي مع كلّ رجل انجذبت إليه، وهو ما يعني كل الرجال الذين عاملوني بلطف. بمن فيهم ليو أرنولد – وهو عميل كنت أستمتع بمواعيده فعلياً. كان ليو قد أصبح موضوعاً للكثير من تخيّلاتي، وهو ما جعل خديَّ يتوردان في كل مرة يدخل فيها مكتبي.

تحت كلّ ذلك، كما أدرك الآن، كان ثمة بطانة من الفزع؛ الفزع من كلّ تلك الأشياء التي عليّ التعامل معها، لكن الآن وقد اعترفتُ بالأمر فلا سبيل لإبعاده عن ذهني. كانت كل مشكلة صغيرة بيننا تُضخم حتى تصبح إشارة جديدة على أننا نتجه إلى المصير المحتوم. مثل المرات التي كان ينتهي فيها قبلي في الفراش، وأيضاً عندما كان ينام بجوربيه لأنّ قدميه باردتان دائماً؛ وعندما كان يترك قلامات أظافر قدميه في صحن في الحمام ولا يتذكّر قط أن يلقيها في سلة القمامة. كيف لم نعُد نتبادل القبلات إلا قليلاً؛ تلك القبلات التي كانت مشحونة من قبل وتراجعت حتى أصبحت مجرّد نقرات أليفة على الخد. كم أصبحت أملّ من قصصه، وأضيق ذرعاً

بسماعه وهو يُعيد سرد القصص القديمة نفسها عن الرغبي. لو كان عليَّ أن أصف حياتي بالألوان، وهو ما تعلّمته من كتاب، لقلتُ إن علاقتنا انتقلت من الألوان الزاهية - على الأقل هكذا كانت لفترة، عندما كنا نتواعد - إلى الرمادي الرتيب الباهت. لم أكن غبية لدرجة أن أظنّ أنّ الوهج يظلّ متقداً في الزواج إلى الأبد، لكنني كنت أعتقد أنه يجب على الأقل أن تظلّ ثمة ومضة بعد أقل من عام من الحياة الزوجية. حين أنظر إلى الخلف، أعتقد أنني قد وقعت في حب الوقوع في الحب. والآن انتهت علاقتي الغرامية بالحلم.

ليلة ظللتُ راقدة دون نوم في جناح فندق غريشام، بدأت كل مخاوفي في التراكم. الخوف من هجري لباري؛ الأعباء المالية التي تبعت ذلك؛ كيف يفكر فيَّ الناس؛ الخوف من ألّا أقابل شخصاً آخر ثانية أبداً وأن أظل وحيدة بقية حياتي؛ سايمون كونواي. . والآن آدم، الذي لم أعرف اسم عائلته، الذي كان قبل أربع وعشرين ساعة قد حاول الانتحار وكان يرقد في الغرفة الملاصقة لغرفتي على الكنبة أمام شرفة تطلّ على هاوية مهيبة، بجوار بار صغير ممتلئ، والذي كان ينتظر مني أن أنفِّذ وعدي بإصلاح حياته قبل عيد ميلاده الخامس والثلاثين بعد أسبوعين وإلا سيحاول الانتحار ثانية.

شعرتُ بالغثيان من الفكرة، فنهضت من السرير وألقيت عليه نظرة أخرى. كان التلفزيون مكتوم الصوت، والألوان ترتعش وتتغير وتتراقص في أرجاء الغرفة. رأيت صدره يعلو ويهبط. كان أمامي عدد من الخيارات، وفقاً لكتاب 42 نصيحة، لكي أهدئ عقلي وأحصل على بعض النوم، ولكن كلّ ما استطعت فعله بينما أنصت إلى أنفاس آدم هو أن أشرب شاي البابونج. نقرتُ زرّ الغلاية للمرة الرابعة.

ناداني:

- يا إلهي! ألا تنامين أبداً؟

- آسفة، هل أزعجك؟

- لا، إنه المحرك البخاري الموجود عندك.

فتحت الباب.

- هل تريد كوباً؟ آه. أرى أنك شربتَ ما يكفي.

كانت ثمة ثلاث من زجاجات «جاك دانيالز» الصغيرة فارغة على طاولة القهوة.

قال:

- لن أسمي ذلك ما يكفي. لا تستطيعين مراقبتي أربعاً وعشرين ساعة يومياً. آجلاً أم عاجلاً ستضطرين إلى النوم.

فتح عينيه أخيراً ورفع بصره إليّ. لم يبدُ عليه أيّ تعب، أو سُكر. بدا جميلاً فقط. كامل الأوصاف.

لم أشأ إخباره بسبب، أو أسباب، أرَقي.

قلت:

- أفضّل لو أنام هنا إلى جانبك.

- أمرٌ يبعث على الدفء. لكن سيكون ذلك تعجّلاً شديداً بعد انفصالي، لذا إذا كنتِ لا تمانعين، فسوف أفوّت هذا العرض.

جلست على الكنبة بأية حال.

قال:

- لن أقفز من الشرفة.

- لكنك فكرت في ذلك؟

- طبعاً. لقد فكرت في الطرق الكثيرة المتاحة للانتحار في هذه الغرفة. هذا ما أفعله. كان بوسعي أن أشعل النار في نفسي.

- لدينا مطفأة حريق. كنت سأقوم بإطفاء النار.

- كان بإمكاني استخدام الموسي في الحمام.

- أخفيته.

- أُغرِقُ نفسي في المغطس، أو آخذ حماماً مع مجفف الشعر.

- كنت سأراقبك في الحمام، ولا أحد يجد مجففات شعر في الفنادق.

- كنت سأستخدم الغلاية.

- إنها لا تستطيع تسخين الماء إلا بالكاد، ولا يمكنها أن تصعق فأراً. إنها جعجعة بلا طحن.

أطلق ضحكة مستخفة.

قلت:

- والسكين لا يكاد يستطيع قطع تفاحة، ناهيك عن الوريد.

نظر إلى السكين بجوار صحن الفاكهة.

- كنت أفكر أن أحتفظ بهذا الحلّ لنفسي.

- هل تفكر في الانتحار كثيراً؟

دسستُ ساقي تحتي وتكورت على نفسي في ركن الكنبة.

استسلم، وقال:

- يبدو أنني لا أستطيع منع نفسي من ذلك. لقد كنتِ محقة، ما قلته على الجسر: لقد أصبحت مثل هواية مريضة فعلاً.

- لم أقل هذا بالضبط. لكنك تعرف أنّ التفكير في الانتحار ليس مشكلة، طالما أنك لا تنفّذ ذلك.

- أشكركِ. على الأقل لن تحرميني من أفكاري.

- التفكير في الأمر يريحك، إنه العكاز الذي تستند إليه. لن

أحرمك من عكازك، لكن لا يجب أن تكون هذه هي طريقتك الوحيدة للتعايش. هل سبق وأن تكلمت مع أي شخص عن الأمر؟

- نعم بالطبع، إنه الموضوع المفضل في المواعدات السريعة. ما رأيك؟

- هل فكرت في العلاج؟

- لقد قضيت لتوي ليلة ويوماً في العلاج.

- أعتقد أنك تستطيع الاستمرار في الأمر لأكثر من ليلة ويوم.

- العلاج ليس لي.

- ربما يكون هو الحلّ في هذه اللحظة.

نظر إليّ.

- ظننت أنكِ أنتِ الحل. أليس هذا ما قلتِه؟ ابقَ معي وسأريك كيف يمكن للحياة أن تكون رائعة؟

من جديد، شعرتُ بالفزع كونه يضَع كل هذه الثقة فيّ.

- وسأفعل هذا. كنت أتساءل فقط...

ابتلعت ريقي.

- هل كانت صديقتك تعرف مشاعرك؟

- ماريا؟ لا أعرف. ظلّت تقول إنني قد تغيرت. أنني أصبحت مشتتاً. منسحباً. لم أعُد كما كنت. لكن لا، لم أخبره[1] قط بما كنت أفكر فيه.

- لقد كنتَ مكتئباً.

- إذا كنت تريدين تسميته كذلك. ليس لطيفاً أن تحاولي بأقصى ما عندك أن تكوني مرحة ثم يأتي شخص ويظلّ يقول لكِ إنك لم تعودي كما كنتِ، إنكِ مكتئبة، إنك مملة، إنك لست تلقائية.

يا إلهي! أقصد، ماذا كان عليّ أن أفعل أكثر من ذلك؟ كنت أحاول أن أبقي رأسي اللعين فوق الماء.

تنهّد، ثم قال:

- ظنّت أن الأمر متعلق بأبي. وبالوظيفة.

- ولم يكن الأمر كذلك؟

- آه، لا أعرف.

عرضتُ عليه:

- لكنهما لم يساعدانك على الأقل.

- لا لم يساعدا.

- إذاً احكِ لي عن الوظيفة التي تشغل بالك.

- وكأننا في جلسة علاج، أنا راقد هنا، وأنت جالسة هناك.

رفع رأسه إلى السقف.

- منحني عملي إجازة لكي أذهب وأساعد في تشغيل شركة والدي في أثناء مرضه. أنا أكره ذلك الشغل، لكن لم يكن هناك بأس طالما كان الأمر مؤقتاً. ثم اشتدّ المرض على والدي، فاضطررتُ إلى البقاء مدّة أطول. كان صعباً أن أقنعهم في العمل بمدّ إجازتي خاصة وأنّ الطبيب يقول إن حالة والدي لا تتحسّن. إنه في نزعه الأخير. ثم اكتشفت الأسبوع الماضي أنهم سرّحوني من العمل؛ لم يمكنهم احتمال أن أبقى بعيداً أكثر من ذلك.

لخّصت له الأمور قائلة:

- إذاً، فقد فقدت والدك ووظيفتك. وصديقتك. وأفضل أصدقائك. كلهم في أسبوع واحد.

- صحيح، شكراً لأنك قلت ذلك بصوت عالٍ أمامي.

قلت باستخفاف:

- ليس أمامي سوى أربعة عشر يوماً لإصلاحك. ليس لديّ وقت للمشي على أطراف الأصابع.

- الحقيقة أنها ثلاثة عشر فقط.

- عندما يتوفى والدك، لا تتوقع أن تحتفظ بموقعك الوظيفي، أليس كذلك؟

- تلك هي المشكلة: إنها شركة عائلية. جدّي ترك الشركة لأبي، ومن بعده تؤول إليّ، وهكذا وهكذا.

كان مجرد الكلام في الموضوع يرفع من درجة التوتر. وأدركت أنني بحاجة إلى أن أخطو بحذر، فسألت:

- هل تحدَّثت إلى والدك حول عدم رغبتك في هذه الوظيفة؟

- ضحك باستخفاف، ومرارة:

- من الواضح أنك لا تعرفين عائلتي. لا يهم ما الذي أقوله لهم؛ الوظيفة وظيفتي سواء أحببت ذلك أم لا وصية جدي تنصّ على أنّ الشركة شركة والدي طيلة حياته ومن بعده تصبح لأبنائه، فإذا لم أنخرط في شركتنا، تؤول إلى ابن عمي وترثُها أسرته.

- وهذا ينقذك بالتأكيد.

دفن رأسه في يديه وفرك عينيه بإحباط.

- بل يجعلني في وضع أسوأ. اسمعي، أنا أقدِّر محاولاتك، لكنك لا تفهمين الموقف. الأمر أعقد من أن أشرحه، لكن دعينا نقول إنه يتضمن سنوات وسنوات من القاذورات العائلية وأنا الغارق وسط هذه القاذورات.

كانت أصابعه ترتعش. فركهما في بنطاله الجينز، أعلى وأسفل، أعلى وأسفل. الأرجح أنه لم يكن واعياً حتى أنه يفعل ذلك. لقد حان الوقت لتعديل المزاج.

- احكِ لي عن وظيفتك، الوظيفة التي تحبها.

نظر إليَّ، وبدت في عينيه نظرة مرح نادرة.

- خمني ماذا أعمل؟

تفحصته بعينيَّ.

- عارض أزياء؟

أنزَلَ ساقيه من على الكنبة واعتدل في جلسته. فعلها بسرعة حتى أنني ظننته سينقض عليَّ؛ لكنه بدلاً من ذلك نظر إليَّ مصدوماً.

- هل تمزحين؟

- أنتَ لست عارض أزياء؟

- أي شيطان جعلك تقولين هذا؟

- لأنك...

- لأنني ماذا؟

كان مذهولاً وكانت أول مرة أراه بهذه الحيوية.

- لا تقل لي إن أحداً لم يقل لك ذلك من قبل!

هزّ رأسه.

- لا طبعاً لا

- أوه. حتى فتاتك؟

- لا!

ضحك بسرعة، وكانت ضحكة جميلة، صوتاً جميلاً، راودتني الرغبة في سماعه ثانية.

- أنتِ تستدرجينني.

ثم تمدَّد ثانية، ورفع قدميه، وقد رحلت الابتسامة والضحكة.

شرحتُ له بالمنطق:

- أنا لا أستدرجك. لقد تصادف وأنك أكثر الرجال الذين

رأيتهم في حياتي وسامة لذا ظننت أنك ربما تكون عارض أزياء. لم أكن أختلق هذا!

عندها نظر إليّ، ووجهه أكثر ليناً، وبدا عليه قدرٌ من الحرج، وهو يحاول تبين إن كنت أمزح. لكنني لم أكن أمزح. الحق أنني كنت أشعر بالحرج؛ لم أكن أقصد أن تخرج كلماتي بهذه الطريقة. لقد قصدتُ أن أقول إنه وسيم، لكن كلامي كان خطأ لأنه كان صحيحاً.

- إذاً، ماذا تفعل؟

غيرتُ الموضوع، وأنا ألتقط نسيلة وبرٍ من على بنطالي لأتحاشى النظر إليه.

- سيعجبك هذا.

- تفضل.

- أنا أمارس التعري مقابل أجر. هل تعرفين فرقة «تشيبانديلز» للتعري؟ أنا واحد من هؤلاء. لأنني وسيم وكل هذه الأمور.

قلبتُ عينيّ ورجعت بظهري.

- آه، أنا أمزح معكِ. أنا طيار مروحية في حرس السواحل الأيرلندي.

انفغر فمي.

تفحّصني وقال:

- هل رأيتِ؟ قلتُ إن ذلك سيعجبك.

قلت:

- أنت تنقذ الناس؟ بيننا أمور كثيرة مشتركة، أنا وأنت.

لم يكن ممكناً أن يعود آدم إلى تلك الوظيفة وهو في هذه الحالة

العقلية. لم أكن أتركه ليفعل ذلك. لن أسمح له، وهُم لن يسمحوا له.

- قلت إن شركة العائلة تؤول إلى أولاد أبيك بعد وفاته. فهل لديك أخوة؟

- عندي أخت كبرى. الدور دورها، لكنها انتقلت إلى بوسطن. كان عليها أن تهرب إلى هناك بعدما تبيَّن أن زوجها قد سرق الملايين من أصدقائه في عملية لتوظيف الأموال. كان من المفترض أن يستمرها لهم لكنه أنفقها. وأخذ بعض المال مني أنا أيضاً. والكثير من بابا.

- مسكينة أختك.

- لافينيا؟ الأرجح أنها كانت العقل المدبر وراء هذا. والأمر لا يقف عند هذا الحدّ، هناك تعقيدات أخرى. كان من المفترض أن تؤول الشركة إلى عمي، فهو الأخ الأكبر، لكنه أناني وضيع وجدّي كان يعرف أنه سوف يهوي بالشركة إلى الحضيض إن هي تُركَت له، وهكذا ذهبَت إلى والدي. والنتيجة أن العائلة انقسمت بين أولئك المتعاطفين مع عمي الآن وأولئك الذين يأخذون جانب أبي. وهكذا إذا لم أتولَّ المسؤولية وذهبت الشركة إلى ابن عمي... يصعب أن أشرح ذلك لشخص ليس من العائلة. لا يمكنك أن تعرفي كم هو صعب أن تديري ظهرك لشيء ما، حتى وإن كنت تحتقرينه، لأنّ المسألة مسألة إخلاص.

اندفعت أقول:

- لقد تركتُ زوجي الأسبوع الماضي.

هكذا، قلتها. كان قلبي يضرب في صدري؛ لا بد وأنها كانت المرة الأولى التي أخبر بها أي شخص، بصوت عالٍ. لوقت طويل

ظللتُ أرغب في تركه، لكنني لم أستطع لأنني أردت أن أكون زوجة مخلصة تحافظ على الوعود التي قطعتها على نفسها. كنت أعرف بالضبط الإخلاص الذي يتكلم عنه آدم.

نظر إليّ، متفاجئاً. ولوهلة تفحّصني، وكأنما يتساءل إن كان زعمي حقيقياً.

- وماذا كان يفعل.

- إنه كهربائي، لماذا؟

- لا لماذا تركتِهِ؟ ماذا كان يفعل معك؟

ابتعلت ريقي، ونظرتُ إلى أظافري.

- الحقيقة أنه لم يرتكب أي خطأ. لقد كان... لم أكن سعيدة.

زفر من أنفه، وقد بدا عليه عدم الرضا.

- إذاً فأنت تحققين سعادتك على حسابه.

كنت أعرف أنه يفكر في صديقته.

- ليست تلك فلسفة أحبّ أن أدعو إليها.

- لكنك تمارسينها.

ردَّدتُ كلماته السابقة:

- لا يمكنك أن تعرف كم هو صعب أن تترك شخصاً.

- معك حق.

قلت:

- عليك أن تحسب المخاطر. معاً كنا سنصبح نحن الاثنين تعساء لبقية حياتنا. سوف يتجاوز الأمر. سوف يتجاوزني بأسرع ممّا يظن.

- وماذا إن لم يتجاوز؟

لم أعرف بمَ أردّ. لم تخطر الفكرة ببالي قط. كنت واثقة أن باري سيتجاوزني. سيكون عليه ذلك.

اختفى آدم بعد ذلك. ظلَّ في الغرفة لكنه انطوى داخل عقله، لا شك أنه يفكر في مستقبله مع فتاته. لم يكن تجاوُزُها خياراً متاحاً؛ كان يريد استعادتها. وإذا كانت فتاة آدم تشعر تجاهه كما أشعر تجاه باري، فليس أمامهما أدنى فرصة ولا في العالم الآخر.

- وأنتِ. ماذا تعملين؟

سألني، وكأنه أدرك فجأة أنه لا يعرف شيئاً عن المرأة العازمة على إنقاذ حياته.

شاركته لعبته.

- ماذا تظنّني أعمل؟

لم يفكر طويلاً.

- تعملين في محل لبيع الأغراض المتبرَّع بها؟

وجدتني أضحك رغماً عني.

- هذا تخمين عشوائي.

ألقيت نظرة على ملابسي، وأنا أتساءل إنْ كان يظنّ أن بنطالي الجينز، وقميصي الجينز، وحذائي الرياضي ماركة «كونفيرس» جاءت من محل لبيع الأغراض المتبرَّع بها. ربما كانت ملابس بسيطة، لكنها جديدة، وموضة أطقم الجينز كانت تعود من جديد.

ابتسم:

- لا أقصد ملابسك. الأمر يتعلق بـ... تبدين من النوع الذي يهتم بالآخرين. ربما طبيبة بيطرية، أو في مجال له علاقة بإنقاذ الحيوانات.

هزّ كتفيه، وتابع:

- هل اقتربتُ؟

تنحنحتُ.

- أعمل في مجال التوظيف.

تلاشت ابتسامته. وكان إحباطه محسوساً، وقلقه محسوساً أكثر. ولم يحاول إخفاء ذلك.

بعد سويعات قليلة لن يكون أمامي سوى اثني عشر يوماً. وحتى الآن لم أحقق أي إنجاز.

7

كيف تبني الصداقات وتعزز الثقة

كنت مستعدة أن أقسم لأيّ شخص يسمعني أنني لم أنَم طوال الليل، لأنني كنت متأكدة من ذلك، لكن إدراكي أنّ الصبح قد أطلّ أخيراً لم يكن هو ما دفعني للخروج من حالة النوم، وإنما صوت مياه تجري. شعرتُ بارتباك لأنني نمت، تطلّب الأمر لحظة لكي أتذكر أين كنت. ثم سرعان ما كنت يقظة تماماً ومنتبهة لكل شيء؛ ولم أترنّح. عندما رأيت الكنبة التي كان ينام عليها آدم خالية قفزتُ على الفور واندفعت إلى غرفة النوم، وصدمتُ ركبتي في طاولة القهوة ومرفقي في حلق الباب، وأنا عاجزة عن استيعاب الأمور، وتخبّطت وأنا أقتحم الحمام حيث واجهتني مؤخرة عارية ورشيقة ومفتولة العضلات لم ترَ الشمس منذ وقت طويل. لوى آدم جذعه، وقد انفردت خصلات شعره الأشقر وصارت داكنة وراحت تقطر على وجهه. لم أستطع أن أتوقف عن التحديق.

قال، متسلّياً مرة أخرى:

- لا تقلقي. أنا حيّ.

سارعتُ بالخروج من الحمام، وأغلقت الباب وأنا أكتم ضحكة مرتبكة، ثم هرعت إلى حمام الضيوف لأعدل مظهري بعد أن بتُّ

ليلتي في طقم الجينز. عندما خرجت من غرفة الجلوس، كانت المياه لا تزال تنسال في الحمام. وبعد عشر دقائق كانت لا تزال كذلك. أخذت أروح وأجيء في غرفة النوم وأنا أفكر فيما يجب أن أفعله. الدخول عليه مرة كان خطأ، لكن المرة الثانية ستكون مثيرة للشك، لكنني لم أكن واثقة من كوني أمتلك رفاهية الالتزام بالسلوك المهذب مع رجل حاول أن يقتل نفسه قبل ليلتين، مع أنني لم أكن أعرف كيف يمكنه أن يؤذي نفسه هناك إلّا بأن يجعل نفسه ينكمش حتى الموت. كنت قد رفعت الأكواب الزجاجية من محيط المغسلة حتى لا يستطيع إيذاء نفسه، ولم أكن قد سمعت صوت تهشيم إحدى المرايا. كنت على وشك أن أدفع باب الحمام ثانية عندما سمعت الصوت. كان هادئاً في البداية، ثم أصبح مختنقاً، مليئاً بالألم، عميقاً ومفعماً بالحرقة حتى أنني تركت المقبض وأرحتُ رأسي على الباب، وأنا أشعر برغبة شديدة في التخفيف عنه. وإذ شعرت بالعجز، رحتُ أصغي إلى نشيجه.

ثم تذكرت رسالة الانتحار تلك. إذا لم أضع يدي عليها قبل خروجه من الحمام، فلن أراها قط. جلتُ ببصري في أرجاء الغرفة فرأيت ملابسه ملقاة في الزاوية، وبنطاله مبعثراً فوق حقيبة سفره. دسستُ يدي في كل الجيوب حتى عثرت على الورقة المطوية. فتحتها، على أمل أن تمنحني المزيد من المعرفة حول الأسباب التي دفعته إلى محاولة الانتحار، لكن بدلاً من ذلك وجدت مجموعة من الشخبطات، بعضها مشطوب، وبعضها الآخر مؤكّد بخطوط أسفلها، وسرعان ما أدركت أنها لم تكن رسالة انتحار أصلاً؛ بل كانت عبارات جهّزها لطلب يد ماريا، وقد عدّلها مرة بعد مرة، وأعاد كتابتها حتى يصل بها إلى الصياغة المثلى.

خطفت انتباهي اهتزازات هاتف آدم. كان بجوار ملابسه النظيفة التي جهّزها ليرتديها ذلك اليوم. توقف الهاتف عن الرنين وكشفت الشاشة سبع عشرة مكالمة لم يُرد عليها. رن ثانية. ماريا. اتخذت قراراً سريعاً، قراراً لم أفكر فيه كثيراً. أجبت على الهاتف.

كنت في منتصف محادثتي معها عندما انتبهت إلى أنّ المياه قد توقفت عن الجريان، الحقيقة أن الصوت كان قد انقطع منذ برهة. استدرتُ، وهاتفه لا يزال على أذني. كان آدم واقفاً عند باب الحمام، وكأنما ظلّ هناك لفترة، والفوطة ملفوفة حول وسطه، وجسده جاف تماماً، وقد ارتسم الغضب على وجهه. اعتذرتُ منها سريعاً وأنهيت المكالمة. ثم تكلّمت قبل أن تُتح له فرصة مهاجمتي.

- كانت لديك سبع عشرة مكالمة لم يُرد عليها، اعتقدت أنّ الأمر قد يكون مهماً، فأجبت. م، إذا كانت الأمور ستنجح بيننا، فأنا بحاجة إلى أن تكون حياتك بأكملها متاحة أمامي. من دون قيود. من دون أسرار.

توقّفت لكي أتأكد أنه فهمني. لم يعترض.

- تلك كانت ماريا. كانت قلقة عليك. كانت خائفة أن تكون قد آذيت نفسك بعد الليلة الماضية، أو أسوأ من ذلك. لقد ظلّت قلقة عليك طوال عام كامل، وشديدة القلق منذ تسعة أشهر. شعرَت بالعجز فذهبت إلى شون طلباً للمساعدة، حتى يفكّرا في ما يجب فعله. ظلّت تصارع إحساسها نحوه، لكنها وقعت في غرامه. لم يرغبا في إيذائك. لهما ستة أسابيع معاً. لم تعرف كيف تُخبرك. ظنّت أن سلوكك هذا مرجعه رحيل أختك عن أيرلندا، ثم اضطرارك إلى ترك وظيفتك، ثم مرض والدك. أرادت أن تخبرك بموضوعها هي وشون، لكن ساعتها عرفت أنّ والدك في أيامه الأخيرة. قالت

إنها كانت قد رتّبت لمقابلتك الأسبوع الماضي لكي تخبرك أخيراً، لكن بدلاً من ذلك أخبرتها أنت بتسريحك من وظيفتك. قالت إنها كانت تتمنى لو أنك لم تكتشف الأمور بالطريقة التي تمّت.

ظللتُ أراقبه وهو يستقبل كلّ هذا. كان يغلي من داخله، الغضب يفور تحت جلده، لكنني استطعتُ رؤية الألم أيضاً، كان هشاً جداً بحق، رقيقاً جداً، كسير القلب جداً، همسة واحدة ويصير حطاماً.

تابعت:

- بدت مستاءة لأنني أجبت على الهاتف، منزعجة، تكاد تكون غاضبة مني لأنها لا تعرف من أكون. قالت إنها كانت تظن، بعد ست سنوات قضيتماها معاً، أنها تعرف كلّ أصدقائك. كانت تشعر بالغيرة.

بدأ الغضب يهدأ قليلاً عندها، وبدت فكرة أنها تغير عليه من امرأة أخرى مثل ماء انصبّ على غضبه المتّقد.

شعرت بالتردّد أن أكمل، لكنني راهنت على مقامرة ظننتها ستأتي ثمارها.

- قالت إنها لم تعُد تتعرف عليك. إنك كنت مرحاً في سابق عهدك - مرحاً وتلقائياً. قالت إنك فقدت الشرارة التي كانت لديك.

ترقرقت عيناه قليلاً وسعل وهز رأسه، ها قد عادت الفتوّة!

- سنعيدك إلى تلك الحالة ثانية يا آدم، أعدك. مَن يعرف، ربما سوف تتعرّف على الرجل الذي وقعت في حبه وتقع في حبه من جديد. سنُعيد اكتشاف شرارتك.

تركتُ له فرصة للتفكير في ذلك وانتظرتُ في غرفة الجلوس، وأنا أقرض أظافري في عصبية. مرّت عشرون دقيقة طويلة قبل أن

يظهر عند الباب، وقد ارتدى كامل ملابسه، عيناه صافيتان تخفيان كل دليل على يأسه.

- إفطار؟

كان البوفيه في صالة الطعام يضمّ تشكيلة واسعة من المأكولات للاختيار من بينها والزبائن يذهبون ويرجعون عدة مرات لاستغلال قائمة «كلّ ما تستطيع تناوله من طعام». جلسنا وظهرانا لشاشة العرض وأمامنا المفارش الخالية وكوبان من القهوة السوداء.

قال آدم:

- إذاً، أنت لا تأكلين، ولا تنامين فعلياً، وكلانا يحب إنقاذ الناس. فما هو المشترك بيننا عدا ذلك؟

كنت قد فقدت شهيتي قبل ثلاثة أشهر، حين أدركتُ أنني لست سعيدة في زواجي. ونتيجة فقدان الشهية، فقدتُ الكثير من وزني، وإن كنت أعمل على ذلك مستعينة بكتاب كيف تستعيد شهيتك لقمة بعد لقمة.

أجبته:

- علاقات محطمة.

- أنتِ اخترتِ الهجر. أنا هُجرت. هذه النقطة لا تُحتسب.

- لا تأخذ تركي لزوجي على محمل شخصي.

- سآخذه على محمل شخصي إذا أردت.

تنهدت.

- أخبرني عنك إذاً. ماريا قالت إنك قد فقدت شرارتك منذ أكثر من عام، وهي الملاحظة التي ظلّت في بالي.

قاطعني، بحماسة زائفة:

- نعم، وظلّت في بالي أيضاً. أتساءل هل أدركَت ذلك قبل أن تنام مع أعزّ أصدقائي أم بعدها، أو ربما في أثناءها. أليس ذلك أمراً لطيفاً؟

لم أردّ على هذا، وسمحت له أن يقول ما يشاء.

- كيف كان حالك عندما توفيت أمك؟ كيف كنت تتصرف؟

- لماذا؟

- لأن ذلك يساعدني.

- وهل سيساعدني أنا؟

- أمك توفيت، وأختك رحلت، ووالدك مريض، وفتاتك قابلت شخصاً آخر. أعتقد أن هجران فتاتك لك هو ما قدح الزناد. ربما لا تستطيع أن تتعامل مع فكرة رحيل الناس. ربما تشعر بالهجر. تعرف، إذا استطعت تحديد العوامل التي قدَحت الزناد عندك، يمكن لذلك أن يساعدك في إدراك تلك الأفكار السلبية قبل أن تسقط في الدوامة. ربما عندما يتركك أحد ويرحل الآن، يعاودك الإحساس الذي شعرتَ به وأنت في الخامسة من عمرك.

أعجبتُ بنفسي، لكن بدا أنني وحدي مَن شعر بهذا الإعجاب.

- أعتقد أن عليكِ الكفّ عن لعب دور المعالج النفسي.

- أعتقد أن عليكَ زيارة معالج نفسي حقيقي، لكنك لسبب ما لا تذهب، وأنا أفضلُ ما لديك.

أخرَسَه ذلك. أياً كانت أسبابه، لم يبدُ هذا الخيار مطروحاً عنده. مع ذلك، كنت آمل أن أنجح في إقناعه في نهاية المطاف.

تنهد آدم وأسند ظهره إلى الكرسي، وهو ينظر إلى الثريا بالأعلى وكأنها هي مَن طرح عليه السؤال.

- كنت في الخامسة، وكانت لافينيا في العاشرة. كانت أمي

مُصابة بالسرطان. كان الجميع يشعرون بحزن بالغ، مع أنني في الواقع لم أكن أفهم. لم أكن أشعر بالحزن، كنت أعرف فقط أن الأمر محزن. لم أكن أعرف أنها مصابة بالسرطان، أو أنني عرفتُ لكنني لم أعرف ما هذا. عرفت فقط أنها كانت مريضة. كانت هناك غرفة بالطابق السفلي في البيت حيث كانت تعيش ولم يكن مسموح لنا بالدخول. استمرّ الأمر بضعة أسابيع أو بضعة شهور، لا أتذكر على وجه الدقة. شعرت أن الأمر استمرّ إلى الأبد. كان علينا أن نكون في غاية الهدوء بالقرب من الباب. كان الرجال يدخلون ويخرجون حاملين حقائب الأطباء، ينكشون شعري وهم يمرون بي. وكان أبي نادراً ما يدخل. ثم في أحد الأيام وجدت باب الغرفة مفتوحاً، فدخلت؛ كان بها سرير لم يكن هناك من قبل. وكان السرير خاوياً، لكن بخلاف ذلك بدت الغرفة كما كانت. قال لي الطبيب الذي اعتاد أن يربت على رأسي إن أمي رحلت. سألته إلى أين فقال إلى الجنة. فعرفت أنها لن تعود. هذا هو المكان الذي ذهب إليه جدي ذات يوم ولم يعد. فكرت أنه ولا بد مكان ممتع طالما أن الناس لا يريدون العودة منه. ذهبنا إلى الجنازة. كان الجميع غاية في الحزن. بقيت مع عمتي لبضعة أيام. ثم أرسلت مع أمتعتي إلى مدرسة داخلية.

كان يتكلم عن الموضوع بلا انفعال، منفصلاً تماماً حيث انطلقت آلياته الدفاعية لتحجز الألم الكاسح. أظن ألم اتصاله لم يكن محتملاً. بدا منعزلاً ومنسلخاً وصدَّقتُ كل كلمة قالها.

- والدك لم يناقش معك ما حدث لأمك؟

- والدي ليس رجل مشاعر. بعدما قالوا له إنه لن يعيش سوى لأسابيع طلب أن يحضروا له جهاز فاكس في غرفة المستشفى.

- وأختك؟ هل تواصلت معك؟ هل تكلّمتما عن الموضوع معاً، لكي تفهما؟

- أختي أُرسلت إلى مدرسة داخلية في كيلدير ولم نعُد نلتقي إلا لبضعة أيام كل إجازة. أول صيف عدنا فيه إلى البيت من المدرسة الداخلية جهزت كابينة في البلدة وباعت أحذية أمي، وحقائبها، ومعاطفها الفرو، ومجوهراتها، وكل ما كان له قيمة من أغراضها، وجنت ثروة من وراء ذلك. بِيْع كل غرض من أغراضها ولم يعُد بالإمكان إعادة شراءه عندما عرفنا ما فعلته بعد بضعة أسابيع. كانت قد أنفقت معظم النقود بالفعل. كانت فعلياً غريبة عني وأصبحت أغرب بعد ذلك الذي فعلته. لقد جُبلَت من الطينة نفسها التي جُبل منها والدي. إنها أذكى مني، أمرٌ مؤسف أنها لم تسخِّر ذكاءها لما هو أفضل من ذلك. كان يجب عليها هي أن تحلّ محل أبي، لا أنا.

- هل عقدتَ صداقات جيدة في المدرسة الداخلية؟

كنتُ آمل في وجود دائرة ما توفّر لآدم الحب والصداقة، أردتُ نهاية سعيدة في مكان ما.

- هناك قابلت شون.

ولم تكُن تلك هي النهاية السعيدة التي تمنّيتها، فهذا الشخص الموثوق قد خانه. لم أستطِع أن أمنع نفسي، مددتُ يدي ووضعتها على يده. جعلته هذه الحركة يتصلّب، فسحبتُ يدي سريعاً.

عقد ذراعيه.

- إذاً، ما رأيك أن نتوقف عن هذا الكلام الفارغ وأن نتّجه مباشرة إلى المشكلة.

- هذا ليس كلاماً فارغاً. أظنّ أنّ وفاة أمك عندما كنت في

الخامسة أمر مهم، فهو يؤثر على ماضيك وعلى سلوكك الحالي، على عواطفك، وطريقة تعاملك مع الأشياء.

هذا ما كان الكتاب يقوله وكنت أعرف شخصياً أنه صحيح.

- ما لم تكن أمّك قد ماتت وأنتِ في الخامسة، أعتقد أن ذلك شيئاً لا يمكن أن تتعلّميه من كتاب. أنا بخير حال، دعينا نتابع.

- لقد حدث هذا.

- ماذا؟

- ماما ماتت وأنا في الرابعة.

نظر إليّ مندهشاً.

- أنا آسف.

- أشكرك.

سألني بلطف:

- إذاً، ماذا كان أثر ذلك عليك؟

- أظنّ أنني لست الشخص الذي يريد أن يقتل نفسه في عيد ميلاده الخامس والثلاثين، لذا هيّا نتابع.

هكذا أجبته بحدّة، في انتظار العودة للكلام عنه. فهمت من الدهشة المرتسمة على وجهه أن صوتي خرج أكثر غضباً ممّا أردت. تمالكتُ نفسي.

- آسفة. كنت أقصد أنك إن لم تكن تريد الكلام، فماذا تريد مني يا آدم؟ كيف تتوقّع مني أن أساعدك؟

انحنى إلى الأمام، وخفض صوته، وراح يدقّ بإصبعه على الطاولة ليؤكّد على كلّ نقطة.

- عيد ميلادي الخامس والثلاثون السبت بعد القادم، لا أريد أن تُقام لي حفلة، لكن لسبب ما هذا ما يجري ترتيبه من قبل العائلة

- وحين أقول العائلة لا أعني أختي لافينيا، لأن الطريقة الوحيدة لأن تظهر في أيرلندا من دون أغلال في معصميها هو على برنامج «سكايب». أنا أقصد عائلة الشركة. ستُقام الحفلة في قاعة المدينة في دبلن، حدث كبير، وأفضّل ألّا أكون هناك، لكن سيكون عليّ ذلك لأن مجلس الإدارة اختار ذلك اليوم لكي يعلن أمام الجميع أنني ساتولّى مسؤوليات الشركة في حياة أبي، الأمر يشبه إعطائي خاتم الإجازة. هذا سيحدث بعد اثني عشر يوماً. ولأنه مريض جداً، عقدوا اجتماعاً الأسبوع الماضي ليروا إنْ كان بالإمكان تأجيل حفلة عيد ميلادي. وأنا قلت لهم إنّ ذلك لن يحدث. فأولاً، أنا لا أريد الوظيفة. لم أتدبّر أموري بعد، لكنني سأعلن شخصاً آخر كرئيس جديد تلك الليلة. وإذا كان عليّ أن أدخل هذه القاعة اللعينة، فأنا أريد استعادة ماريا، لتكون إلى جانبي، تُمسك بيدي كما يجب أن يكون الحال.

تهدّج صوته وتوقّف لحظة ليتمالك نفسه.

- فكرتُ في الأمر وفهمتُ. لقد تغيرتُ. لم أكن موجوداً عندما كانت تحتاج إليّ، انتابها القلق، فذهبت إلى شون، وشون استغلّها. لقد سافرنا سوياً إلى بنيدورم بعد امتحانات الثانوية العامة، وظللتُ أخرج معه في نهاية كلّ أسبوع منذ كنت في الثالثة عشرة - صدقيني، أعرف كيف يمكن أن يكون مع النساء. وهي لا تعرف ذلك.

فتحتُ فمي لكي أحتج، لكن آدم رفع إصبعاً محذّراً وتابع:

- كذلك أريد استعادة وظيفتي في حرس السواحل، وأريد كلّ مَن عمل في شركة أبي على مدار المئة عام الأخيرة أن يُخرجونني من رؤوسهم لأنني أُخترت لأحلّ محلّ أبي بدلاً منهم. لو كانت الأمور بيدي لفضلت أن يحصل أيّ منهم على الوظيفة اللعينة. الآن لا يبدو

هذا الأمر محتملاً، لكنك ستساعدينني على ذلك. نحتاج إلى إبطال رغبات جدّي. لا أنا ولا لافينيا يمكن أن نضطلع بمسؤولية الشركة، مع ذلك لا يجب أن تسقط في يدي ابن عمي نيجل. فتلك ستكون نهاية الشركة. يجب أن أتدبّر شيئاً. فإذا لم تحلّ تلك الأمور سأُغرق نفسي في نهر لعين إذا اضطررت، لأنني لن أعيش على أيّ نحو يخالف ذلك.

ضرب الطاولة بسكين الزبدة ليؤكد على عبارته الأخيرة. نظر إليّ بعينين واسعتين، متوتراً، مهدّداً، متحدّياً إياي أن أنسحب، أن أتخلى عنه.

وكان ذلك مغرياً، على أقلّ تقدير. فنهضَت واقفة.

تحوّلت تعبيراته إلى الرضا؛ لقد استطاع أن يدفع شخصاً آخر بعيداً عنه، فيتركه حراً لكي يمضي في خطّته لتحطيم نفسه.

ضربتُ يديّ معاً وكأنني على وشك الشروع في تنظيم المكان.

– طيب. لدينا الكثير لنفعله إذا أردنا لذلك أن يحدُث. أظنّ أن شقتك الآن باتت منطقة محظورة، لذا بإمكانك الإقامة معي. أحتاج إلى العودة إلى البيت لتغيير ملابسي، وأحتاج إلى المرور على المكتب لإحضار بعض الأغراض وأحتاج إلى الذهاب إلى متجر – سأشرح لك لماذا لاحقاً. أولاً، يجب أن أحضر سيارتي. هل ستأتي؟

نظر لي متفاجئاً لأنني لم أتركه كما ظنّني سأفعل، ثم تناول معطفه وتبعني.

فور أن دخلنا التاكسي تعالت من هاتفي نغمة تنبيه.

– هذه المرة الثالثة. أنت لا تقرأين رسائلك أبداً. وهو مؤشر

غير مشجّع بالنسبة لي عندما أكون معلقاً على جسر في مكان ما وأبحث عمّن يشدّ أزري.

- هذه ليست رسائل. هذا بريد صوتي.

- وكيف تعرفين؟

كنت أعرف لأنها كانت الثامنة صباحاً. وشيء واحد هو الذي يحدث عندما تدقّ الثامنة.

- أعرف وحسب.

تفحصني.

- قلتِ لا أسرار، تتذكرين؟

فكرتُ في الأمر، وبدافع من الذنب لأنني قرأت رسالته التي كان يتهيأ فيها لعرض الزواج، والتي كانت في جيبي لحظتها، ناولته هاتفي.

ضرب الرقم وأنصت إلى الرسائل. بعدها بعشر دقائق أرجع لي الهاتف.

نظرتُ إليه منتظرة أيّ ردّ فعل.

- كان ذلك زوجك. لكنني أظنك تعرفين هذا على أية حال. قال إنه سيحتفظ بالسمكة الذهبية وسيطلب من محاميه صياغة دعوى قضائية تمنعك من الاحتفاظ بأيّ سمكة طيلة حياتك. يظن أنه قادر على منعك من دخول أيّ محل للحيوانات الأليفة أيضاً. هو ليس متأكداً من أنه سيكسب الدعوى الخاصة بمدينة الملاهي، لكنه سيكون هناك شخصياً ليضربك ويتأكد من أنك لن تفوزي في أية لعبة.

- هل هذا كل شيء؟

- في الرسالة الثانية وصفك بالمومس خمساً وعشرين مرة. لم

أعدّ. لكنه عدها. قال إنها خمس وعشرين مرة. قال إنك مومس مضروبة في خمس وعشرين مرة. ثم قالها خمساً وعشرين مرة.

أخذت منه الهاتف وتنهدت. لا يبدو أنّ أعصاب باري تهدأ بأيّ حال. الحقيقة، يبدو أنه يصير أسوأ، أكثر اهتياجاً. الكلام الآن على السمكة الذهبية؟ لقد كان يكره هذه السمكة. كانت ابنة شقيقه قد اشترتها له في عيد ميلاده، وكان السبب الوحيد لشرائها سمكة هو أن شقيق باري كان يكره الأسماك أيضاً، وهكذا كانت من الناحية التقنية هدية لها، توضع في منزلنا لكي تستطيع هي أن تنظر إليها وتطعمها عندما تزورنا. بإمكانه أن يحتفظ بالسمكة اللعينة.

اختطف آدم الهاتف مرة أخرى من يدي وفي عينيه نظرة احتيال، وهو يقول:

- الحقيقة، أريد أن أعدَّها. ألن يكون مضحكاً إن كان قد أخطأ في العد؟

أنصت للبريد الصوتي مرة أخرى على السماعة الخارجية، وفي كلّ مرة كان باري يقذف الكلمة بوحشية، والغلّ والمرارة والحزن تقطر من كلّ حرف، كان آدم يعدّ على يديه بابتسامة كبيرة على وجهه. أنهى المكالمة وقد بدا عليه الإحباط.

- لا خمس وعشرين مومس.

أعاد لي الهاتف وأشاح بوجهه إلى النافذة.

ظللنا صامتين لدقائق وأطلق هاتفي نغمة أخرى. قال:

- وأنا الذي ظننتُ أنني غارق في المشاكل.

8

كيف تعتذر بصدق
عندما تدرك أنك آذيت شخصاً ما

- إذاً، هذا هو.

- نعم.

همستُ، وأنا أجلس في الكرسي إلى جوار سرير سايمون كونواي.

رفع آدم صوته أعلى من اللازم:

- لا يستطيع سماعك، تعرفين. لا حاجة إلى الهمس.

- ششش!

أثارني عدم احترامه، حاجته الواضحة إلى إثبات أنه لم يتأثر بما رآه. طيب، لقد تأثرت أنا ولم أكن خائفة من الاعتراف بذلك؛ كنت أشعر بانفعال جياش. كلّ مرة أنظر فيها إلى سايمون كنت أستعيد اللحظة التي أطلق فيها الرصاص على نفسه. كنت أسمع الصوت، الدوي الذي خلّف صفيراً في أذنيّ. كنت أراجع الكلمات التي قلتها وجعلته يضع مسدّسه على منضدة المطبخ. كانت الأمور تسير على ما يرام، كانت عزيمته قد خارت، وصار التواصل بيننا على خير ما يكون، لكن بعدها تملّكتني النشوة وفقدتُ الإحساس بما قلته تالياً –

إن كنت قد قلت أي شيء أصلاً. أغمضت عينيَّ بقوة وحاولت أن أتذكر.

قاطع آدم أفكاري، وهو يقول بصوت عالٍ:

- إذاً، هل يفترض بي أن أشعر بأيّ شيء الآن؟

ثم تحدّاني قائلاً:

- هل هذه رسالة، تخاريف نفسية تريدين من خلالها أن تقولي لي كم أنا محظوظ أنني هنا بينما هو هناك؟

نظرت إليه شذراً.

- من أنتِ؟

قفزتُ من على مقعدي عند الدخول المفاجئ لامرأة إلى الغرفة. كانت في أوائل إلى منتصف الثلاثينيات وتمسك يدي بنتين صغيرتين شقراوين كانتا تنظران إليها بأعين كبيرة زرقاء متسائلة. جيسيكا وكيت؛ تذكرتُ سايمون وهو يخبرني عنهما. جيسيكا كانت حزينة لأنّ أرنبها الأليف قد مات، وكيت ظلّت تتظاهر أنها تراه عندما لم تكن جيسيكا تنظر، لتخفّف عنها. كان قد تساءل ما إن كانت كيت ستفعل الشيء نفسه عنه عندما يرحل هو، وكان عليّ أن أخبره أنه ليس مضطراً إلى التساؤل، ليس مضطراً لأن يضعهما في هذا الموقف إذا ظلّ على قيد الحياة لأجلهما. بدت المرأة محطّمة. زوجة سايمون، سوزان. بدأ قلبي يخفق، والذنب الناجم عن تورطي يضمضع جسدي. حاولتُ أن أتذكر ما سبق وقالته لي أنجيلا، ما سبق وقاله لي الجميع: إنها ليست غلطتي. لقد حاولت أن أساعد وحسب. إنها ليست غلطتي.

- أهلاً!

جاهدتُ كيف أقدم نفسي. ربما كانت ثوانٍ من الصمت لكنني

شعرت بها تمتدّ إلى الأبد. لم يكن وجه سوزان مرحِّباً، لم يكن لا دافئاً ولا مطَمْئناً. لم يساعدني ذلك على التخلص من توتري وزاد من وطأة إحساسي بالذنب. شعرت بعيني آدم علي، أنا منقذته، أتخبط الآن في درسي عن الإيمان بالذات والقوة الداخلية.

تقدمتُ إلى الأمام ومددتُ يدي، ابتلعت ريقي، وسمعت الرجفة في صوتي وأنا أتكلم:

- اسمي كريستين روز. كنت مع زوجك ليلة أن. . .

ألقيتُ نظرة على البنتين الصغيرتين اللتين تتطلعان إليَّ بأعين واسعة.

- ليلة الحادثة. أريد فقط أن أقول ــــ

- اخرُجي.

قالتها سوزان بهدوء.

- معذرة؟

ابتلعتُ ريقي، وقد شعرت بجفاف مفاجئ في حلقي. كان ذلك أسوأ كوابيسي. لقد عشت هذا المشهد ألف مرة بطرق مختلفة وعبر عيون الكثير من الناس في مخاوف آخر الليل/ أول الصباح، لكنني لم أظن أنها ستتحقق فعلاً. ظننت أن مخاوفي غير منطقية؛ والشيء الوحيد الذي كان يجعلها محتملة كان معرفة أنها ليست حقيقية.

- لقد سمعتِني.

كررَتها، وهي تسحب ابنتيها بعيداً إلى داخل الغرفة حتى تخلي الطريق أمام الباب كي أغادر.

تجمّدت في مكاني، لم يكن هذا يحدث. وتطلَّب الأمر أن يضع آدم يداً على كتفي ويعطيني دفعة خفيفة حتى يجعلني أستعبد

حواسي أخيراً. لم نتحدّث حتى أصبحنا نحن الاثنين في السيارة وعلى الطريق. فتح آدم فمه ليتحدّث، لكنني بادرته:

- لا أريد كلاماً في هذا الموضوع.

جاهدتُ حتى لا أبكي.

- طيب.

قالها برقة، ثم بدا وأنه سيقول شيئاً آخر لكنه أوقف نفسه ونظر من النافذة.

وتمنيتُ لو أنني عرفت ما هذا الشيء.

نشأت في كلونتارف، وهي ضاحية ساحلية في شمال دبلن. عندما قابلت باري، انتقلت عن طيب خاطر إلى حيث يسكن في ساندي ماونت. عشنا في شقة العزاب التي كان يسكنها لأنه أراد أن يكون قريباً من أمه التي لم تكن تحبّني لأنني أنتمي إلى كنيسة أيرلندا رغم أنني لم أكن أشغل نفسي بارتيادها - لم أعرف ما الذي كان يضايقها أكثر. بعد ستة أشهر من المواعدة، تقدّم لي باري، في الأغلب لأن ذلك ما كان يفعله كلّ أقراننا في ذلك الوقت، ووافقت لأنّ ذلك ما كان يفعله كل أقراننا، ولأن ذلك بدا الشيء الذي يفعله الناضجون في عمرنا، وبعدها بستة أشهر أصبحت متزوجة وأعيش في شقة جديدة كنا قد اشتريناها معاً في ساندي ماونت وقد صارت أيام المرح ورائي والواقع الآن وإلى الأبد يمتدّ أمامي. ظلّ عملي في كلونتارف، رحلة قصيرة بقطار دبلن السريع كلّ صباح. لم يستطع باري بيع شقة العزاب فقام بتأجيرها؛ وكان الإيجار يكفي لسداد أقساط شقتنا. لو يرجع باري إلى شقة العزاب التي ملأ الدنيا

ضجيجاً عندما غادرها لحللنا الكثير من مشكلاتنا الحالية، فذلك سيتيح لي البقاء في بيتنا، ولكن لا، كان يريد الاستيلاء على شقتنا. وكان يريد الاستيلاء على سيارتنا أيضاً، وهكذا أصبحت أقود الآن سيارة صديقتي؛ كانت جولي قد هاجرت إلى تورنتو قبل أن تستطيع التخلص من سيارتها، التي ظلّت معروضة للبيع على مدار عام كامل. وفي مقابل السماح لي بقيادتها، كنت مسؤولة أيضاً عن متابعة موضوع عرضها للبيع، فأعلن عنها بلافتة «للبيع» على الزجاجين الأمامي والخلفي ومعها رقم هاتفي، ومن ثم أستقبل المكالمات، وأجيب عن التساؤلات، وأرتب المقابلات لتجربتها. وبدأت أعرف أن الناس مستعدين لإجراء مكالمات في ساعات عشوائية يسألون فيها عن التفاصيل المذكورة نفسها بالفعل في إعلانات مجلة السيارات، وكأنهم يتوقعون سماع إجابة مختلفة كلّ الاختلاف.

كان مكتبي يقع على طريق كلونتارف، في الطابق الأول من بيت من ثلاثة طوابق ظل بيتاً لعمات بابا الثلاث العازبات، بريندا وأدريان وكريستين، اللاتي سمِّيت أنا وشقيقتاي بأسمائهن. الآن كانت مقراً لشركة بابا وشقيقتيّ، واسمها «شركة روز وبناته للمحاماة» لأنّ بابا كان نسوياً. كان بابا قد ظلّ يمارس مهنته هناك على مدار ثلاثين عاماً، منذ أن قرَّرت عمته الباقية الانتقال إلى شقة مستقلة بذاتها في القبو بدلاً من البحث عن بيت كير تسكنه بمفردها. وفور أن حصلت شقيقتاي على الإجازة، انضمّتا إلى الشركة. وقد ظللت أحسب حساب اليوم الذي سوف أضطر فيه إلى إخباره بأنني لا أريد العمل في شركة الأسرة، لكنه كان متفهما جداً، بل إنه، في الحقيقة، لم يرغب في أن أعمل معه.

قال:

- أنت امرأة أفكار. نحن ناس أفعال. البنتان تشبهانني، فنحن نفعل. أنت تشبهين أمك، فأنت تفكرين. اذهبي إذاً، وفكري!

تخصّصت بريندا في قانون الملكية، وتخصّصت أدريان في قانون الأسرة، بينما فضّل أبي مطاردة الحوادث، لأنه كان يؤمن بأنّ المال هناك. احتلوا الطابق العلوي، وكان مكتبي في الطابق الأول، مع محاسب ظلّ هناك على مدار عشرين سنة وكان يحتفظ بزجاجة فودكا في درج مكتبه ويظن أن لا أحدَ يعرف بأمرها. كان واضحاً من رائحة الغرفة وأنفاسه، لكنني عرفت أساساً من جاسيتا، عاملة النظافة، التي كانت تنقل لبابا كل النميمة الخاصة بكلّ مكتب من المكاتب التي تدفع له الإيجار. لم يكن ذلك اتفاقاً معلناً، لكن كان بينهما تفاهم أنه كلما زادت المعلومات التي تنقلها، كلما دفع لها بابا أكثر. وكثيراً ما كنت أتساءل، تُرى ما الذي كانت تنقله له عني؟

كانت الشركات في الطابق الأرضي قد تغيّرت عدة مرات في السنوات القليلة الماضية حتى أنني لم أعد أعرف مَن هؤلاء الذين أمرّ بهم. فبفضل الركود الاقتصادي، كانت الشركات تخرج بالسرعة التي تدخل بها. وتحول القبو، الذي ظلّ بيتاً لعمتي الكبرى كريستين على مدار سنواتها الأخيرة، من شركة تأمين إلى شركة للوساطة المالية إلى ستوديو للتصميم الغرافيكي، والآن كان بيتي. من كريستين إلى أخرى. كان بابا قد وافق مُكرهاً على تأجيره لي وفرشه بالأثاث؛ ويوم وصولي لم أجد إلا سريراً واحداً في غرفة النوم، وكرسياً واحداً في المطبخ وكرسياً بذراعين في غرفة الجلوس. وكان عليّ أن أفرش بقية الشقة بنفسي عن طريق الإغارة على بيتَي شقيقتيّ. كان من دواعي سرور بريندا أن تتبرع لي بلحاف «سبايدر مان» الخاص بابنها. وقد ظنّت أن ذلك سيُبهجني، لكنه لم يزدني إلّا حزناً

بسبب أوضاعي المادية. فكرتُ أنه مجرد لحاف وبإمكاني تدبرُّه، لذا نويت في الأيام الأولى أن أغيره، لكنني ظللتُ أنسى حتى وصلت إلى النقطة التي لم أعُد معها ألاحظه أصلاً.

في البناية المجاورة كانت مكتبة، «كُشك الكتب»، والمعروفة أيضاً باسم «الكُشك الأخير» بسبب إصرارها العنيد على البقاء مفتوحة ومستمرة في وقت أُجبرت فيه كل المكتبات الصغيرة على مسافة أميال من حولنا على الإغلاق. كانت تديرها صديقتي المقربة أميليا، وأظنّ أن الكتب التي كنت أطلبها كانت الشيء الوحيد الذي يُبقي هذا المكان مفتوحاً، فقد كان فارغاً على الدوام. كان مخزون الكتب قليلاً ومعظم الأشياء التي تريدها كان يجب طلبها مسبقاً، وهو ما يعني أنها لم تكن جذابة لمن يريدون الفرجة على الكتب وتصفّحها. وكانت أميليا تعيش فوق المكتبة مع أمها، التي كانت بحاجة إلى رعاية مستمرة بعدما أصيبت بجلطة دماغية حادة. كثيراً ما كان الجرس يدقّ في المكان لا ليعلن دخول زبون من الباب الأمامي ولكن لينبهها إلى أنّ أمها في الطابق العلوي تطلب شيئاً ما. أميليا، التي كانت لا تزال طفلة عندما سقطت أمها مريضة، ظلت تعتني بها من يومها وكانت تبدو لي في حاجة ماسة إلى استراحة، إلى بعض الرعاية والحب. وشأن معظم من يعتنون بالآخرين، كانت بحاجة إلى شخص يحميها ويعتني بها من باب التغيير. وقد بدت المكتبة تقريباً أمراً ثانوياً بالنسبة إلى الطريقة التي تقضي بها أميليا أيامها، حيث كانت تظلّ رهن إشارة أمها ونداتها، تخصّص لها كلّ فكرة من أفكارها وكل لحظة من يقظتها.

- أهلاً يا حبيبتي.

قفزت أميليا من مقعدها حيث كانت تقرأ لتقطع الوقت في

المكتبة الخاوية. نظرَت من فوق كتفي إلى آدم، الذي كان يتبعني، واتسعت حدقتاها لمَرآه.

قلت:

- ظننتكَ ستنتظر في السيارة.

ردّ بوجه جامد، وهو يُجيل بصره في المكتبة:

- نسيتِ أن تتركي النافذة مفتوحة لي.

- أميليا، هذا آدم. آدم، هذه أميليا. آدم... عميل عندي.

- أوه!

قالتها أميليا محبطة.

كنت أعرف ما أريد واتّجهت على الفور إلى قسم المساعدة الذاتية. وراح آدم يتجول في أرجاء المكتبة، وقد بدا ذاهلاً، منسحباً، ينظر ولكنه لا يرى حقاً.

همست أميليا:

- إنه آية في الجمال.

فهمستُ:

- إنه عميل.

- إنه آية في الجمال.

ضحكتُ.

- لن يُسر فريد إن سمعك تقولين هذا.

نظرَت إلى أظافرها ورفعَت حاجبيها.

- لقد دعاني إلى الغداء في مطعم «بيرل».

- «بيرل»؟ إنه مطعم فاخر جداً.

أربكني هذا الأمر، ففريد لم يكن من النوع الرومانسي التلقائي. ثم أدركتُ الأمر.

- سيطلب يدك!

لم يعُد بوسع أميليا أن تكتم انفعالها، إذ كان من الواضح أنها تفكر في الأمر نفسه.

- يعني، ربما لا يفعلها، الأرجح أنه لن يفعلها، لكن، تعرفين..

شهقتُ:

- آه، يا إلهي! أنا سعيدة من أجلك.

وعانقتها بحماس.

خبطتني أميليا:

- لم يحدث الأمر بعد. لا تجلبي لي النحس!

- هلا وضعتِ ذلك على حسابي؟

نظرَت أميليا إلى اختياري، وقالت بارتياح:

- أخيراً! هذا رائع يا كريستين!

قطبتُ حاجبيّ:

- إنه ليس لي. ماذا تقصدين؟

- آه، آسفة. لا شيء. لا فقط... لا شيء.

تورّد خداها وغيرَت الموضوع:

- باري اتصل بي ليلة أمس.

اجتاح الخوف جسدي.

- أوه؟

- كان الوقت متأخراً جداً. أظنه كان تحت تأثير بضعة كؤوس.

بدأت أقرض أظافري.

انضم إلينا آدم. كان مثل سمكة القرش، لديه قدرة على

استشعار الدم، كان يعرف بالضبط متى يكون حولي في كلّ مرة يُعتدى فيها على حياتي.

- أنا متأكدة أن ذلك ليس حقيقياً، أو ربما حقيقي، لكن. . لكن ما كان يجدر به أن يخبرني بذلك على أية حال. فأياً كان ما تتكلّمان فيه يجب أن يظل سراً، حتى لو كان عني، لذا فأنا لا ألومك على ما قلتِه عني.

بدت متألمة، ووجهها يناقض كل ما قالته.

- أميليا. ماذا قال لك؟

أخذَت نفساً عميقاً وأفصحَت:

- قال إنك ترينني فاشلة لأنني أعيش مع أمي، وإنني يجب أن أحظى بحياة خاصة بي وأن أنتقل من هنا. إنني يجب أن أضعها في دار رعاية وأنتقل للعيش مع فريد وإلّا لن يفاجئك لو تركني.

أخفيت وجهي بيديَّ:

- آه يا إلهي! أنا آسفة أنه قال لك هذا.

- لا بأس. قلت له إنني أعرف إنه يتألم لكنه مقزّز. آمل ألّا يضايقك ذلك.

- لا، لا بأس، من حقك تماماً أن تقولي ما تريدين.

كان وجهي أحمر وكنت أعرف ذلك، يكشف عن إحساسي بالذنب. لم يكن بوسعي إنكار أنني قد ناقشت هذه الأمور مع باري، لكن كيف يجرؤ على إخبار أميليا! وتساءلت كم مكالمة هاتفية أجراها ليلة أمس وكم حقيقة كشفها للناس الذين أحبّهم، كم شخصاً آلمه لكي يؤلمني.

انتظرَت أميليا أن أنكر.

- اسمعي، أنا لم أقل ذلك بهذه الطريقة بكل تأكيد.

بدا عليها الشعور بالمهانة.

- كل ما في الأمر أنني كنت مشغولة البال عليكِ لأنك تهتمين بالآخرين وليس بنفسك. وأنه سيكون من اللطيف بالنسبة لك ولفريد أن تعيشا معاً، أن تكون لكما حياة مشتركة.

بدأ الغضب يظهر على أميليا:

- لكن الأمور ظلّت هكذا منذ كنت في الثانية عشرة يا كريستين، وأنت تعرفين هذا. لن أشحنها إلى دار رعاية وأذهب أنا لأعيش على هواي.

- أعرف، أعرف، لكنك حتى لم تسافري خارج البلاد... أبداً. لم تأخذي إجازة أبداً. هذا كل ما قلته - بأمانة. كنت قلقة عليك.

قالت وهي ترفع ذقنها:

- لا داعِ للقلق عليَّ. فريد يتعامل مع الأمور بشكلٍ جيد. إنه متفهم.

قاطعنا صوت الجرس المألوف، وعلى الفور استأذنت أميليا لترى أمها. غادرتُ المكتبة والكتاب مدسوس في حقيبتي، مخبأ عن عيني آدم، وأنا أشعر بأنني أسوأ من أيّ وقت مضى.

قال آدم:

- إذاً فهو يتصل بأصدقائك الآن. هذه خطوة ذكية. يومك يزداد جمالاً لحظة بعد لحظة.

رفعتُ ذقني إلى أعلى.

- نعم، لكنك تعرف أنّ المسألة تتوقف على كيفية تعاملك مع الأمور يا آدم. واجهها بإيجابية.

قلّب عينيه:

- عندي مشكلة مع هذا. على سبيل المثال، أعتقد أن صديقتك لا يجب أن تعلق آمالاً كبيرة على الغداء اليوم.

- كنت منصتاً؟

- صوتكما كان عالياً.

- سيأخذها إلى «بيرل».

- ثم؟

- يعني، هذا هو المكان الذي يطلب فيه الرجل يد المرأة.

- وهو أيضاً المكان الذي يتناول فيه الناس غداءهم. لا يجب أن تفرح كثيراً قبل أن يحدث. فقد لا يحدث.

تنهدتُ، وأنا أشعر أن الطاقة تُستنفد مني.

- تعرف، هذا ما نحتاج إلى إصلاحه. أنت تفكر تفكيراً سلبياً. تظل تفكّر في كلّ الأشياء السيئة التي قد تحدث طوال الوقت. وفي النهاية، تبدأ في جعلها تحدث. هل تعرف القانون القائل بأنّ الشيء يجذب شبيهه؟

فكرت في مقابلتي مع زوجة سايمون، وكيف أنني ظللتُ أعيد المشهد مرة بعد مرة في رأسي حتى حدث في نهاية الأمر.

- إذا فكرتَ أن الحياة مقرفة، ستكون الحياة مقرفة.

- مرة أخرى، لا أظن أنّ هذه مصطلحات علاجية علمية.

- اذهب إذاً وقم بزيارة لمعالج حقيقي.

- لا

دخلنا، وصعدنا الدرَج إلى الطابق الأول.

توقفت عند باب مكتبي وجاهدتُ لأضع المفتاح في القفل. حاولت مع مفتاح آخر، ثم آخر، ثم آخر من بين المفاتيح العشرة في سلسلتي.

- ماذا تعملين؟ حارسة في سجن؟
تجاهلته وحاولت مع المفتاح التالي.
- اللعنة. لقد فعلوها ثانية. تعالَ معي.
صعدت الدرج متثاقلة.
كانت شقيقتاي وبابا يجلسون حول طاولة الاجتماعات في مكتبهم عندما دخلنا. كان بابا متأنقاً في بدلة مخطّطة، وقميص وردي، وربطة عنق، ومنديل. كان حذاؤه أسود وملمعاً جيداً، ولم تكن هناك شعرة من رأسه في غير مكانها، وكانت أظافر يديه مشذبة ومصقولة حتى أنها تلمع. كان قصيراً ويبدا أشبه بخياط منه بمحامٍ.
قالت بريندا فور أن رأت آدم، وهي تطرقع أصابعها:
- كنتِ أعرف سبب ذلك، لأنها قابلت رجلاً جديداً. يا إلهي! باري سيموت عندما يراه. كيف ستصمد رأسه الصغيرة الصلعاء أمام هذا؟
كانت تشير إلى شعر آدم الغزير بخصلاته الشقراء.
قلت:
- أهلاً يا أسرتي. هذا آدم - وهو عميل. آدم، هذا بابا، مايكل، والساحرتان هما بريندا وأدريان.
- على اسم ساحرتين كانتا تعيشان هنا.
أوضحَت له أدريان، ثم نظرّت لي وأضافت:
- وكريستين الثالثة - وهكذا فأنتِ واحدة منا، مهما حاولتِ التهرّب.
قالت بريندا، وهي لا تزال تتفحص آدم:
- كان لهن شعر أرجواني وكن يدخنَّ كثيراً.
وأدلى بابا بدلوه:

- ولم يتزوّجن قط.

وقالت أدريان:

- كنّ مثليّات.

اعترضت بريندا:

- لا لم يكنّ مثليّات. أدريان كانت فاسقة. وقد طُلبت يدها خمس مرات.

وسألتُ:

- من الرجل نفسه؟

قال بابا:

- لا، رجال مختلفون. أظنّ أن الثالث قتل شخصاً ما بعدها، لكن...

قطب حاجبيه:

- ربما أخلط بينه وبين شخص آخر.

وأكدت بريندا:

- فاسقة.

وقال بابا:

- لم تتم معهم. كانت عروض الزواج مختلفة في تلك الأيام.

وأصرت أدريان:

- مثليّة.

انتظرتُ أن ينتهوا. كانوا يلعبون لعبة «فاسقة أم مثليّة» طوال الوقت مع مختلف النساء.

قال بابا لأدريان:

- تظنين أن الجميع مثليّات لأنك كذلك.

- أنا مزدوجة الميول الجنسية يا بابا.

قال:

- كان لديك خمس عشيقات وعشيق واحد. الرجل كان تجربة. أنت مثليّة. وكلما أدركتِ ذلك أسرع، كلما استطعتِ الاستقرار وتكوين أسرة طبيعية.

سألت بريندا آدم، وهي تسحب كرسياً:

- كيف تعرَّفتَ على كريستين إذاً؟ تفضل بالجلوس.

نظر آدم إليّ، فهززتُ كتفيّ بتعب، وجلس.

قام بتقييم سريع لأسرتي ثم قال:

- لقد منعتني من القفز من فوق جسر هايبني ليلة أمس.

تجنت عليّ أدريان:

- هكذا هي دائماً، هادمة للذات.

شرحت لها:

- لم يكن يقفز من أجل المتعة.

نظروا إليه جميعاً.

تململ قليلاً، غير واثق ماذا يفعل بنظراتهم المحدقة لدى افتضاح أمره. أنا متأكدة أنه كان يتساءل إنْ كان التوقيت ليس مناسباً، إن كان عليه أن يذكر الأمر من الأساس. لكن أسرتي كانت ماهرة في هذه الأمور: يجتذبونك ويجعلونك تشعر بأنّ الأمور المهمة ليست مهمة على الإطلاق. كانوا هم مَن يحدِّدون المهم.

قلَّصَت أدريان وجهها.

- لكن، جسر هايبني؟ إنه ليس عالياً بما يكفي أصلاً.

وسألتها بريندا:

- عمَّ تتكلمين؟

- الارتفاع منخفض جداً. ماذا، ثمانية عشر قدماً فوق الماء؟

قالت بريندا:

- لم يكن يحاول الانتحار بإلقاء نفسه في هاوية يا أدريان. أظنه كان يحاول إغراق نفسه. أليس كذلك؟

نظروا إليه جميعاً.

لم يعرف كيف يجيب، كانت دهشته عظيمة. كنت أنا معتادة على مختلف ردود الأفعال عندما أصطحب ضيوفاً إلى البيت. بعض أصدقائي لم يكونوا قادرين على مجاراتهم؛ وآخرون كانوا يقفزون في الماء على الفور ويلحقون بهم؛ وآخرون، مثل آدم، كانوا يكتفون بملاحظة الإيقاع غير المعتاد لكلامهم ومزاحهم، من دون شعور بالإهانة، إذ كان من الواضح أنهم لا يقصدون أية إهانة.

تحدثت بريندا بصوت أعلى قليلاً:

- قلتُ إنني أظنك كنت تحاول إغراق نفسك؟

وقاطعتها أدريان:

- ليس لديه ماء في أذنيه يا بريندا. لقد أنقذَته. هل تتذكرين؟

ضحكت ضحكة مكتومة. ونظر آدم إليَّ مندهشاً.

حركتُ شفتي بكلمة آسفة، وهزّ هو رأسه وقد ارتسمت الحيرة على وجهه، وكأنما لا حاجة بي للاعتذار.

قال بابا، وهو يرفع إبهامه لي مستحسناً:

- خيراً فعلتِ يا كريستين. خيراً فعلتِ.

- شكراً.

- لا بدّ وأن هذا خفّف من شعورِك بشأن الذي قبله، صحيح؟

نظر آدم إليَّ بتعبير قلِق ورغبة في مساندتي.

وسألَت أدريان:

- لكن نهر «اليفي» ليس بذلك العمق، صحيح؟

وشرحَت بريندا:
- يا أدريان، يمكن للمرء أن يغرق بوجهه في بركة من الوحل إذا غرس فيها، أو إذا كسر ظهره أو ما شابه.
نظرَت أدريان إلى آدم.
- هل انكسر ظهرك؟
- لا.
ضيقّت عينيها:
- هل تستطيع السباحة؟
- نعم.
- إذاً فأنا لا أفهم. الأمر أشبه بأن تأكل بريندا آيس كريم طوال اليوم لكي تصبح نحيفة.
ثم استدارت إلى بريندا وقد راودتها الفكرة:
- وهو ما تحاولين عمله فعلاً.
سأل بابا:
- أندرو، هل تريد مشاهدة إعلاني؟
قلت:
- اسمه آدم، وهو لا يريد.
نظر بابا إليه:
- أنا متأكد أنه يستطيع الكلام بنفسه.
- نعم، طبعاً، لم لا!
قام بابا عن الطاولة ودخل مكتبه.
وشرحَت بريندا:
- بابا يطارد سيارات الإسعاف.
وأوضحتُ أنا:

- إنه متخصِّص في قانون الأضرار الشخصية، ويجني من المال بقدر ما تجني هاتان الاثنتان معاً.

قالت بريندا:

- وينفقه على العناية بقدميه.

- وعلى نزع الشعر من مؤخرته.

أكملَت لها أدريان، فضحكتا معاً فيما يشبه الوقوقة.

صاح بابا، وهو يعود من مكتبه حاملاً شريط فيديو في يده:

- سمعتُ هذا، وأنا لم أفعلها سوى مرة واحدة. كنت في الهند في الحرّ الشديد وأحدثَ ذلك فارقاً عظيماً.

هكذا شرح بهدوء، وجفلنا جميعاً عندما تخيَّلنا الصورة. تابع:

- هل آذيتَ نفسك على الجسر يا أندرو؟

ردّ بأدب:

- آدم. و، لا.

- لم تزرقّ أظافرك ولا التوَتْ رقبتك ولا شيء من هذا؟

- لا

بدا الإحباط على بابا:

- أياً كان. الآن، أين يمكننا مشاهدة هذا؟

- التلفزيون عندنا لا يشغِّل الأشرطة. هذه تكنولوجيا ما قبل التاريخ.

ثانية، بدا عليه الإحباط.

- تعرف، هذا الإعلان كان سابقاً لعصره. صوَّرتُه قبل عشرين عاماً. لم تكن أيرلندا جاهزة له. لكنك الآن ترى أولئك الرجال على التلفزيون طوال الوقت. خاصة في أميركا. إذا حدث وقطعت إصبع قدمك الكبير بالقصافة يستطيعون أن يحصلوا لك على تعويض.

هز رأسه في إعجاب.

- هل لديك جهاز فيديو؟ يمكنك الذهاب إلى البيت وإحضاره.

أوضحت له:

- إنه يعيش في تيبيراري.

- ولماذا جئت إلى هنا؟

- بابا، ألا تسمع؟

وأوضحَت أدريان:

- لقد حاول القفز من فوق جسر هايني.

- لكن هناك جسور رائعة في تيبيراري. هناك ذلك الجسر القديم في بلدة «كيريك أون سوير»، وجسر «مدام» في فيلرد، هذا جسر جميل، وهناك الجسر ثلاثي القناطر، ذلك المخصّص للسكة الحديد فوق نهر «سوير»ـــ

قاطعته:

- طيب. شكراً.

- إذاً يا آدم...

أراحت بريندا ذقنها على يدها وحدّقت فيه، مهيّأة للنميمة:

- هل قالت لك كريستين إنها هجرت زوجها؟

- نعم.

- وما رأيك في هذا؟

قال، وكأنني لست واقفة إلى جواره مباشرة:

- رأيي أن ذلك كان قسوة قلب منها. لا يبدو لي أنه ارتكب اي خطأ.

قالت بريندا:

- لم يرتكب خطأ، أنا أوافقك.

- إنه متخصّص في قانون الأضرار الشخصية، ويجني من المال بقدر ما تجني هاتان الاثنتان معاً.

قالت بريندا:

- وينفقه على العناية بقدميه.

- وعلى نزع الشعر من مؤخرته.

أكملَت لها أدريان، فضحكتا معاً فيما يشبه الوقوقة.

صاح بابا، وهو يعود من مكتبه حاملاً شريط فيديو في يده:

- سمعتُ هذا، وأنا لم أفعلها سوى مرة واحدة. كنت في الهند في الحرّ الشديد وأحدثَ ذلك فارقاً عظيماً.

هكذا شرح بهدوء، وجفلنا جميعاً عندما تخيّلنا الصورة. تابع:

- هل آذيتَ نفسك على الجسر يا أندرو؟

ردّ بأدب:

- آدم. و، لا

- لم تزرقّ أظافرك ولا التوَتْ رقبتك ولا شيء من هذا؟

- لا.

بدا الإحباط على بابا:

- أياً كان. الآن، أين يمكننا مشاهدة هذا؟

- التلفزيون عندنا لا يشغّل الأشرطة. هذه تكنولوجيا ما قبل التاريخ.

ثانية، بدا عليه الإحباط.

- تعرف، هذا الإعلان كان سابقاً لعصره. صوّرتُه قبل عشرين عاماً. لم تكن أيرلندا جاهزة له. لكنك الآن ترى أولئك الرجال على التلفزيون طوال الوقت. خاصة في أميركا. إذا حدث وقطعت إصبع قدمك الكبير بالقصافة يستطيعون أن يحصلوا لك على تعويض.

هز رأسه في إعجاب.

- هل لديك جهاز فيديو؟ يمكنك الذهاب إلى البيت وإحضاره.

أوضحت له:

- إنه يعيش في تيبيراري.

- ولماذا جئت إلى هنا؟

- بابا، ألا تسمع؟

وأوضحَت أدريان:

- لقد حاول القفز من فوق جسر هايني.

- لكن هناك جسور رائعة في تيبيراري. هناك ذلك الجسر القديم في بلدة «كيريك أون سوير»، وجسر «مدام» في فيلرد، هذا جسر جميل، وهناك الجسر ثلاثي القناطر، ذلك المخصّص للسكة الحديد فوق نهر «سوير»ـــ

قاطعته:

- طيب. شكراً.

- إذاً يا آدم...

أراحت بريندا ذقنها على يدها وحدّقت فيه، مهيّأة للنميمة:

- هل قالت لك كريستين إنها هجرت زوجها؟

- نعم.

- وما رأيك في هذا؟

قال، وكأنني لست واقفة إلى جواره مباشرة:

- رأيي أن ذلك كان قسوة قلب منها. لا يبدو لي أنه ارتكب اي خطأ.

قالت بريندا:

- لم يرتكب خطأ، أنا أوافقك.

قال بابا:
- كان مملاً، مع ذلك.
قالت أدريان:
- السماجة ليست إثماً يستوجب الطلاق. لو كانت الحالة هكذا، لما ظلّت بريندا مع براين دقيقة واحدة.
وأقرت بريندا:
- صحيح.
دافع بابا عن زوج ابنته:
- براين ليس سمجاً. إنه غير متحقق. إنه كسول. وهذا أمر مختلف.
وقالت بريندا:
- وهذا أيضاً صحيح.
قلت:
- يجب أن نذهب. لا أريد أن أعرف مَن الذي غيَّر القفل، أريد مفتاح القفل الجديد فقط.
نظرت بريندا وأدريان إلى بابا. فشرع في الضحك:
- آسف، لم أستطِع أن أمنع نفسي. إنها تأخذ الأمر على محمل سيئ جداً، إنه أمر مضحك. سأحضِر لك المفتاح.
نهض وتوجّه عائداً إلى مكتبه وفي يده شريط الفيديو.
سألتُ:
- إذاً، أفهم من ذلك أنّ جيما لم تأتِ إلى هنا طلباً للمفتاح.
كانت عادة ما تأتي قبلي أنا وبيتر وبول في الصباح ولم أكُن مستعدة لمواجهة يوم آخر من دونها، ليس بعد الفوضى التي عمّت المكتب الأسبوع الماضي.

- سمعنا أنك طردتها بأن أسقطتِ كتاب كيف تطرد شخصاً ما على إصبع قدمها. هذا ليس لطيفاً جداً يا كريستين.

نظر آدم إليّ، وقد بدا الانزعاج على وجهه.

- كانت حادثة. هل أخبرَتكم بذلك؟

- كانت هنا يوم الجمعة تبحث عن وظيفة.

- قولوا لي إنكم لم تعطوها وظيفة!

- ربما نعطيها.

- لا يمكن، إنها موظفتي.

ردّت أدريان، وعلى شفتيها ابتسامة متسلّية:

- أنت لا تريدينها، ولكنك لا تريدين أن يحصل شخص آخر عليها. أنت ربة عمل متعسّفة. سوف أوظّفها بكلّ تأكيد.

كانوا يحبون إغاظتي. كانوا جميعاً متشابهين. طالما كان مزاحهم متفرّداً وخاصاً بهم. أفهمه لكنه لم يمتّعني أبداً. وكان ذلك يُطربهم أكثر فأكثر، ما يجعلهم يتمادون في سلوكهم. كان الأمر وكأنّ لديهم نادياً سرياً يبذلون قصارى جهدهم لكي لا يظلّ سرياً، على أمل أن يضموني إليه. لكنه كان مستحيلاً عليّ. كنت مختلفة جداً. النعجة السوداء تشبيه لا يفي بالغرض؛ كنت من نوع مختلف تماماً.

- جيما استبَقَت فصلي لها. كنت أفكر في الأمر فقط. ربما أضطر إلى تخفيض بعض النفقات. الشقة تكلّفني كثيراً.

صِحت بالعبارة الأخيرة في بابا وهو يدلّي المفتاح، واختطفته من يده.

قال:

- أنا لم أتلقَّ منحة من أحد طيلة حياتي. عليكن جميعاً تدبّر نفقاتكن.

بدأت أفقد أعصابي.

- هناك شيء اسمه مدُّ يد العون.

قال:

- طيب، عودي إلى زوجك. هناك أمور أسوأ من الزواج بشخص سمج. انظري إلى بريندا. هؤلاء الأطفال هم أفضل إعلان رأيته في حياتي عن اللاصق الذي يبقى معك طوال حياتك.

عرضَت بريندا:

- ابقِ معي. بإمكاننا دائماً الاستفادة من الدماء الجديدة.

- لا، لا أريد.

- لماذا؟

اعترفتُ:

- سوف تثيرين أعصابي. كما أنّ براين، تعرفين، يحوم دائماً.

شرعَت أدريان وبابا في الضحك. وبدا آدم مستمتعاً حتى وهو ليس لديه فكرة عن براين.

قرقرت أدريان:

- هذا صحيح، هو يحوم فعلاً. لم يسبق لي وأن لاحظت ذلك.

- إنه دائماً هكذا ـــ

ألقى بابا نظرة من فوق كتف أدريان وصنع تعبيراً بوجهه، فضحكتا، وضحك آدم أيضاً.

وأبدت بريندا موافقتها مرة أخرى:

- هذا صحيح.

قلت:

- كل ما أقوله هو أنني سأكون ممتنّة إذا خفّف عني مالك العقار قليلاً.

قال بابا، وهو يتخلى عن وضعية التحويم ويعود إلى جلسته:

- عندي أقساط أدفعها.

- لقد دُفع ثمن هذا المبنى مئة مرة، وهذه الشقة ظلّت خاوية لزمن طويل قبل أن أسكنها. والمكان تنبعث منه رائحة رطوبة، والمرحاض لا يصرّف المياه جيداً، وليس هناك أيّ أثاث يمكن الحديث عنه، أي أنك بوجوديَ لم تخسر فرصة الحصول على مستأجر.

- عفواً. لقد أثثته لك.

قلتُ مبالغة:

- أن تضع ملعقة شاي في الدُرج لا يعني أنك أثثت شقة.

- الشحاذون لا يتأمرون.

- أنا لست شحاذة، أنا ابنتك.

- وهذا أيضاً شيء ليس لك خيار فيه.

- هذا لا يعني أي شيء يا بابا.

رماني بنظرة تعني أنّ ذلك يعني شيئاً وأن عليّ أن أتبينه.

وسألَت بريندا آدم:

- ماذا تفعلان معاً إذاً؟ هل ستضعك في وظيفة جديدة وترسلك في طريقك؟

بدا على آدم قدر من الاستمتاع بكلّ هذا؛ ظهرت في عينيه لمعة من النور.

- عليها أن تقنعني بأن أحبّ حياتي قبل عيد ميلادي الخامس والثلاثين.

صمتوا جميعاً. لم يكونوا بحاجة إلى السؤال عمّا سيحدث إذا لم يحب حياته قبل هذا الموعد النهائي؛ كان الأمر مفهوماً.

سألَت أدريان:

- ومتى سيحلّ؟

قلت:

- بعد أسبوعين.

وصحّح لي آدم:

- اثنا عشر يوماً.

وسألَت بريندا:

- هل ستقيمون حفلة؟

قال آدم وقد حيّره المسار الذي اتخذوه:

- نعم.

وسألَت أدريان:

- هل يمكننا أن نحضر؟

قال بابا:

- يجب أن تشتري كعكة من تلك الكعكات التي تبدو مثل كعكة لكنها في الحقيقة عبارة عن جبن. طبقات من الجبن الكبير بالشكل الدائري، بعضها فوق بعض. إنها رائعة جداً.

- بابا، أنت مهووس بكمكات الجبن.

- أراها رائعة.

قالت بريندا، وهي تحدق في آدم:

- تبدو حزيناً.

وقالت أدريان:

- لأنه حزين.

قالت بريندا:

- لا أعرف إن كانت كريستين هي الشخص المناسب لك. شركة «جيه جيه للتوظيف» عظيمة.

وعرضَت أدريان:

- أعرف معالجاً ممتازاً. وكريستين ليست كذلك.

أكَّدَت على العبارة الأخيرة. فقال لها بابا:

- إذا كان ذلك هو الرجل الذي تواعدينه، فلن أنصح به.

سألتُ:

- انتظري، هل تشككين في مهاراتي؟ التوظيف لا يقتصر على العثور على وظيفة. أنا أساعد الناس طوال الوقت. أكتشف ما يبحث عنه الناس، ثم آخذهم من نقطة في حياتهم وأنقلهم إلى نقطة أخرى.

هكذا حاولت أن أروِّج نفسي عند آدم، من دون أن أنظر إليه.

قالت بريندا:

- مثل سائق التاكسي.

- لا مثل...

حاولت ألّا أظهر إحباطي لأنني كنت أعرف أنهم يحاولون إثارة جنوني فحسب.

قالت بريندا:

- لا أحد يشكّك في مهاراتك.

وأوضحت أدريان:

- تقصد لأنك حزينة أنت أيضاً.

قال بابا وهو ينهض:

- طيب، قد يُسعد كلّ منهما الآخر. رُفعت الجلسة، هيا إلى العمل. حظاً سعيداً يا مارتن، وفكر في هذه الكعكات المصنوعة من الجبن. رائعة جداً.

ابتسم لآدم ابتسامة بيضاء كاللؤلؤ ومضى في طريقه عائداً إلى مكتبه. ثم انبعثت من الراديو تردّدات موجة الشرطة.

- إنه أجمل منظر جئتِ به إلى البيت.

قالتها بريندا بصوت خفيض فيما كان آدم يغادر المكتب قبلي، وهو يهز رأسه، غير واثق ممّا شهده.

همستُ:

- بريندا، ليلة السبت حاول الانتحار.

- ولو. على الأقل كانت لديه حياة يقتلها. باري لم يكن لديه ولو نبضة واحدة في أفضل أيامه.

تبعتُ آدم نزولاً على الدرَج.

صرخت بريندا من أعلى السلم:

- آه، بالمناسبة. باري اتصل بي في وقت متأخر ليلة أمس ليخبرني أنك تتبولين في حوض الاستحمام!

تجمدتُ أنا وآدم عند قمة الدرج. أدار وجهه تجاهي ببطء. أغمضتُ عيني وسحبت نفساً عميقاً. ثم نزلت السلم وتجاوزته، وأنا أقول بصوت عالٍ:

- لا أريد الكلام في هذا الموضوع أيضاً.

سمعته يطلق ضحكة صغيرة. هذا الصوت المحبّب الذي لم أسمعه كثيراً.

عندما دخلنا إلى مكتبي، كانت جيما قد تركت لي رسالة على

المكتب. كانت قد أخذت واحداً من كتبي من على الرفّ: **كيف تعتذر بإخلاص عندما تدرك أنك تسببت في إيذاء شخص ما** فهمتُ أنّ جيما تنصحني بقراءة الكتاب بدلاً من أن تقترح عليّ الاعتذار بنفسها.

مع تقدّم النهار، تدفّق سيلٌ من المكالمات الهاتفية، والرسائل النصية، والبريد الصوتي من أصدقاء ومعارف كلّمهم باري أو تَواصل معهم في الليلة السابقة. أدركتُ ساعتها أنه ربما عليّ أن أبدأ قراءة الكتاب. إذ بدا أنه سيكون عليّ تقديم بضعة اعتذارات.

9

كيف تستمتع بحياتك بثلاثين طريقة بسيطة

أول ما كان يجب أن أفعله قبل الجلوس مع آدم هو إلغاء كلّ مواعيدي على مدار الأسبوعين التاليين. ومع عدم وجود جيما لمساعدتي في الأمور اللوجستية، كان عليّ أن أحوّل عملي واجتماعاتي إلى زميليّ بيتر وبول، اللذين كانا قد توقّفا عن الكلام معي بالفعل بعد الفصل المتعسّف لجيما. جلستُ على مكتب جيما وبدأت. إلغاء موعد أوسكار استغرق أطول وقت إذ هاتفته بعد أن كان قد ترك للتو ثالث حافلة تمرّ من أمامه من دون أن يصعد إليها. كان عليّ أن أتحدث إليه وأقنعه من البداية بضرورة الصعود إلى الحافلة، والجلوس وممارسة تقنيات التنفّس، ثم أن أخبره بقصّة تشتت انتباهه، وأخيراً كان عليّ أن أعطيه رقم هاتفي المحمول لأنه اغتمّ عندما عرف أنني سأكون خارج المكتب الأسبوعين القادمين. لكن بعد أن انتهيت، أصبح بإمكاني أن أودّع رجلاً منتعشاً يشعر أنه قادر على امتلاك العالم بعد أن ينجح في قطع ثلاث محطات حافلات. كانت مهمّته التالية أن يمشي إلى البيت، وهو ما سيفعله بكلّ حيوية ونشاط. وفور أن أغلقت الخط، صرخ آدم فيّ من مكتبي.

- اثنتان وأربعون نصيحة لكي تفكر أفكاراً إيجابية عندما تضلّ السبيل.

عنوان آخر لأحد كتب مجموعتي.

- خمس وثلاثون طريقة للتفكير الإيجابي...

شخر هازئاً، ثم تابع:

- هذه الأرقام مدهشة. لماذا كلّ هذا التحديد؟ لماذا اثنتان وأربعون وليس أربعون؟ لماذا لا تقربين أفكارك الإيجابية إلى أقرب عشرة؟

سار بحذاء الرف، وضحك وهو يقول:

- خمس طرق لإبداء الحب. خمس طرق للاحتفاظ بطاقتك. عشر طرق للاحتفاظ بطاقتك...

ضحك قائلاً:

- طيب، أظنني فهمت كيف تقومين بذلك. تصنّفينها بترتيب الأرقام، صح؟ هل تقولين لنفسك: «اليوم في بالي أن أقطع طريقاً طويلاً للاحتفاظ بطاقتي»، أو «أشعر اليوم بأنني متعبة جداً وسوف آخذ الوصلة المختصرة إلى الاحتفاظ بطاقتي؟». طبعاً ستختارين دائما الطرق الخمس للاحتفاظ بطاقتك، إذ إنّ قراءة عشر طرق عندما يكون بإمكانك قراءة خمس فقط سيكون إهداراً للطاقة، أليس كذلك؟ هل تظنين أن الشخص الذي كتب الطرق الخمس لديه طاقة أكثر بكثير أم أقل بكثير من الشخص الذي كتب الطرق العشر؟ لأنّ لديه طرائق أكثر، لكنه كتب كتاباً أقصر، وهو على الأرجح أمرٌ أقل إرهاقاً. يجب أن يتقابلا؛ ربما هذا الشخص يستطيع أن يكتب كتاباً اسمه «كيف تنصح الناس بكيفية كتابة كتب كيف تـ...». ست

طرق، اثنتا عشرة طريقة، تسع وثلاثون طريقة، ست وستون طريقة - نعم، لدينا فائز!

رفع كتاباً في الهواء:

- ست وستون طريقة لحلّ مشكلاتك المالية. ست وستون؟ أنا لا أعرف إلا طريقة واحدة: اذهب للعمل!

قالها للكتاب، وتابع التصفّح.

- بعض الناس لا يستطيعون العمل.

- بالطبع. القلق هو ألم الظهر في العصر الحديث.

- أنت لست في عملك. الحقيقة أنني أتساءل أين يظنونك ذهبت؟

تجاهلني وقال:

- هل هذا يشبه العلاج الذي يصفه المرء لنفسه. تقولين «أحتاج إلى ست طرق لفقدان الوزن»، أو «هذا الأسبوع أحتاج إلى إحدى وعشرين طريقة». هذا الأسبوع أنا من النوع المناسب لـ«تسع طرق لصعود السلم».

- هذا ليس كتاباً.

- لا، ولكن يمكنه أن يكون كذلك. عليك كتابته. أحبّ أن أعرف تسع طرق لصعود طابق من الدرَج. المؤكد أنّ الطريقة الأوضح ليست هي الطريقة التي في ذهن هؤلاء الناس.

بالطبع كان طموحي أن أكتب كتاباً، لكنني لم أكن لأشارك ذلك معه، ليس وهذا رأيه في كتب المساعدة الذاتية. مع ذلك كنت أعتقد أنّ الأمر وشيك. الأسبوع الماضي فحسب فكرت أن أسحب «كيف تكتب كتاباً ناجحاً» من صناديق الكتب المغلقة التي تحتوي على حياتي في الشقة بالطابق السفلي. لم يكن باري يدعمني كثيراً في

حلمي هذا - لا أقول إن ذلك يبرر انصرافي عمّا أريد أن أفعله. ليس لديّ مشكلة في الاعتراف بأنني في الماضي كنت أتحجّج بعدم دعمه كذريعة لأنني كنت خائفة من الفعل، لكن الأمور صارت مختلفة الآن، ولقد وعدت نفسي أن أحاول.

كانت هناك تيمات كثيرة تدور في رأسي، لكن العنوان الذي يتردد كان «كيف تعثر على وظيفة الأحلام». حتى الآن وجدت ثلاث عشرة تنويعة مطبوعة حول العنوان نفسه وقرأت أربعاً منها وما زلت أشعر أنّ لدي ما أضيفه. فالكتب التي قرأتها بدت لي وأنها تركز على خطط الثراء السريع، في حين أنني أشعر بأن الهدف النهائي يجب أن يكون السعادة الشخصية. بريندا قالت لي إن السعادة الشخصية لا تبيع، وأنني يجب أن أتحدث في الكتاب عن الجنس في المكتب، أو على الأقل أخصّص فصلاً له؛ مرة أخرى، يُثبت تدخُّل أحد أفراد أسرتي في طموحاتي الشخصية أنه عديم المنفعة على الإطلاق.

في هذه الأثناء كان آدم لا يزال يواصل التعبير عن مشاعره تجاه مجموعة كتب المساعدة الذاتية.

- هل هناك خزانة سرية بها شحنة من الكتب من أجلي؟ ربما «مئة طريقة لتجنّب الانتحار»؟

وإذ ظنّ نفسه حاذقاً، ارتمى في الكرسي ذي الذراعين، والذي تصادف وكان مقعدي. أدركت أنه استغرق وقتاً طويلاً لكي يصل إلى هناك، فلم أعترض. جلست في الكرسي الذي يجلس عليه عملائي عادة. لم أكن معتادة على هذه الزاوية من الحجرة وسرعان ما شعرت بالتبرُّم.

قلت، لأبدأ الجلسة:

- تعرف أنك لم تذهب بعيداً؟ لن أعطيك مئة طريقة لكي تتجنب الانتحار، لكننا سنصل معاً إلى خطة لمواجهة الأزمات.

- خطة لماذا؟

تناولت كتاباً عن الرفّ خلفي: كيف تتعايش مع الأفكار الانتحارية. فتحته على الصفحة المطلوبة. كنت قد قرأت هذا الكتاب من الغلاف إلى الغلاف في ليالي الأرق التي أعقبت تجربة سايمون كونواي.

- إنه بالأساس قائمة من التعليمات التي عليك اتّباعها إذا راودتك أفكار انتحارية - تلك التي اعترفتَ أنها تراودك كثيراً. وحيث أنك حاولت تنفيذ هذه الأفكار مرة، فربما تريد أن تكرّرها.

- قلت لك، سوف أكررها إذا لم يتغير شيء.

قلت بحزم:

- وحتى موعد عيد ميلادك، أنت ملكي. بيننا اتفاق. على مدار الأيام الاثني عشر القادمة سأبذل كلّ ما بوسعي لكي أنفذ نصيبي من الاتفاق. وعليك أن تلتزم بنصيبك. أن تظل على قيد الحياة. هذه هي وظيفتك. اتبَعْ الخطوات وسوف تبقى على قيد الحياة، بل وربما تبدأ في الاقتراب من العثور على نفسك ثانية. بهذه الطريقة سأساعدك على استعادة ماريا.

- جيد.

- طيب. سنصل إلى الخطة بعد لحظات، وسنحتاج إلى بعض الوقت لصياغتها. في البداية أريد أن نتكلم. أريد الوصول إلى فهم حقيقي لموقعك في الحياة، وكيف تشعر.

تركتُ صمتاً. نظر يساراً، ثم يميناً، بحثاً عن كاميرا خفية.

- اشعر بأنني... ميال للانتحار.

كنت أعرف أنه يمزح، لكنني لم أضحك.

- فقط لكي تعرف. ميال للانتحار ليس شعوراً. إنها حالة وجودية. الحزن شعور. الوحدة شعور، الغضب شعور. الإحباط شعور. الغيرة شعور. الميل للانتحار ليس شعوراً. يمكن أن تراودك أفكار انتحارية، لكن الفكرة ليست أكثر من ذلك: مجرد فكرة. أفكارنا تتغير دائماً، لأننا نحن مَن نضعها هناك. بمجرد أن تستوعب الفارق بين الأفكار الانتحارية ومشاعرك، ستبدأ في إدراك عواطفك. تستطيع أن تعزل أفكارك الانتحارية عن مشاعرك. لن تفكر: اليوم أريد أن أقتل نفسي، بل ستفكر، اليوم أشعر بالغضب لأنّ أختي هربت من البلاد وتركتني أدير الشركة. ثم ستتعامل مع غضبك. اليوم أشعر بأنني منسحقٌ تحت وطأة مسؤوليات وظيفتي - ثم ستتعامل مع الإحساس بالانسحاق. أستطيع أن أساعدك على تعلّم كيف تصل إلى أعماق أفكارك الانتحارية، كيف تتحدى هذه الأفكار وتستعيد السيطرة. إذاً، يا آدم، كيف تشعر؟

بدا عليه الانزعاج. تلوّى في كرسيه وجالَ ببصره في الغرفة. أخيراً استراحت نظرته في مكان ما خارج النافذة واسترخى قليلاً. وبعد التفكير بضع مرات في الأمر، قال:

- أشعر بأنني... أتميّز غيظاً.

- جيد. لماذا؟

- لأن فتاتي تنام مع أعزّ أصدقائي.

لم يكن ذلك ما تطلّعت إليه بالضبط، لكنني أومأت له برأسي لكي يُكمل.

- أشعر بأنني... أبله شديد البَلَه، لأنني لم أكن أعرف هذه الحقيقة.

مالَ إلى الأمام، ومرفقاه على فخذيه، مدركاً أنه سيقول ما سيقول. فَرك وجهه ثم عاد واعتدل في جلسته.

- لكنني أشعر أنني أتفهم لماذا فعلَت ذلك. ما قلتِه صباح اليوم، عن كوني منعزلاً. إنها محقّة. لقد رفعت عينيَّ عن الكرة، لقد تسببَت كلّ الأمور الأخرى في تشتيت انتباهي، واستحوذَت علي. لم أكن في وضع طيب. لكنني أستطيع أن أقول لها إنني تغيّرت، وآمل أن تغيّر رأيها.

- متى ستقول لها إنك تغيرت؟

- لا أعرف، اليوم؟

- إذاً، فأنت تغيرت بين ليلة وضحاها. كل شعورك بالانسحاق تحت وطأة العمل، بأنّ أختك تخلّت عنك، كلّ تلك المرارة والغضب لأنك اضطررت إلى التضحية بوظيفتك وبحياتك التي تحبها من أجل تحقيق واجب عائلي، كل ذلك الإحباط من حياتك، من كيانك كشخص، كل المشاعر المتصارعة عن مرض والدك الأخير، الشعور بأنه لم تعُد لديك الرغبة في الحياة. . . كلّ هذه المشاعر قد اختفت فجأة؟

نظر إلى الأرض، صرَّ على أسنانه وهو يدوّر كلامي في رأسه.

- لا، لكنها سوف تتغير. سوف تساعديني. لقد وعدتِ.

- مساعدتي تبدأ هنا، في هذه الغرفة. لن تتغير الأمور ما لم تغيرها أنت. فتكلم معي إذاً.

تكلمنا لساعتين. وعندما بدا على آدم الاستنزاف، وبدأت رأسي تنبض بكلّ المسؤوليات التي ألقاها على كتفيّ، قررت أن آخذ استراحة. عرفتُ المشاكل، والآن جاء الوقت للتوصل إلى رؤية ما، لكي أُظهر له بهجة الحياة. كان هذا هو الجزء الذي يوتّرني. لم أكن

جيّدة في هذ الأمور. لم أكن واثقة ماذا أفعل أو إلى أين أصطحبُه. خاصة وأني لا أشعر في تلك اللحظة بأدنى رغبة في الانطلاق أو الاحتفال.

سألني:

- ماذا الآن؟

كان يبدو عليه التعب.

- ممم، انتظر لحظة.

خرجت من المكتب؛ في هذه الأثناء كان بيتر وبول قد وصلا لكنهما لا يزالان يرفضان الاعتراف بوجودي. لم أهتم بأمرهما إذ كانت في عقلي أمور أخرى. تناولت الكتاب الجديد الذي اشتريته من أميليا، ثلاثون طريقة بسيطة للاستمتاع بالحياة، ذلك الكتاب الذي ظنَّت أميليا أنني أشتريه لنفسي، وأتذكر ملاحظتها: «أخيراً!». هل كنت مملّة إلى هذا الحدّ؟ لقد حاولت أن أحتفظ بمشكلاتي لنفسي، ولم أناقش أحزاني مع أيّ من كان. وكنت أظنني أخفيها بمهارة شديدة.

تصفحت الصفحات الأولى:

1- استمتع بطعامك، لا تكتفي بالأكل. تذوق الطعام واستمتع بغناه.

طعام - حقاً؟ ولكن ماذا كنت لأفعل معه غير ذلك؟ أعدت الكتاب إلى حقيبتي.

- هيا، لنذهب.

- إلى أين؟

قلت بمرح:

- سنأكل.

لم أكن واثقة من عودة جيما، ولكن تحسّباً للاحتمال الضعيف، وبطريقة موحية، وضعت نسخة من كيف تشارك مشكلاتك المالية مع الناس اللذين يعتمدون عليك على مكتبها، على أمل أن تفهم.

المكان المخصّص للصنف رقم 1 على قائمتنا كان مطعم الخليج في كلونتارف الذي يطل على خليج دبلن.

سألني آدم، وذقنه تستند إلى يده وكأن راسه أثقل من أن تحملها رقبته:

- إذاً، الأكل ممتع؟ كنت أظنّه شيئاً ضرورياً للحياة.

راح يقرأ القائمة بفتور، بينما جلت أنا ببصري في المقهى المزدحم. كان المكان يعجّ بالناس، وكانت الحوارات صاخبة، والأطباق مكوّمة في كومات عالية تحمل طعاماً طازجاً ومتعدد الألوان، والروائح التي تفوح في أرجاء القاعة لا بد وأنها جعلت لعاب الجميع يسيل، مع أنها قلبت معدتي.

- نعم، بالطبع.

قلتها كاذبة. كلّ ما كنت أريده بحق هو أن أتناول سلطة خضراء وكفى، لكن كان عليّ أن أضرب مثلاً جيداً لآدم.

- سآخذ ساق الضأن المسبك، مع الخضروات الجذرية، وحمص بالهريسة وعشبة الكينوا من فضلك.

أجبرت نفسي على الابتسام للنادلة بينما كنت أرتاع من داخلي لمجرد التفكير في تناول كلّ هذا الطعام.

قال آدم، وهو يغلق القائمة:

- سآخذ قهوة سوداء فقط، شكراً.

- لا، لا!

هززت إصبعاً في مواجهته، وفتحت القائمة وأعدتها له.

- طعام. متعة. كُل.

بدا آدم ضائعاً بينما راحت عيناه المتعبتان تقفزان من موضع إلى آخر في القائمة.

سألتُ النادلة:

- ماذا تقترحين؟

- تعجبني كثيراً شرائح السالمون المملحة في الفرن فوق طبقة من ريتيتوي الخضروات المتوسطية مع البطاطس المهروسة بالكريمة.

بدا آدم وكأنه على وشك التقيؤ في فمه.

- سيحبّ هذا، شكراً.

سألَت:

- لا مقبلات؟

قلنا بصوت واحد:

- لا

سألتُ:

- إذاً، متى فقدت شهيتك؟

- لا أعرف، قبل شهرين. متى فقدتِ أنتِ شهيتك؟

- لم أفقدها.

رفع حاجبه.

قلت، وأنا أحاول استعادة اليد العليا وإبقاءه هو تحت بؤرة الضوء:

- الكحول والكافيين ليسا فكرة جيدة بالنسبة إلى شخص مكتئب.

- وماذا تناولتِ على الإفطار صباح اليوم؟

فكرت في قهوتي السوداء في الفندق.

- نعم، لكنني لست مكتئبة.

سَخر.

- أنتَ مكتئب. لقد حاولت أن تقتل نفسك. أنا فقط. محبطة قليلاً.

تفحّصني.

- محبطة قليلاً. هذا تهوين. اعترفي، لن يسمعكِ أحد.

ضحكتُ رغماً عني.

- كلّ ما أقصده هو، يجب أن نلتفت إلى نظامك الغذائي، فذلك سيساعدك. إنه أمر وثيق الصلة بالاكتئاب. واضح طبعاً أنك متناسق الجسد، أقصد، لا بد وأنك تمارس التمرينات الرياضية باستمرار.

شعرت بوجهي يسخن.

- لم يسبق لي أن رأيتك تأكل، لا أعرف من أين تأتي بالطاقة!

- تريدين أن أخبرك عن الخمس طرق أم العشر طرق؟

- طريقة واحدة من فضلك.

- هذا يعود إلى الأيام التي عملت فيها راقص تعرٍّ، تعرفين؟ عندما كنت أصعد على المسرح، وأرقص مع الشبان.

ضحكتُ.

- أظنك تخلط بين راقص التعري وعارض الأزياء.

قال بابتسامة:

- طيب، وكيف لي أن أعرف ماذا يدور في رأسك؟

وضعت النادلة صحنين هائلين من الطعام أمامنا. وبدا علينا الارتياب.

لاحظت النادلة ردّة فعلنا.

- هل كل شيء على ما يرام؟ هل أحضرت الطلب الصحيح؟

- نعم، طبعاً، هذا يبدو... لذيذاً. شكراً لك.

تناولتُ السكين والشوكة، غير واثقة من أين أبدأ.

سألني، وهو يتفحص صحنه من دون أن يعرف، مثلي، من أين يبدأ:

- إذاً، متى كانت آخر مرة خرجتِ لتناول الطعام يا كريستين، طالما أنك ترين الأمر ممتعاً للغاية؟

- مرّ وقت طويل، لكن السبب هو أننا كنا ندّخر لحفل زفافنا. ممم، هذا طيب. هل طبقك طيب؟

لا نأكل فحسب، بل نتذوق.

- لا أعرف ما هذا - زنجبيل؟ إنه طيب فعلاً، وأعتقد أنني أتذوّق طعم ليمون. على أية حال، بعد الزفاف سافرنا لقضاء شهر العسل وعندما رجعنا لم تكن معنا نقود فأصبحنا نقضي وقتنا في المنزل معظم السنة أو نتناول طعاماً جاهزاً من وقت إلى آخر، وكان أمراً لا بأس به لأن كل أصدقائنا كانوا في المركب نفسه.

قال ساخراً:

- أمر ممتع. كم استمرّ زواجكما؟

- كُل. هل هو لطيف؟ هل البطاطا كريمية؟

- نعم، البطاطا كريمية.

وتابع مازحاً:

- والجزر مجزَّر.

تجاهله، وقلت:

- تسعة أشهر.

- هجرتِه بعد تسعة أشهر؟ لقد ظللتُ مع صديقات أكرههن لوقت أطول من ذلك. لا يمكن أن تكوني قد بذلت قصارى جهدك.

- بذلت قصارى جهدي.

نكست رأسي ورحت ألعب بالطعام. وسألني:

- كلي. هل الضأن ضانئ؟ إذاً، متى عرفتِ أن الأمور ليست على ما يرام.

تناول شوكة من السالمون، ومضغها ببطء وبلعها وكأنه يبلع حبة دواء عملاقة.

فكرتُ في الأمر. هل أقول الصدق، أم أقول الجواب الذي أقوله للجميع؟

أضاف:

- لا أسرار.

- ظلّت تراودني وخزات من الشك لوقت طويل، لكنني عرفت أنّ الأمور ليست على ما يرام، بالتأكيد، عندما كنت أمشي في الممر يوم الزفاف.

كانت تلك هي الحقيقة.

توقّف عن الأكل، ونظر إليّ مندهشاً.

قلت:

- تابع الأكل. رحتُ أبكي بكاء مريراً، وأنا أتقدم باتجاهه. الجميع يتكلّمون عن هذا الأمر، ظنوا أنها كانت لحظة حلوة جداً، لكن شقيقتيّ تعرفان. لم تكن تلك دموع فرح.

- لماذا تزوجت إذاً؟

- أصبتُ بالذعر. أردت أن أوقف الزفاف لكنني لم أمتلك الشجاعة. ولم أرغب في إيذائه. لم يكن بإمكاني رؤية أي مَخرج؛ كنت واقعة في فخ، لكنه فخّ دخلته بنفسي. لذا أجبرت نفسي على المضي قُدماً معه.

- تزوجتِ لأنك لم ترغبي في إيذاء مشاعره؟

- وهو السبب الذي جعلني لا أستطيع البقاء متزوّجة منه لمجرد أنني لا أريد إيذاء مشاعره.

فكر قليلاً، ثم أومأ برأسه.

- منطقي.

- لو كنت قد توقفت وفكرت في الأمر في حينها، فكرت فيه بحق، لاستطعت رؤية مخرج آخر. مخرج أفضل.

- كأن تقفي فوق جسر.

- بالضبط.

رحت أدفع الطعام في صحني.

- كنت أحبه، تعرف، لكن عندي نظرية حول الحب. أظن أن بعض الحب، أياً كان جماله، ليس مُقدَّراً له أن يستمر إلى الأبد.

ظلّ صامتاً. تناول كل منا شوكة من الطعام. وأخيراً ترك سكينه يسقط على الصحن.

قال، وهو يرفع يديه في الهواء:

- أنا مستسلم. لا أستطيع أن آكل أكثر من ذلك. هل يمكن أن أتوقف الآن من فضلك؟

- طبعاً.

تركت سكيني وشوكتي بدوري، وأنا أشعر بالحمل ينزاح عني.

- يا إلهي! لقد امتلأتُ!

تأوّهت ووضعت يدي على بطني المنفوخة، وكشفت نفسي من دون قصد:

- تخيل أن الناس يفعلون ذلك ثلاث مرات يومياً.

تبادلنا النظر ثم انفجرنا في الضحك.

مال إلى الأمام وعيناه تلمعان:

- ما التالي؟

-

نظرت في حقيبتي وتظاهرتُ بأنني أخرج منديلاً ورقياً، وخلسة، فتحتُ الكتاب.

2- اذهب لنزهة في الحديقة. لا تمشي وحسب، ولكن استمتع بما تراه، لاحظ جمال الحياة من حولك.

قلت، وكأنّ الأمر وردَ على خاطري للتو:

- هيا نتمشى!

كنا مستعدين لأن نمشي لكي نحرق الطعام الذي أجبرنا نفسنا تواً على تناوله، وهكذا، بالرغم من البرد الشديد، اتجهنا إلى حديقة «سانت آن»، ثاني أكبر حديقة بلدية في دبلن. متدثرين من البرد، رحنا نتجوّل في أرجاء الحديقة المسورة، «الإسطبلات الحمراء» التي تستضيف أسواق الطعام في آخر الأسبوع، «معبد هرقل» بجوار بركة البط - التي ما إن وصلنا إليها حتى سارعتُ بجذبه بعيداً عنها تحسباً لأن يشعر بالرغبة في القفز داخلها. حديقة الورد في هذا الوقت من السنة كانت محبطة، ولم تكن المكان المناسب لتجلس فيه على مقعد وتستريح. رحنا نتطلع إلى فروع الشجر المجدوعة الجرداء التي لا

تحمل لوناً أياً كان بينما تجلد الريح الثلجية وجهينا، والمقعد البارد يخترق معطفينا وبنطالينا ويصل إلى مؤخرتينا. استغللت كل فرصة وكل حجّة لمعرفة ما يدور بعقله.

- هل كنتَ تشتري زهوراً لماريا؟

- نعم، لكن ليس في عيد الحبّ. ليس مسموحاً لي بأيّ حال أن أشتريها في عيد الحب. فهو أمر شديد الابتذال.

- وماذا تهديها إذاً؟

- العام الماضي أهديتها ثمرة غريب فروت. والذي سَبَقَه ضفدعاً.

- انتظر، سوف نعود إلى الغريب فروت. ضفدع؟!

- تعرفين، حتى تستطيع أن تقبله فتحظى بأمير الأحلام.

- يَعْا هذا مقزّز.

- هل تحاولين بناء ثقتي أم تدميرها؟

- آسفة. أنا متأكدة أنها أحبّت الضفدع.

- نعم أحبته. كلانا أحب هَلْك. إلى أن هرب من النافذة.

ثم ابتسم وكأنه يفكّر في شيء مرح.

- فيمَ تفكر؟

- لا موضوع غبي... شخصي.

أثارت الابتسامة الخفيّة فضولي؛ كانت نظرة تكشف عن جانب منه لم يسبق لي رؤيته من قبل؛ جانب أكثر رقة، آدم الرومانسي.

- هيا، يجب أن تخبرني. لا أسرار، هل تتذكر؟

- لا شيء. لا شيء مهم. كانت بيننا نكتة عن زهرة أهديتها لها، هذا كل شيء.

- أي نوع من الزهور؟

- زنبقة ماء. كانت تحب اللوحة، لوحة مونيه.
ترك الأمور عند هذا الحدّ.
- لا بد وأنّ القصة فيها أكثر من هذا.
- طيب، قررت أن أجلب لها واحدة. لم يكن مسموحاً لي أن أهديها زهوراً في عيد الحبّ، لكنني فكرت أنّ هذه الزهرة ستكون استثناء. كنت في الحديقة، ورأيت هذه الزهور ففكرت فيها. وهكذا نزلت إلى البحيرة لآتي بواحدة.
- بملابسك؟
ضَحك.
- نعم. كانت أعمق ممّا ظننت. وصَلَت إلى وسطي، لكن كان عليّ أن أواصل التقدم. ومسؤولو الحديقة طاردوني إلى الخارج.
- لا أظن أن سرقة زنابق الماء مسموحة.
- طيب، هذه هي المسألة - لم أسرق زنبقة. لقد ارتكبتُ خطأ. لقد أتيتُ لها بوسادة الزنبق[1]
بدأ يضحك.
- وكنت أسأل نفسي، ما الذي تجده مميزاً فيها إلى هذا الحد؟
وبدأت أضحك.
- يا أبله! أي شخص هذا الذي يخلط بين زنبقة الماء ووسادة الزنبق؟
- خطأ بسيط. مع ذلك فقد أحبَّتها. استخدمَتها في شقتها. وضعت صورة لنا معاً عليها، مع شموع.

---

(1) وسادة الزنبق (Lily pad) هي ورقة نبات زنبق الماء، تطفو على سطح المياه الراكدة، وتمتاز بعضها بأحجام كبيرة (المترجم).

ابتسمتُ.

- هذا لطف شديد. أنتما من النوع الرومانسي إذاً.

هزّ كتفيه:

- إن أسميتِ هذا رومانسية.

ثم صحّح:

- كنا نمرح كثيراً. نمرح كثيراً.

للعجب، شعرتُ بالحزن. لم تكن لدينا أنا وباري قصصاً مثل هذه. حاولتُ جاهدة أن أفكر في قصة؛ ليس لكي أشاركها، إنما أردتها لنفسي، لأذكّر نفسي بالمرح. لم أستطع التفكير في أيّ شيء. مثل هذه اللفتات لم تخطر ببال باري، ولا خطرت ببالي، لكنني رحت أكوّن فكرة عن علاقة آدم وماريا. كانت علاقة تلقائية، ومرحة، ومتفردة، هما معاً.

ضِعنا وسط الممرات، وأنا أبذل جهدي لكي ألفت انتباه آدم إلى الأشياء، لأجعله يستشعر ويرى كلّ ما حولنا من حياة. لم أكن أعرف أسماء أي شيء فكنت أتوقف وأقرأ اللافتات، وأطلب من آدم قراءة الأسماء اللاتينية، وهو ما جعلنا نضحك عندما نقرأها بطريقة بالغة السوء.

قلت:

- وكأنها أسماء ديناصورات.

قال، وهو يدسّ يديه في جيبيه:

- وكأنها أسماء أمراض. معذرة يا دكتور، أشعر ببعض الـ«برونوس أفيوم».

سألته:

- وما ذلك؟

راجع اللافتة.

- شجرة الكرز، فيما يبدو. تخيلي أن يكون لك اسماً مثل هذا!

- بالمناسبة، ما هو اسم عائلتك؟

فقدت عيناه بعضاً من البريق الذي استعادته حديثاً وعرفتُ أنني لست عصباً مكشوفاً.

قال:

- بازِل.

حاولتُ أن أبقي على مزاجه الطيب:

- آه. مثل الشوكولاتة.

- ونبتة الريحان.

- آه، لكن الشوكولاتة: «مع بازِل، يحلو الغزَل».

قلتها بابتذال، مردِّدة شعار الشركة، الذي لا يصلح أبداً إذا نطقت اسمها كما ينطقه الأميركيون. وهكذا كان الشعار النكتة «مع بيزيل يحلو الغيزيل». كانت حلوى أيرلندية محبوبة جداً ظلت في الأسواق لنحو مائتي عام، مجرّد ذكر بازل يجلب الابتسامات على الفور إلى شفاه كلّ طفل وبالغ في البلاد. لكن ليس آدم. فبعد أن رأيت التعبير على وجهه، أضفت:

- آسفة، الأرجح أنك ظللتَ تسمع هذا طيلة حياتك.

- نعم. أين المخرَج من هنا؟

سألني، وقد ملّ من صحبتي فجأة.

رن الهاتف، فقرأت:

- أميليا.

- آه، نعم. طلب الزواج الذي لم يحدث قط.

قالها بصوت بارد، ثم تحرك بعيداً ليسمح لي بالخصوصية.

- أميليا!

رددتُ، وصوتي مليء بالترقب. سمعت نشيجاً في الهاتف.

- أميليا، ماذا حدث؟

بكت قائلة:

- لقد كنتِ على حق.

دوى صوتي:

- ماذا؟ على حقّ في ماذا؟

كفّ آدم عن البحث عن المخرج وحدّق فيّ. عرف من وجهي ما قد حدث وعرفتُ أنا ماذا كان يدور في عقله: كفى تفكيراً إيجابياً.

ظللتُ أركض في متنزه كلونتارف والريح تصفع خديّ. كان علي أن أركز على خطواتي، أندفع وأقفز، أتفادى بقع الثلج وكأنني أعدو في مضمار لسباق الحواجز طيلة الطريق إلى المكتبة. في مكان ما من خلفي، كان آدم يشق طريق العودة ببطء وفي يده مفتاح شقتي. حاولت ألّا أقلق بشأنه وهو وحده بجوار البحر؛ كنت قد أعطيته تعليمات صارمة، وراجعتُ خطة مواجهة الأزمات بسرعة مرة أخرى، ثم انطلقت أعدو. كان يجب أن أصل إلى صديقتي.

كانت أميليا جالسة في المقعد ذي الذراعين في زاوية المكتبة، عيناها حمراوان بلون الدم. على الجانب الآخر من المكتبة كانت ثمة امرأة ترتدي زيّ دراكولا بوجه أبيض ودماء تقطر من فمها، تجلس في مقعد «ساعة الحكي» وتقرأ لمجموعة من الأطفال المرعوبين بين سن الثالثة والخامسة.

قالت بصوت مخيف:

- نزلوا على السلم المظلم إلى القبو. تضيء طريقهم شعلات من اللهب. ثم رأوها أمامهم - التوابيت!

أطلق أحد الأطفال شهقة وجرى إلى أمه. جمعت الأم حاجياتها، ورمت المرأة الدراكولا بنظرة غاضبة وغادرت المكتبة.

- أميليا، هل أنت متأكدة أن هذه القصة مناسبة؟

بدا السؤال مربكاً لأميليا، التي بدت وكأنها في غيبوبة، وقد غشت الدموع بصرها فجعلتها لا ترى أبعد من أنفها:

- إيلين؟ نعم، إنها جيدة. لقد استأجرتها للتو. هيا، دعينا نتكلم.

تركنا المكتبة وصعدنا إلى الطابق العلوي إلى الشقة التي تتقاسمها أميليا مع أمها، ماجدا.

قالت بصوت خافت وهي تغلق باب المطبخ:

- لا أريد لأمي أن تعرف. كانت متأكدة أنه سيتقدّم. لا أعرف كيف أخبرها.

ثم بدأت تبكي ثانية.

- ماذا حدث؟

- قال إنه حصل لتوه على وظيفة في برلين وإنه يريد الانتقال إلى هناك لأنها فرصة عظيمة بالنسبة له. طلب مني أن أذهب معه، لكنه يعرف أنني لا أستطيع الذهاب. أنا حتى لا أستطيع أن أترك ماما وأسكن معه في شقة خاصة بنا. وبالتأكيد لن أترك البلاد. ثم ماذا عن المكتبة؟

لم أظن أنه وقت مناسب لأذكّرها بأن المكتبة ظلت تنزف نقوداً على مدار السنوات العشر الماضية، عاجزة عن المنافسة مع سلاسل

الكتب الكبرى التي تبيع القهوة، ناهيك عن المتاجر الإلكترونية وأجهزة القراءة الرقمية. كل ما كنت أستطيع فعله هو منع أميليا من البصق على الناس عندما تراهم وهم يقرأون على أجهزة رقمية. كانت قد بذلت ما في وسعها، فنظّمت ساعات للقراءة للأطفال، وفعاليات للكتاب، وأمسيات لأندية الكتب، لكنها كانت معركة خاسرة. كل ذلك من أجل الحفاظ على ذكرى والدها حية. كانت المكتبة مصدر فخره هو، وبهجته هو، لا هي. كان هو مَن تحب وليس المكتبة. وقد حاولت أن أشرح لها هذا في مناسبات مختلفة، لكن أميليا لم تكن تنصت.

- هل فكرت في اصطحاب أمك إلى برلين؟ هل هو خيار مطروح؟

هزّت أميليا رأسها.

- ماما تكره السفر. أنت تعرفينها، لن تغادر البلاد. مستحيل أن تعيش هناك!

نظرَت إليّ، وقد ارتعبَت من مجرد طرحي للفكرة. كنت أتفهم إحباط فريد. لن تدرس أميليا الفكرة ولو لثانية واحدة.

- اسمعي. لا يعني ذلك أنّ الأمر قد انتهى. العلاقات عن بُعد تنجح. وقد نجحتِ في ذلك عندما سافر إلى برلين لستة أشهر، تتذكرين؟ كان الأمر صعباً، لكنه ممكن.

مسحَت عينيها.

- تعرفين، هذا هو الأمر. لقد التقى بامرأة عندما كان هناك. لم أخبرك في وقتها، لكننا سوينا الأمور. صدقتُه عندما قال إن علاقتهما انتهت، ولكن. . . كريستين، إنه يعرف إنني لن أغادر هنا أبداً. إنه يعرف إنني لن أفعل ذلك أبداً. المطعم، الشامبانيا، كل

ذلك كان تمثيلية سخيفة ليجبرني أن أكون أنا من ينهي العلاقة. كان يعرف أنني سأقول لا، لكنه على الأقل بهذه الطريقة لن يظهر بمظهر الشخص الشرير. أنا أعرف أنه يخطط لإعادة صلته بها، إن لم يكن قد فعل ذلك فعلاً.

- أنت لا تعرفين.

- ألم يسبق لكِ أن عرفتِ شيئاً رغم أنك لم تعرفيه في الوقت نفسه؟

صدمتني الكلمات بقوة؛ كنت أعرف بالضبط ما تتحدّث عنه. وكنت قد استخدمت التعبير نفسه وأنا أفكر في مشاعري بشأن زواجي.

- آه، يا إلهي!

قالتها أميليا، وقد بدا عليها الإرهاق. وارتمت برأسها على ذراعيها، المستندتين إلى الطاولة.

- يا له من يوم!

همستُ:

- احكِ لي.

قالت أميليا وهي ترفع رأسها تجاه ساعة الحائط:

- كم الساعة؟ هذا غير معتاد. في هذا الوقت عادة تكون ماما قد نادت عليّ لأحضر لها العشاء. الأفضل أن ألقي نظرة عليها.

فركَت عينيها.

- هل يبدو عليّ أنني كنت أبكي؟

كانت عيناها حمراوين بلون الدم، منسجمتين مع شعرها الأحمر الوحشي.

- تبدين بخير.

كانت كذبة. ولكن أمها كانت ستعرف بأية حال.

فور أن غادرت الغرفة، ألقيت نظرة على الهاتف لأرى إن كان آدم قد أرسل أية رسائل. كنت قد أعطيته مفاتيح شقتي على أمل أن تسير الأمور على ما يرام، لكن لم يكن ثمة شيء يلهيه في الشقة، لا تلفزيون، ولا كتب. لم يكن هذا أمر جيد. وسارعتُ بطلب رقمه.

- كريستين! اطلبي الإسعاف!

هكذا تعالى صراخ أميليا من الغرفة المجاورة. من صوتها، عرفت أنه لا يجب أن أطرح أية أسئلة. مسحت رقم آدم وطلبت 999.

وجدت أميليا ماجدا على الأرض بجوار السرير. وفور وصول طاقم الإسعاف إلى هناك، أعلنوا موتها. كانت قد أصيبت بجلطة حادة. كانت أميليا طفلة وحيدة لا تعول أحداً وليس لها مَن ترجع إليه، وهكذا بقيتُ معها في أثناء المحنة، أعيرها كتفاً تبكي عليه وأساعدها في إنهاء ترتيباتها.

كانت العاشرة مساء عندما وجدت الفرصة أخيراً لكي أنظر إلى هاتفي. وجدتُ ست مكالمات لم يُرد عليها وبريداً صوتياً. كان من مركز شرطة كلونتارف، يطلبون مني أن أهاتفهم بشأن آدم بازل.

10

كيف تصنع أومليت
من دون أن تكسر البيض

- أنا هنا لرؤية آدم بازل

قلتها، وأنا أندفع إلى مركز شرطة كلونتارف. طيلة الطريق إلى هناك ظلّت تنهمر على عقلي المشتت بالفعل أسئلة «ماذا لو»، وأفكار مرعبة بشعة عن ما قد يكون فَعَلَه بنفسه. لم أستطِع حتى تذكّر الطريق الذي قطعته.

حدّق فيَّ الشرطي من وراء الكوّة.

- هل يمكن أن أرى هويتك؟

مرّرتها إليه.

- هل هو بخير؟ هل تأذى؟

- لو كان قد تأذى لكان في المستشفى.

- طبعاً، نعم.

لم أكن قد فكرت في هذا، فاسترخيت. ثم توترت ثانية:

- هل هو في مشكلة؟

قال، وهو يخرج من المكتب ويختفي عن الأنظار:

- إنه يهدأ.

انتظرت عشر دقائق وأخيراً انفتح الباب المؤدي إلى قاعة الانتظار ودخل آدم إلى الغرفة. بدا في أسوأ حال. عرفت من تعبيرات وجهه أنه سيكون عليّ أن أتحسس موضع خطاي بحرص. كانت عيناه قاتمتين. وكان قميصه مجعداً وكأنه قد نام فيه، وإن كنت أعرف أن ذلك لم يحدث لأن عينيه كانتا متعبتين، وغاضبتين. إذا كان هذا آدم بعدما هدأ، فقد أرعبني تصوّر حاله قبل بضع ساعات!

زمجر في وجه الشرطي:

- تعرف أنه ليس قانونياً أن تحبسني طيلة هذه المدة. أنا أعرف حقوقي.

وجّه له الشرطي إصبعاً مهدداً:

- لا أريد أن أراك هنا ثانية، هل تسمعني؟

سألت بهدوء:

- هل أنت بخير؟

حدق فيّ، ثم اندفع خارجاً من الباب.

- وجدناه على مقعد في الحديقة، ينظر إلى الأطفال في ساحة اللعب. شعر الآباء بالقلق، وتشكّكوا فيه، فاتصلوا بنا لكي نستجلي الأمر. اتجهتُ إليه لأسأله بضعة أسئلة، فطار عقله.

- لذلك حبسته؟

قال محذراً:

- بعد أن تحدّث مع شرطي بهذه الطريقة، يُعتبر محظوظاً أنني لم أوجّه له اتهاماً. إنه بحاجة إلى أن يعرض نفسه على أحد، هذا الشاب. يجب أن تتخذي حذرك.

تبعت آدم إلى الخارج، وأنا أتوقع أن يكون قد اختفى. لكنه كان هناك، واقفاً إلى جوار السيارة.

- أنا آسفة لغيابي طيلة المساء. أميليا كانت غاضبة من انفصالها عن صديقها.

لم يبدُ وأنه لان لشقائها ولم ألُمه بعد ما مرّ به ذاك اليوم

- كنت على وشك الاتصال بك وإخبارك أنني في الطريق عندما صعدَت إلى أعلى لكي تلقي نظرة على أمها فوجدتها أصيبت بجلطة حادة. اتصلنا بالإسعاف لكن الوقت كان قد تأخر. لقد ماتت. لم يكن بوسعي أن أتركها بعد ذلك.

فجأة شعرت بأنني متعبة. متعبة جداً جداً.

استرخى وجه آدم.

- آسف لسماع ذلك.

قدنا السيارة تلك المسافة الصغيرة إلى الشقة في صمت وعندما دخلنا جالَ ببصره في الغرف المغلقة، ونظر إلى الجدران العارية، وإلى لحاف «سبايدر مان» الخاص بي.

قلت في حرج:

- آسفة لأن هذا كل ما عندي. إنها شقة بالإيجار. كل أغراضي محتجزة كرهائن.

ترك حقيبته تسقط على الأرض.

- إنها رائعة.

- آدم، خطة مواجهة الأزمات موجودة لمساعدتك. أعرف أنها قد تبدو عديمة الفائدة، لكن إذا تبعت الخطوات، فأنا متأكدة أنك ستجدها مفيدة في المستقبل.

- مفيدة؟

صاح فيَّ صيحة أصابتني بالرعب. سحب ورقة مجعدة من جيبه وبدأ يمزقها في غضب محموم. ابتعدت عنه بضع خطوات، وقد

أدركتُ فجأة أنني بصحبة شخص غريب تماماً يعاني من مشاكل عقلية سمحتُ له بالدخول إلى بيتي. كم أنا غبية! لم يلاحظني وأنا أبتعد عنه.

- هذه الخطة هي التي أوقعتني في الورطة. اتصل بأحد الأسماء على قائمة الطوارئ الخاصة بك إذا راودتك أفكار انتحارية. هكذا تقول. وكان عندي اسم واحد. الاسم الأول على قائمة الطوارئ هو اسمك. اتصلت بك. فلم تردّي. والاسم الثاني يجب أن يكون فتاتي، والثالث يجب أن يكون أفضل أصدقائي، لكنهما ليسا على قائمتي اللعينة. أمي ميتة وأبي يُحتضر. وهما ليسا على القائمة. وعندما فشل هذا الأمر، افعل شيئاً يجعلك سعيداً كلما راودتك أفكار انتحارية.

اعتصر بقايا الورقة في قبضته.

- ولما كنت قد تناولت طعامي بالفعل وتمشيت، فما هو الأمر الآخر الذي يمكن أن أفعله اليوم؟ ثم تذكّرت ساحة اللعب وسمعت الأطفال يضحكون وفكرت، هذا أمر مبهج لعين، ربما يجلبون لي البهجة اللعينة. وهكذا جلست هناك لساعة، لا أشعر بأنني مبتهجاً إلى حدّ اللعنة، ثم يأتي هذا الشرطي ويسألني كما لو كنت شاذاً أطارد الأطفال! بالطبع كان عليّ أن أتخذ موقفاً مع شخص يظنني مختلاً أحدّق في الأطفال. وهكذا يمكنك أن تأخذي خطة المواجهة اللعينة تلك وترميها في البحر.

صرخ، وهو يرمي بمزق الورقة في الهواء:

- صديقي صديقتك هجرها، وأمها ماتت وأنت نفسك لست أفضل حالاً. شكراً على أنك أظهرت لي جمال الحياة.

- طيب...

تلعثمت، وأنا أحاول ألّا أخاف من هذا الرجل الذي لا أعرفه وفي الوقت نفسه أجاهد لأقنع نفسي أنني أعرفه، وأذكر نفسي أنني رأيت لمحات من آدم الطيب، الذي أظهر جانبه الرومانسي، المرح. وإذ قوبلت بهذه القتامة وهذا الغضب، كان من الصعب تصديق أن آدم الآخر موجود. نظرت إلى الباب، وأنا أحاول ألّا أجعله يراني. كان بوسعي أن أركض. كان بوسعي أن أطلب الشرطة، كان بوسعي أن أخبرهم بما حدث على الجسر، كان بوسعي أن أخبرهم أنه أراد أن يقتل نفسه، كان بوسعي أن أنهي هذا الأمر على ما يرام الآن، لأنني قد فشلت. لقد أفسدتُ كلّ الأمور.

أخذتُ نفساً عميقاً محاولة أن أهدئ من ضربات قلبي. كان صراخه يسبب لي الذعر، لم يكن بوسعي التفكير بشكل سليم. في النهاية عمّ الصمت. كان يقف هناك، ينظر إليّ. وكان عليّ أن أقول شيئاً. شيئاً متفهماً. شيئاً لا يقدح زناد نوبة أخرى من الغضب. لم أكن لأحتمل أن يؤذي نفسه. ليس هنا، ليس معي، ليس في أيّ وقت.

ابتلعتُ ريقي واندهشت لخروج صوتي بهذا الهدوء:

- أتفهّم شعورك بالغضب.

- طبعاً أشعر بالغضب اللعين.

لكن صوته لم يكن غاضباً كما كان من قبل. بدا وأنه هدأ قليلاً من تفهُّمي له. وجعلني هذا أشعر بأنني أكثر هدوءاً؛ ربما أستطيع أن أفعلها في نهاية الأمر. على الأقل أستطيع أن أحاول لمزيد من الوقت. لم أكن أريد أن أفقد الأمل فيه.

- عندي علاج لذلك.

درتُ حوله بسرعة، وذهبتُ إلى المطبخ. تناولت ست بيضات

من الثلاجة، وكتبت عليها بقلم أسود سميك، وأنا ألاحظ يديَّ ترتعشان. كتبت أسماء: «بازل»، «شون»، «ماريا»، «بابا»، «الافينيا» و«كريستين» على البيضات، ثم فتحت باب المطبخ المؤدي إلى الحديقة الخلفية الطوّيلة.

ناديته:

- تعال!

حدَّق فيَّ بعينين قاتمتين.

- تعال!

قلتها بصرامة أكبر، وأنا أحاول ألّا أظهر خوفي، أحاول أن أدفع الأمور إلى الأمام. كنت أنا صاحبة الكلمة العليا هنا. وكنت أريده أن يصغي إليّ. وتبعني متردداً.

- معي ست بيضات هنا، الكلمات تمثل الأشياء التي تُشعرك بالغضب الآن. ارمها. ارمها في أي مكان تريد. وبالقوة التي تريد. هشِّمها. تخلص من غضبك.

ناولته الكرتونة وأشرت إلى الباب المفتوح.

قال وهو يضغط بأسنانه:

- لقد سئمت من مهامك.

- طيب.

وضعت الكرتونة على الطاولة وغادرت المطبخ، متجهة إلى غرفتي. ومع أنني كنت أريد بشدّة أن أوصد الباب، لم تعجبني الرسالة التي سيفهمها من ذلك. وهكذا، جلست على لحاف «سبايدرمان» ورحت أحدق في الحائط الكريمي، في الظلال الشبكية التي يطرحها القمر من شباك النافذة، وأحاول أن أفكر فيم يجب عليّ فعله بعد ذلك. كانت أمامي مهمة هائلة وليست لدي فكرة كيف

أشرع فيها. بطريقة ما كان يجب أن أقنعه بزيارة معالج نفسي. فكّرت في طرق تدفعه إلى الذهاب. ربما أتظاهر بأننا ذاهبين إلى مكان آخر ثم آخذه إلى عيادة، لكن إذا فعلت ذلك، إذا عاملته كأحمق أو حاولت خداعه بأية طريقة من الطرق، سوف أفقد ثقته بلا رجعة. وساعتها لن أكون حتى أنا موجودة لمساعدته، على عدم نفعي.

للمرة الأولى منذ قبلت هذا التحدي، بدأت أفكر أنني ربما لا أكون قادرة على النجاح. وأعياني جسدياً التفكير فيه وهو ينتحر، فاندفعت إلى الحمام وأوصدتُ الباب. وبينما كنت رابضة هناك، مثنية على نفسي، سمعته يئنّ كأنما من الألم، كأن شخصاً يلكمه. ارتبكت، واستجمعت نفسي، ورششت وجهي بالماء وهرعت خارجة. توقفت عند باب المطبخ. كان الضوء ينسكب من خلفي إلى الحديقة السوداء، التي لم يعتنِ بها أحد منذ وفاة عمتي الكبرى كريستين صاحبة الأصابع الخضراء. الآن لم يعد هناك سوى بقعة طويلة مربعة من العشب، لم يجزّها أحد لعقد على الأقل، وليس في شهور الشتاء تلك على الإطلاق. تذكّرت كيف كانت عمتي الكبرى تطعمنا الفراولة المقطوفة مباشرة، وأزهاراً صالحة للأكل، وثوماً برياً ونعنع، كنا نأكلها فرحين بها أكثر من استمتاعنا بمذاقها. تصوّرتها وهي تقطف «الحرَنكَش» لصناعة المربى، وقبّعتها القش عريضة الحواف تحمي وجهها من الشمس، وجلدها المتجعّد يتهدل على رقبتها وصدرها، متغضناً ومترجرجاً وهي تعمل، وطوال الوقت تشرح ما تفعله بصوتها الخشن المتهدّج من الانتفاخ الرئوي. كانت الحديقة الآن بعيدة كلّ البُعد عن ذلك، لكن الذكرى كانت هناك في زاوية عقلي، صباي المشرق في يوم مشمس عندما كنت أشعر

بالدفء والأمان، على النقيض من هذه الليلة المظلمة الباردة حيث يمتلئ قلبي بالخوف والذعر.

في الحديقة، كان آدم ينظر إلى كرتونة البيض في يده، يختار بحرص. رفع واحدة إلى أعلى ورماها بأقصى قوة إلى طرف الحديقة. أطلق صرخة وانسحقت البيضة في الجدار البعيد. وإذ بدا عليه المزيد من الحماس، عاد إلى كرتونة البيض واختار واحدة. رماها، صارخاً وهو يتابعها تشق الهواء وترتطم بالجدار الخلفي. كرَّر العملية ثلاث مرات أخرى. وعندما انتهى، اندفع عائداً إلى البيت وصفقَ باب الحمام خلفه. احتميتُ بغرفتي لأترك له مساحته. استمرّ صوت الـ «دوش». ورحت أنصت إلى نشيجه الغاضب يضيع وسط المياه المنهمرة.

خرجتُ إلى حيث كانت الكرتونة. كانت هناك بيضة واحدة لا تزال. انحنيت، والتقطت البيضة، وانهمرت الدموع من عينيَّ. كان الاسم على البيضة المتبقية هو «كريستين».

كنت في الفراش، جالسة ومستندة إلى الوسائد، متوترة ومتحفزة، عاجزة عن الاسترخاء وهو لا يزال في هذا المزاج، عندما ظهر عند باب غرفتي. غريزياً، تدثرت بالأغطية، حرصاً على سلامتي. وعندما رأى ردة فعلي، أجفل، وقد آلمه خوفي منه.

قال بلطف:

- أنا آسف. أعدك ألّا أتصرف بهذه الطريقة ثانية. أعرف أنك تحاولين مساعدتي.

رأيت أن هذا كان آدم آخر مختلفاً عن آدم الذي صبّ غضبه عليَّ قبل قليل، فاسترخيت.

قلت:

- وأنا سأبذل جهداً أكبر.

- انسِ ما قلتُه. أنت تتصرفين بشكل جيد. أشكرك.

ابتسمت.

ردّ عليّ بابتسامة.

- تصبحين على خير يا كريستين.

- تصبح على خير يا آدم.

11

كيف تختفي تماماً فلا يعثر عليك أحد

في الرابعة صباحاً، رأيت رؤيا. كان آدم مصيباً الليلة السابقة: كنت بحاجة إلى بذل جهد أكبر من ذلك. لم يقل ذلك لكنه ألمح إليه. رأيت كم كان رقيقاً، وكان عليّ أن أبذل جهداً أكبر. وإذ صرت متيقظة تماماً، وجدت عقلي مشدوداً جداً بما لا يسمح لي بالنوم. نهضت وارتديت بدلة رياضية، ثم قطعت غرفة الجلوس بأقصى هدوء ممكن. كانت الغرفة مظلمة لكن آدم كان جالساً، ووجهه المضطرب مضاء بضوء جهاز الكمبيوتر الخاص به.

- ظننتك نائماً.

- أشاهد فيلم يوم إجازة فيريس بويلر.

كانت تلك إحدى الأشياء التي وضعناها في قائمة خطة مواجهة الأزمات كتمويه عندما يكتئب.

- هل أنتَ بخير؟

حاولت أن أعاين وجهه لكن شاشة الكمبيوتر لم تكن ترمي بضوء كافٍ للكشف عن دواخل أفكاره.

تجاهل سؤالي، وقال:

- إلى أين؟

- إلى مكتبي. سأعود بعد بضع دقائق - إذا كان لا بأس في ذلك.

أومأ برأسه.

عندما رجعت، كان الكمبيوتر مقلوباً على الأرض، وسلك الشاحن ملفوف حول عنقه وكان هو يتدلى من فوق حافة الكنبة، عيناه مغلقتان ولسانه متدلّ من فمه.

- مضحك جداً.

تابعت طريقي، وذراعاي محملتان بالأوراق، والأقلام، وأقلام التظليل، وسبورة بيضاء، نصبتها في غرفتي.

كان آدم يزعم أنه لا يحتاج إلى مساعدة وجدانية، ويصرّ على كونه بحاجة إلى مساعدات مادية ملموسة. كان يريد استعادة وظيفته مع حرس السواحل الأيرلندي، ويريد استعادة فتاته، ويريد أن تخرج أسرته من رأسه. وقد افترضتُ أنني قادرة على معالجة هذه الأمور عن طريق مساعدته وجدانياً، لكن لم يكن أمامي إلّا وقت قليل جداً. ربما كنت بحاجة إلى معالجة احتياجاته المادية في الوقت نفسه الذي أعالج فيه احتياجاته الوجدانية. من الناحية الوجدانية لديه أدواته، لديه خطة مواجهة الأزمات. ما كان ينقصه هو مجموعة من الأدوات اللازمة للتعامل مع الاحتياجات المادية، وكنت بصدد أن أعطيه إياها.

ظهر آدم عن الباب، وقد بدا أن فضوله الشديد منعه من التأخر أكثر من ذلك.

- ماذا تفعلين؟

كنت أعد خططاً، وأرسم خرائط للأشياء في عَجَلة. أخطّط

شبكات، وأرسم صوراً توضيحية، بعبارات شارحة، وبالونات، وكل أنواع الأشياء التي تطير في سماء السبورات البيضاء الكبيرة.

- كم فنجان قهوة تناولتِ؟

قلت، بصوت متعجّل:

- أكثر ممّا يجب، لكن لا فائدة من إضاعة الوقت. فلا أحد منّا ينام بأية حال، فلماذا إذاً لا نبدأ الآن؟ لدينا اثنا عشر يوماً متبقية. أي ثمان وثمانين ساعة. معظم الناس ينامون ثمان ساعات في الليل - ليس نحن، ولكن الناس يفعلون ذلك. وهذا يعطينا ست عشرة ساعة في اليوم لكي نفعل ما علينا فعله، وهو ما يترك أمامنا مئة واثنتين وتسعين ساعة فقط. ليس وقتاً طويلاً. والساعة الآن الرابعة صباحاً، أي أنه لم يتبقَّ أمامنا رسمياً إلّا أحد عشر يوماً.

مسحتُ الأرقام وبدأت أكتب أرقاماً أخرى في سرعة محمومة. كانت أمامنا مهام ننجزها في دبلن وسرعان ما سيكون علينا السفر إلى تيراري للتعامل مع بقية مشكلات آدم.

قال، وقد عقد ذراعيه وراح يراقبني متسلياً:

- أعتقد أنك تعانين من انهيار عصبي.

- لا، بل أرى رؤيا. أنت تريد خدماتي بالكامل، واحد لواحد؟ هذا ما ستحصل عليه.

فتحت دولاب الملابس وأخرجت مصباح جيب، وتأكّدت من أن بطارياته تعمل. وضعته في حقيبة مع فوطتين وغيار للملابس.

- أقترح عليك أن ترتدي شيئاً ثقيلاً وأن تأخذ معك غياراً للملابس لأننا سنخرج.

- نخرج؟ الجو شديد البرودة والساعة الرابعة صباحاً. أين سنذهب؟

- سنذهب، يا صديقي، لاستعادة ماريا.

لاحت على وجهه ابتسامة.

- وكيف سنفعل ذلك؟

دفعته إلى الباب فلم يجد أمامه خياراً إلّا أن يضع معطفه ويتبعني.

حديقة «سانت آن» مفتوحة على مدار اليوم، وإن لم تكن أكثر الأماكن أماناً في الرابعة والنصف صباحاً. إذ كانت مسرحاً للاعتداءات في الماضي، وربما ظهرت فيها جثة أو جثتين على مرّ السنين. لم تكن مضاءة جيداً بعد حلول الظلام، وكنت نسيت تلك التفصيلة التي كنت أعرفها من أيام التسكّع عندما كنت مراهقة.

قال، وهو يتبعني وأنا أضيء الطريق بالمصباح:

- أنت مجنونة. ألا تظنين أنّ التسكع هنا خطير بعض الشي؟

قلت، وأسناني تصطك من البرد:

- طبعاً. لكنك كبير، وسوف تحميني.

كلما توغّلنا في الحديقة، كلما تراجع أثر الكافيين. كانت صفائح البيرة ورسوم الغرافيتي الحديثة التي تظهر كلّ صباح كافية لأعرف أننا لن نكون بمفردنا في الحديقة، لكن مع تركيز عقلي على العدّ التنازلي، لم تكن هناك ثانية لتضيع. لم أرغب في أن يتحمل ضميري موت آدم، وإلا لن أنام أبداً بعد ذلك.

حتى مع المصباح، كنت لا أرى إلّا بضع أقدام أمامي ولم يكن موعد الشمس كي تطلع وتنقذنا ليحين قبل ساعات. ولكن ما كنت أملكه في يدي هو معرفتي بالحديقة. لقد نشأت في تلك الحديقة وعرفت الفدادين الخمسمئة مثل ظهر يدي. لكن ذلك كان والسماء

مضاءة؛ وقد مضى نحو خمسة عشر عاماً منذ تخبطت آخر مرة في الحديقة في جوف الليل، وأنا أشرب مع أصدقائي في مراهقتي.

فجأة توقفت، وحركت المصباح يساراً ويميناً. ثم دُرت حول نفسي، في محاولة لأن أحدِّد الاتجاهات.

قال آدم، وفي صوته نبرة تحذير:

- كريستين.

تجاهلته، وأنا أحاول تصوّر المكان في ضوء النهار. أخذتُ بضع خطوات إلى اليمين، ثم توقفت، واستدرت إلى الاتجاه الآخر.

- يا إلهي، لا تقولي إننا تُهنا.

لم أقل شيئاً.

ارتعش آدم إلى جواري. كانت ثمة أصوات تأتي من بين الأشجار عن يسارنا. ثم صلصلَت بعض الزجاجات.

زعقتُ وأنا أبتعد عن الشلة الموجودة بين الأشجار:

- مَن هنا؟

كان آدم يغمغم همساً.

قلت بحدّة:

- آه، وماذا يهمك، أنت تريد الموت على أية حال.

احتجّ قائلاً:

- نعم، ولكن بشروطي. والموت على يد سكير حقير ليس ما كنت أخطط له.

وجدتني أستشهد بوالدي:

- الشحاذون لا يتأمّرون.

لحسن الحظ استطعنا الوصول إلى البركة، ولحسن الحظ كانت

المصابيح مُضاءة، لكي تحمي أمثال الشلة بين الأشجار من السقوط.

قلت، وقد سررت بنفسي:

- أرأيت؟

- سأسمي ذلك حظاً. حظاً غريباً لعيناً.

- طيب، لا تقف مكانك وحسب. أحضر وسادة الزنبق.

ضربتُ قدمي في الأرض وفركت يديَّ المقفزتين معاً. شعرتُ بعينيه عليّ.

- معذرة؟

- لماذا تظنّني طلبتُ منك أن تجلب غياراً لملابسك؟

- درجة الحرارة أربعة تحت الصفر! إنني مندهش لأنّ الماء لم يتجمد. سأموت من البرد.

- لو لم تكن انتقائياً جداً في مسألة طريقة موتك، لجعلت كلّ الأمور أسهل. طيب، إذا كانت تلك هي الطريقة الوحيدة...

خلعت معطفي فسرى البرد مباشرة إلى عظامي.

- لن تنزلي إلى هناك.

- واحد منا يجب أن ينزل، والواضح أنك غير مستعد.

استجمعتُ شجاعتي، وجلت بنظري في البركة لكي أجد وسادة الزنبق المناسبة.

قال، نصف جاد نصف هازل:

- لكن يا كريستين، فكري في الناس الذين يحبونك. لن يريدون منك أن تفعلي هذا.

تجاهلته؛ لم أكن لأغادر الحديقة من دون وسادة الزنبق. من على حافة البركة، تفحّصت البحيرة بحثاً عن أجمل واحدة. كان

بعضها ممزقاً، ووسخاً، وأردتُ أكثرها خضاراً، أكثر وسادة يمكن أن أجدها استدارة، واحدة يمكن لماريا أن تستخدمها مجدداً لتضع عليها الأشياء التي تتعلق بها وتحبها، بل وربما تجد صورة آدم نفسها عليها مجدداً. ربما يرمي عليها النقود المعدنية عندما يرجع إلى البيت من العمل قبل أن يصعد إلى الفراش مع ماريا، أو يترك ساعته عليها بينما يأخذ حماماً، ومن وقت إلى آخر يفكر في المرأة المجنونة التي ساعدته في اصطيادها، في تلك الليلة الباردة إلى حدّ التجمد، عندما كان غارقاً في المشكلات.

في النهاية، حددت موقع الوسادة التي أريدها؛ كانت لسوء الحظ ليست وسادة الزنبق الأقرب، لكن كان بوسعي أن أعوم إلى هناك وأرجع بسرعة. سينتهي الأمر في ثوانٍ. عشر ثوانٍ على أقصى حدّ. وكانت فعلاً مسألة حياة أو موت، وهو ما حسم تردّدي على الفور. لم أكن واثقة من عمق الماء، فدرت حول الأشجار بحثاً عن فرع أو عصا، ثم وضعتها في الماء لأختبر العمق.

- ستفعلين ذلك فعلاً؟

توقفت العصا في منتصف الطريق. لم تكن المياه عميقة على الإطلاق. بضع أقدام فقط. أستطيع أن أفعل ذلك دون أن أعوم، إنها على بُعد بضع خطوات فقط. كانت البركة قاتمة، خضراء، ورغوية، لكنني أستطيع أن أفعلها. شمّرت بنطال بدلتي الرياضية إلى ما فوق ركبتي.

ضحك آدم، وقد أدرك أنني سأواصل خطتي بالفعل:

- آه يا إلهي. انظري، هناك واحدة إلى جوار الحافة. أستطيع أن أصل إليها.

نظرت إليها. كان يستطيع أن يمدّ يده ويجلبها من دون مشكلة.

- هل تظن أنها ستنظر إلى هذه وتقول، واو، إنه يحبني فعلاً؟ إنها مقزّزة، وثمة زغب ينمو عليها. وانظر، عليها عقب سيجارة. لا أظن أن تلك هي الرسالة التي تريد إيصالها. لا، نحن نريد تلك الوسادة هناك. تلك التي لم تمسَسها يد بشر.

وأشرتُ إلى أبعد واحدة.

- ستجمدين.

- ثم سأجف. سأتجاوز الأمر. فور أن أخرج، سنجري إلى السيارة.

نزلتُ إلى المياه. بلغ ارتفاعها أكثر ممّا توقعت، تجاوزَت ركبتي بكثير، فأغرقَت مؤخرة بدلتي الرياضية. شعرتُ بها تعلو حتى وسطي. لقد كذبَت عليّ العصا، أو أنها نزلت على صخرة. شهقت. سمعت آدم يضحك، لكنني كنت أكثر تركيزاً مما يسمح لي بلومه. الآن بعد أن نزلت، لم يكن هناك بد من المضي في طريقي. أحسست بالأرض ناعمة وطرية من تحتي؛ وارتعبت من التفكير فيما قد يكون بداخلها. علقَت بي أعشاب وأوراق شجر ميتة وأنا أشق طريقي عبر المياه القائمة. تساءلتُ أية أمراض يمكن أن ألتقطها منها، لكنني واصلت التقدم. وعندما أصبحت على بعد ذراع من وسادة الزنبق، مددت يدي إليها وسحبتها ناحيتي. خمس خطوات عملاقة على الأرضية الطرية وأصبحت على الحافة. مدّ آدم ذراعه ورفعني لأعلى. كانت بدلتي الرياضية قد التصقت بجسدي وكانت ملابسي تقطر بمياه البركة الآسنة. اتجهتُ إلى حقيبتي بقدمين موحلتين، وأخرجت فوطة، وقشرت بنطالي وجوربي عني، وجففت نفسي بسرعة. نظر آدم إلى الجهة الأخرى، من دون أن يتوقف عن الضحك بينه وبين نفسه، وخلعت سروالي الداخلي أيضاً. ارتديت

بدلتي الرياضية الجديدة، وأسناني تصرّ من البرد. وبيدين مرتعشتين لبستُ جورباً جديداً وبنطالاً، وبدّلت كنزتي بسترة ثقيلة من الصوف. أمسك هو معطفي مفتوحاً بيديه، فوضعت ذراعيّ بداخله واحتضنتُ نفسي. وضع قبعته الصوف على رأسي ولفّ ذراعيه حول جسدي لتدفئتي. آخر مرة كنا فيها في هذا الوضع كانت ونحن على الجسر وكانت ذراعاي ملفوفتين حول آدم. الآن ذراعا آدم ملفوفتان حولي. استراحت ذقنه على قمة رأسي وفرك كتفيّ في محاولة لإبقائي دافئة. دقّ قلبي بقوة لقربي منه إلى هذا الحد. لم أكن واثقة إن كانت استعادة للمشاعر التي أحسست بها على الجسر أم أنه هو السبب، قربه، جسده المضغوط على جسدي، رائحته التي غمرت أحاسيسي.

سألني، بالقرب من أذني:

- هل أنت بخير؟

كنت تقريباً خائفة أن أستدير وأنظر إليه. لم أجرؤ على التحدث تحسّباً لأن يكشف صوتي الرعشة التي أشعر بها. وهكذا، أومأت برأسي، وعندما فعلت ذلك احتككتُ به أكثر وأكثر. لم أكن متأكدة إن كان ذلك حقيقة أم خيالاً، لكنني شعرت بذراعيه تلفانني بقوة أكبر.

سمعنا أصواتاً تقترب: أصواتاً عميقة، ذكورية، تبدو عدائية. انتهت اللحظة فجأة كما بدأت فجأة. تركني بسرعة، والتقط حقيبتي ووسادة الزنبق التي كانت ملقية على الأرض.

- هيا بنا.

قالها، فانطلقنا نركض عائدين من حيث أتينا.

فور أن دخلنا السيارة، شغّل آدم جهاز التدفئة بأقصى قوته في

محاولة لتدفئتي. كأن قلقاً، وكانت شفتاي فيما يبدو قد ازرقّتا ولم يكن بوسعي التوقف عن الارتعاش.

قال، بوجه قاتم متجهم وقلق:

- كانت فكرة سيئة يا كريستين.

عاندتُ، وأنا أضع يدي أمام جهاز التدفئة:

- أنا بخير. أحتاج دقيقة فقط.

قال:

- هيا نرجع إلى الشقة. يمكن أن تأخذي حماماً دافئاً، ثم تتناولي قهوة تدفئك.

قلت بين أسناني المصطكة:

- أعرف محطة محروقات تفتح 24 ساعة وتصنع قهوة رديئة، فنحن لم ننته بعد.

نظر إلى وسادة الزنبق التي تقطر ماء في المقعد الخلفي:

- لا يمكن أن نعطيها لها الآن. فهي لا تزال في فراشها.

- ليس هذا ما سنفعله.

بوجود القهوة الساخنة داخل جسدي وكوب آخر ينتظر في حامل الأكواب، بدأت أشعر بالدفء.

- لماذا تقودين باتجاه هوث؟

- سوف ترى.

من بين النصائح الواردة في كيف تستمتع بالحياة بثلاثين طريقة بسيطة، بعد الطعام والتمشية، كانت مراقبة الشروق أو الغروب. كان عندي أمل أن يستطيع منظر النور وهو يشرق أن يمنح آدم استنارة. وإذا امتدّ التأثير إلي أنا أيضاً، لن أشكو. قدتُ السيارة بطول الطريق الساحلي إلى قمة هوث وكانت سيارتنا هي الوحيدة في موقف

السيارات. كانت الساعة السادسة والنصف صباحاً، وكانت السماء صافية، بالضبط المكان والزمان المناسبين للشروق فوق خليج دبلن.

دفعنا مقعدينا إلى الوراء، وأمسكنا بالقهوة، وأدرنا الراديو بصوت خفيض ورحنا نراقب السماء. في الأفق، بدأ اللون الوردي في الصعود من البحر.

قال آدم:

- و... أكشَنْ!

فتح كيساً بنياً ومدَّه لي. شممتُ رائحة السكّر، فانقلبت معدتي وهززت رأسي.

مدّ يده في الكيس وأخرج لنفسه كعكة قرفة، ثم قال:

- انظري مدى قرفية القرفة، ومدى حموضة قشر الليمون. ها أنا أتذوق طعامي وأتلذّذ به.

ثم أصبح صوته أشبه بصوت الروبوت:

- أنا أستمتع بإحدى مباهج الحياة العديدة.

- على الأقل بدأت تفهم.

تناول قضمة ولاكها، ثم بصقها ثانية في الكيس الورقي، ورمى بقيتها معها وكرْمَش الكيس.

- كيف يأكل الناس هذا القرف؟

هززتُ كتفي.

- أخبرني شيئاً آخر لطيف فعلته لأجل ماريا أو فعلته معها.

- لماذا؟

- لأنني بحاجة إلى أن أعرف.

كان من السهل عليَّ أن أقول ذلك، لكن الحقيقة أنني لم أستطع

التوقف عن التفكير في الأشياء التي فعلها لأجلها، الهدايا غير المعتادة التي كان يهديها إليها. وكنت متشوقة لسماع المزيد.

فكر في الأمر.

- آه. كانت من عشاق «ابحث عن والي» - تعرفين تلك الكتب؟ لذا عندما أردتُ أن أطلب منها الخروج معي في أول موعد، ارتديت مثله وظللتُ أظهر لها من مكان ما، في كل مكان تذهب إليه. لم أكن أنظر إليها. كانت تتسوق فأروح أنا أمشي في أرجاء المحل من دون أن أقول أي شيء. كنت أظلّ أتبعها طوال اليوم، أظهر أمامها فقط.

نظرتُ إليه وانطلق حاجباي إلى أعلى ما في إمكانهما. ثم انفجرتُ في الضحك.

أشرق وجهه.

- هذا كان رأيها أيضاً، لحسن الحظ، ووافقت على الخروج معي.

ثم سرعان ما خبت ابتسامته.

- سوف تستعيدها يا آدم.

- نعم، أتمنى.

ظللنا صامتين ونحن نشاهد السماء.

قال بجدية:

- إذا لم تنجح وسادة الزنبق هذه في استعادتها، لا أعرف ماذا يمكن أن ينجح.

انفجرتُ ضاحكة. وعندما توقفت كانت السماء قد أصبحت ساطعة.

قلت، وأنا أضع المفتاح لإدارة المحرك:

- صحيح. هل تشعر بأنك أفضل؟
قال ساخراً:
- جداً. لم أعد راغباً في الانتحار.
- هذا ما ظننتُه.
أدرتُ المحرك، وعدنا إلى البيت.

كنت أجلس على الكرسي الوحيد الذي أثث به بابا المطبخ، أنظف وسادة الزنبق بمناديل تنظيف الأطفال أولاً، ثم أصقلها حتى تلمع بملمِّع الأثاث. كانت وسادة زنبق رائعة المنظر؛ لها حافة شديدة الاكتمال على طول محيطها الخارجي، واختبرتُ قوتها بأن وضعت عليها إبريق الشاي والفناجين. لمَّعتها حتى صارت براقة، فأحسستُ أنّ الأمر يستحق ما كنت أشعر به من بوادر برد وصداع خفيف. كنت أبدي إعجابي بعملي اليدوي عندما انطلق صفير هاتفي في الثامنة صباحاً. وجدت نفسي في نزاع داخلي، أأستمع إلى البريد الصوتي أم لا كنت أعرف أنه باري، وأنها المزيد من الإهانات والكراهية، وكنت أعرف أنني لا يجب أن أسمع، لكن بطريقة ما لم أستطع أن أمنع نفسي. شعرتُ أنني مدينة له بالسماع على الأقل، فتجاهُل ألمه سيكون بمثابة هجر آخر.
انضم آدم إليَّ في المطبخ.
- هو؟
أومأت برأسي.
- لماذا يتَّصل في الوقت نفسه كل يوم؟
- لأنّ هذا هو الوقت الذي يكون قد استيقظ فيه وارتدى ملابسه. تأتي الساعة الثامنة، فتراه على طاولة المطبخ مع فنجان

شاي وخبز محمص وانهيار عصبي، ينظر في هاتفه ويفكر في طرق يشدّني بها معه إلى أسفل.

شعرت بآدم يراقبني، لكنني لم أنظر إليه، واكتفيت بمواصلة تلميع وسادة الزنبق، ولما يغب عن خاطري سخف الموقف. كان هو يعاني من انهيار عصبي وأنا ألمع وسادة زنبق سرقتها من حديقة عامة. لم يخرج أيّنا من الانفصال على ما يرام.

- هل ستستمعين إلى الرسائل؟

تنهدت، ثم رفعت إليه رأسي في النهاية.

- غالباً.

- لتذكري نفسك بالسبب الذي جعلك تهجرينه؟

قررتُ أن أكون أمينة.

- لا لأنّ ذلك هو عقابي.

قطّب حاجبيه.

- لأنّ كل شيء فظيع يقوله لي يؤلمني حتى الأعماق، وإذا كان ذلك هو عقابي على هجراني له، فذلك يجعلني أشعر بأنني أدفع الثمن المستحقّ لحريتي. لذا، مرة أخرى، أنا شخص أناني للغاية يستخدم ألم شخص آخر لكي يحسّن شعوره تجاه نفسه.

نظر إليّ، بعينين واسعتين:

- يا إلهي. يا له من تحليل رائع! هل أسمع أنا؟

وضعت وسادة الزنبق وأومأت برأسي. راقبته وهو يجلس على طاولة المطبخ وينصت لرسالة باري، ووجهه يتغير باستمرار - حاجباه يرتفعان وينخفضان، جبهته تتجعّد، فمه ينفتح في دهشة مرحة - لكي يُظهر لي كم يجد إهانات باري مسلية، ثم أغلق الخط، وهو متشوّق لإبلاغي بما سمعه.

- ستحبين هذه.

ضحك، بعينين لامعتين. أطلق الهاتف صافرة أخرى في يده.

- انتظري، لقد ترك واحدة أخرى! هذا الرجل غير طبيعي.

قهقه، وهو يتسلى بالمتعة التي يوفّرها له التلصّص على حياتي الخاصة. وقال يغيظني:

- يا لباري الطيب!

طلب رقم بريدي الصوتي ثانية، وأنصت. تجمّدت الابتسامة، واختفت اللمعة من عينيه.

دقّ قلبي.

بعدها بثلاثين ثانية قفز أرضاً من فوق الطاولة - ليس مسقطاً عالياً إذ كانت ساقاه طويلتين جداً - وناولني الهاتف. تجنّب النظر في عينيّ، ثم اتجه مرتبكاً إلى خارج الغرفة.

- ماذا قال؟

- آه، لا شيء مثير.

- آدم! لقد كنت تتحرّق شوقاً لإخباري بالرسالة الأولى.

- آه، هذه، نعم، طيب، كانت شيئاً غبياً عن صديقتك. فتاة تدعى جولي قال إنها عاهرة - لا، انتظري: فاسقة. كان يراها تخرج مع رجال مختلفين طوال الوقت. قابلها في شارع ليسون ذات ليلة وكانت مع رجل يعرف أنه متزوج.

هزّ كتفيه.

- كان لديه ما يقوله بشأن اختيارها لملابسها.

- وأنت وجدت ذلك مضحكاً؟

- يعني، كانت لغته استثنائية إلى حدّ بعيد.

ابتسم ابتسامة صغيرة. ثم ابتسامة حزينة.

هززت رأسي. كانت جولي واحدة من أقرب صديقاتي من أيام الجامعة، وهي نفسها جولي التي كانت قد انتقلت إلى تورنتو وتركت لي سيارتها لكي أبيعها لها. إنّ محاولات باري لا تتوقف.

- وماذا عن الرسالة الثانية؟

واصل طريقه إلى الخارج.

- آدم!

- لا شيء فعلاً. لم أفهم منها شيئاً. كانت أشبه بخطبة تقريع غاضبة... غضب.

نظر إليّ بصمت، ثم غادر الغرفة.

نظرته لي، المليئة بالتعاطف، بالشفقة... بالخداع؟ لم أستطع أن أحدّد، لكنها أزعجتني. طلبتُ رقم بريدي الصوتي.

- ليست لديك رسائل جديدة.

تبعته إلى غرفة الجلوس:

- آدم، أنت مسحت الرسائل!

- هل مسحتها؟ آسف.

ظلّ مركزاً على جهاز الكمبيوتر.

- لقد فعلتَ ذلك عمداً.

- فعلاً؟

- ماذا قال؟ أخبرني.

- لقد أخبرتك: صديقتك جولي فاسقة. بالمناسبة، أظنني يجب أن أقابلها، تبدو مثيرة للاهتمام.

مازحني، محاولاً تلطيف الأجواء.

طلبت منه:

- أخبرني بالرسالة الثانية.

- لا أتذكر.

صرختُ وأنا أقف أمامه:

- آدم، إنها رسائلي اللعينة، أخبرني الآن!

لم يفعل صراخي شيئاً لتغيير موقفه. فكّرت أنه قد يثيره، لكن كان له تأثير عكسي، هدأت أعصابه، وكان متعاطفاً، وهو ما زاد من غضبي.

قال:

- لا تريدين أن تعرفي. طيب؟

من الطريقة التي تفحّصني بها، أرعبني التفكير في ماهية المعلومات الشخصية التي كشفها باري. كان من الواضح أنني لن أستخرج منه أية معلومات، ليس في ذلك الوقت بأية حال، وهكذا غادرت الغرفة. أردت أن أخرج خروجاً عاصفاً، بعيداً عنه، خارج الشقة، فقط لكي أبقى بمفردي أصرخ وأزعق أو أبكي أو أنتحب من الإحباط من الطريقة التي أصبحت عليها حياتي خارجة عن السيطرة إلى هذا الحدّ، لكنني لم أستطِع. شعرت أنني مربوطة به، مثل أم مع طفلها، غير قادرة على تركه حتى إن أردتُ في تلك اللحظة. كان مسؤولاً مني، طوال الوقت، وعلى نحو مستمر، ليلاً ونهاراً. كنت بحاجة إلى مراقبته حتى وإن كان في هذه اللحظة، بفضل ما قاله باري أياً كان، يشعر فيما يبدو أنه مسؤول عن حمايتي.

لم يستغرق الأمر طويلاً لكي أدرك أن مزاجات آدم تستعصي على التوقّع. في لحظة تجده يشارك في الحوار، وأحياناً يقوده، وفي أوقات أخرى تجده لا يكاد يتحمّله، ثم فجأة يغيب. يغيب تماماً. يتراجع إلى داخل عقله، وعلى وجهه نظرة شديدة الضياع، وأحياناً

شديدة الغضب، حتى أنني أرتعب من التفكير فيما يفكّر فيه. يمكن للذلك أن يحدث في منتصف الكلام، في منتصف الجملة، وحتى في منتصف جملته هو، ويمكن أن يستمر لساعات. يوصد على نفسه تماماً. وهذا ما حدث بعدما صرخت فيه لأنه مسح بريدي الصوتي. راقبته وهو يغيب مجدداً لساعة في حالة تشبه الغيبوبة على الكنبة، كارهاً الحياة، كارهاً نفسه، كارهاً كل شخص وكل شيء حوله، لذا تقدّمت لأعالج ذلك الأمر.

رميتُ عليه معطفه وأنا أقول:

- طيب، هيا نذهب.

- لن أذهب إلى أي مكان.

- بل ستذهب. هل تريد أن تختفي؟

نظر إليّ في حيرة.

قلت له:

- تريد أن تختفي. تريد أن تضيع؟ طيب. هيا نضيع.

كانت أليشا ذات الأعوام الثلاثة تجلس على الدرج الأمامي لشرفة بيتها وإلى جوارها مقعد سيارة. كانت أليشا أصغر أطفال بريندا وكجزء من واجباتي كخالة، التي كنت أستمتع بها أيما استمتاع - والتي أمارسها مع أليشا في أغلب الأحيان، إذ لم أستطع التواصل بشكل كبير مع الصبيان الذين ما إن أدخل من الباب حتى يرغبون في تقييدي بالحبال وهم يتصايحون معلنين أنهم سيقومون بشوائي على السيخ - كنت آخذها ونخرج لبضع ساعات كل أسبوع. كانت رحلاتنا النهارية في صورتها تلك قد بدأت قبل أربعة أشهر، تقريباً في الوقت نفسه الذي بدأتُ فيه التفكير في الانفصال عن زوجي.

كنت أقود السيارة بصحبة أليشا إلى مركز ألعاب أستطيع أن أترك لها فيه الحبل على الغارب في حجرة مبنية بالكامل من الإسفنج وأظلّ أراقبها وهي تنط من حائط إلى حائط وتقفز من أعلى الدرج في أحواض من الكرات البلاستيكية، ثم أحاول إخفاء تعبير الرعب عندما تنظر إليّ لترى إن كنت أراقبها. في الطريق إلى مركز الألعاب، أعلنت أليشا، عند الإشارة الضوئية التي ننعطف عندها يميناً عادة، أنها تريد الانعطاف إلى اليسار. ولما كنت غير متعجلة رؤيتها محشورة وهي تزحف بين أسطوانتين دوارتين مبطّنتين باسم المتعة، ولمّا كنت في حالة تأمّلية بعد أن تخيّلت نفسي الليلة السابقة برفقة رجل آخر، انعطفتُ يساراً ثم سألتُ أليشا أي اتجاه تريد أن نسلكه بعد ذلك. وعلى مدار ساعة ظللنا نلفّ وندور، ننعطف عندما تأمر أليشا. ثم صرنا نفعل ذلك كلّ أسبوع، ودائماً ما ننتهي في أماكن مختلفة. كان ذلك يسمح لي بالتفكير، وكان يمرّر الوقت، وكان يتيح لأليشا أن تمارس سلطة على شخص بالغ.

إحدى النصائح الواردة في دليل **طرق بسيطة للاستمتاع بالحياة** كانت قضاء وقت بصحبة أطفال. وقال الدليل إنّ الاستطلاعات أظهرت أنّ السعادة التي يسببها الأطفال هائلة. ومع أنني كنت قد قرأتُ دراسات أخرى لا تقيّم ذلك بأكثر ممّا نقيّم جولات تسوق الطعام، فقد افترضتُ أنّ الأمر يتوقف على مدى حبّك للأطفال. كنت آمل أن تمثل تلك طريقة أخرى لفتح عيني آدم على جمال الحياة. كما أنه لن يُعتقل لمراقبة هذه الطفلة.

– أهلاً أليشا.

أعطيتها حضناً.

– أهلاً يا بوو بوو.

- لماذا تجلسين وحدك بالخارج؟

- «لي» تقول: بوو بوو.

لوَّحَت «لي»، جليسة الأطفال، من النافذة وبين ذراعيها غايدن ذو الأشهر الستة. فهمت من إشارتها أنني أستطيع أن آخذ أليشا ونخرج.

فتحتُ الباب الخلفي، ما أزعج آدم، الذي كان في ما يشبه الغيبوبة.

- تستطيع الجلوس في الخلف بجانب أليشا. هذا آدم، سيضيع معنا.

أردته أن يدخل في حوار معها؛ فإذا جلس في المقعد الأمامي، سيسهُل عليه تجاهلها.

- هل هو حبك الحقيقي الوحيد يا بوو بوو؟

- لا يا بوو بوو، ليس كذلك.

قرقَرت أليشا.

رفعتُ مقعد الأطفال وأدخلتُه في السيارة، ثم ساعدتُ أليشا على الجلوس. دخل آدم إلى جوارها، وهو لا يزال على انعزاله وراح ينظر من النافذة. ثم أخذ استراحة من حلم يقظته ليلقي نظرة على الطفلة اللطيفة ذات الأعوام الثلاثة وهي تُربط بالحزام إلى جواره. حدَّق كلّ منهما في الآخر. ولم ينطق أي منهما بكلمة.

سألتُ:

- كيف كانت الحضانة اليوم؟

- جيدة يا بوو بوو.

- هل ستقولين بوو بوو في كل جملة؟

- نعم يا ويي ويي.

بدا آدم متحيّراً، لكن مستمتعاً.
سألتُه:
- هل لديك أطفال في عائلتك؟
- نعم، طفلا لافينيا. لكنهما وغدان مغروران. وربما كان فقدان منزلهما هو أفضل ما حدث لهما.
- رائع.
أثنيتُ عليه، ساخرة، فأجفل وقال:
- آسف!
راقبتهما في المرآة.
سأل آدم أليشا:
- كم عمرك إذاً؟
رفعت أليشا أربعة أصابع.
- عمرك أربعة؟
قلت:
- ثلاثة.
قال لها آدم بنبرة اتهامية:
- والواضح أنك كذابة.
- انظر أنفي، ووووو!
تظاهرَت أليشا أن أنفها يطُول.
سأل آدم:
- إلى أين نذهب؟
قالت أليشا:
- يسار.
- عمرها ثلاث سنوات وتعرف الاتجاهات؟

ابتسمتُ وأعطيتُ إشارة إلى اليسار. عندما وصلتُ إلى نهاية الطريق، نظرتُ إلى أليشا في المرآة.

قالت أليشا:

- يمين.

فانعطفتُ يميناً.

استدار آدم إلى أليشا:

- بجد، هل تعرفين الاتجاهات؟

قالت أليشا:

- نعم.

- كيف، عمرك ثلاث سنوات فقط!

رمت رأسها إلى الخلف وضحكت:

- أعرف كلّ الاتجاهات. لكلّ الأماكن. في كل العالم. تريد أن تذهب إلى شارع بوو بوو؟

رحنا ندخل في منعطفات مختلفة، يساراً، يميناً، إلى الأمام، بحسب توجيهات أليشا. مرت عشر دقائق.

سأل آدم:

- طيب، هل يمكنني أن أسأل إلى أين نذهب تحديداً؟

قالت أليشا مرة أخرى:

- يسار.

سألني:

- أعرف أننا سنذهب يساراً، لكن يساراً إلى أين؟

قلت:

- هذه هي طريقتنا في الضياع.

سأل:

- إذاً، فنحن نلفّ وندور بالسيارة، ونأخذ الاتجاهات من طفلة؟

- بالضبط. وفي النهاية نبحث عن طريق العودة.

- إلى متى؟

- بضع ساعات.

- وكم مرة تفعلان ذلك؟

- عادة في أيام الأحد. هذه نزهة إضافية خاصة. الأمر يكون أفضل عندما لا تكون الطرق مزدحمة. إنه شيء شيّق. القاعدة الوحيدة هي أنّ الطرق السريعة خارج الحدود. ذات مرة انتهينا إلى جبال دبلن، وفي مرة أخرى إلى شاطئ مالهايد. عندما نصل إلى مكان ويعجبنا، نخرج ونلقي نظرة حولنا. نكتشف أشياء جديدة كلّ أسبوع. أحياناً لا نغادر كلونتارف ونظلّ ندور في دوائر، لكنها لا تلاحظ ذلك.

صاح آدم:

- يمين.

ضحكت أليشا:

- هذا البحر يا بوو بوو.

قال آدم، راغباً في إنهاء الأمر:

- بالضبط.

ظلّ صامتاً لخمس عشرة دقيقة حيث اختفى داخل مزاج ما، ثم قال فجأة:

- أريد أن أجرّب. هل أستطيع أن أقول الاتجاهات؟

ردّت أليشا بحدّة:

- لا!

قلت لها محذرة:

- أليشا!

سأل آدم:

- هل أستطيع أن أقول الاتجهات؟ من فضلك يا بوو بوو.

ضحكت أليشا:

- طيب.

فكر آدم بقوة:

- تمام. انعطفي يساراً عند الإشارة.

تفحصتُه في المرآة.

- لا يمكنك أن تأخذنا إلى بيت ماريا.

احتدّ قائلاً:

- لا آخذكم إلى هناك.

انعطفنا يساراً ومضينا لبضع دقائق. وصلنا إلى جدار، طريق مسدود تماماً.

قلت، وأنا أحرك ناقل الحركة إلى الخلف:

- أقسم أن هذا لم يحدث من قبل.

عقد آدم ذراعيه بسخط:

- أمر متوقع.

قالت أليشا، وقد شعرت بالأسف لأجله:

- حاول مرة أخرى يا بوو بوو.

قال آدم:

- هناك طريق صغير من هذا الاتجاه.

- إنه طريق ترابي وليست لدينا فكرة إلى أين سيأخذنا.

- سيأخذنا إلى مكان ما.

انعطفت يساراً. رن هاتفي ففتحت السماعة الخارجية.

- كريستين، هذا أنا.

- أوسكار، أهلاً

- أنا في موقف الحافلات.

- عظيم. كيف تشعر؟

- لست بخير. لا أصدق أنك في إجازة أسبوعين.

- آسفة. لكنني دائماً متاحة على الهاتف.

كان صوته يرتعش:

- أتمنى حقاً لو أنك كنت هنا شخصياً. ربما يمكنك مقابلتي، ربما تستقلين الحافلة معي؟

- لا أستطيع أن أفعل هذا يا أوسكار. أنا آسفة، تعرف أنني لا أستطيع أن أفعل هذا.

قال بحزن:

- أعرف، أعرف، تقولين إن ذلك ليس احترافياً.

أنا مستعدة للخروج عن مساري من أجل مساعدة عملائي، لكنني لن أسمح لنفسي باستقلال الحافلات مع أوسكار. نظرتُ إلى آدم في المرآة لأرى إن كان قد سمع فوجدته يبتسم هازئاً لتعليماتي مقارنة بسيناريو وضعنا الحالي. أصررتُ قائلة:

- تستطيع أن تفعلها يا أوسكار. خذ أنفاساً عميقة، واسمح لجسدك بالاسترخاء.

كنت مشتّتة للغاية وأنا أتكلم مع أوسكار إلى حدّ أنني ر ت أمضي في الطريق الريفي بذهن شارد، حيث تترامى الحقول الخضراء على الجانبين. كان طريقاً لم يسبق لي أن مضيت فيه من قبل. من

وقت إلى آخر، عندما كنّا نصل إلى مفترق، كنت أسمع إما آدم أو أليشا يصيحان باتجاه ما. أخيراً استطاع أوسكار أن يقطع أربع محطات وكان مغتبطاً؛ أغلق الخط، وهو يتراقص طرباً في طريق عودته إلى منزله. بدأ هاتف آدم، الذي كان في مقدمة السيارة إلى جوار هاتفي، في الرنين. ورأيت اسم ماريا على الشاشة. أجبت من دون أن يلاحظ آدم وتلك المرة لم أشغل بالي بفتح السماعة الخارجية.

قالت ماريا، عندما سمعَت صوتي:

- آه، أهلاً. أنتِ مرة أخرى؟

- أهلاً أهلاً.

أجبتها، حريصة على ألّا أذكر اسمها تحسباً لأن يخطف آدم الهاتف من يدي.

- هل تعملين في خدمة الرسائل الآن؟

هكذا سألَت ماريا، وهي تحاول أن تبدو مازحة، وإن عجزَت عن إخفاء الحدّة في صوتها.

ضحكتُ ضحكة مقتضبة، وكأنني لم ألحظ.

- طبعاً أشعر أنني كذلك. كيف أساعدك؟

- كيف تساعدينني؟ طيب. أريد التحدث إلى آدم.

كانت فظة، ولاذعة، وراحت تنطق الكلمات كلمة كلمة.

قلت بنبرة ودودة، إذ لم أرغب في منحها مبرراً للصراخ فيّ:

- أنا آسفة، لا يستطيع التحدث الآن. هل أنقل له رسالة؟

- طيب، هل وصلته رسالتي الأخيرة صباح أمس؟

- بالطبع. أخبرته على الفور.

- ولماذا لم يتّصل بي إذن؟

كنا نقترب من تقاطع، وصاح آدم فجأة، وهو يقطع ثرثرته مع أليشا:

- يسار.

قالت أليشا:

- يمين.

صاح آدم:

- انعطفي يساراً.

كانت أليشا تقرقر وراح كلاهما يصرخان. ثم بدأ آدم يضع يده على فم أليشا وراحت هي تصرخ. ثم عوى هو لأنها لعقت يده. كان الجو صاخباً، وكنت بالكاد أسمع ماريا.

- لا يمكنك لومه على أنه لم يتصل بك بعدما رأى ما رآه.

قلتها بلطف، من دون عتاب، من دون إطلاق أحكام، حقيقة بسيطة وضعَت ماريا في مكانها.

- صحيح. نعم. هل هذا صوته؟

- نعم.

- يسار!

صرخ آدم، وهو يسدّ فم أليشا مرة أخرى حتى لا تستطيع الصراخ بالاتجاهات.

زمجرَت أليشا بضحكة متذمرة.

- لا تلعقيني ثانية.

حذرها مداعباً، ثم سحب يده بسرعة، وكأنه تألّم.

- آه، لقد عضّتني.

صرخت أليشا، ثم راحت تلهث.

- سأخبره أنك اتصلتِ. إنه مشغول في أمر ما، كما تسمعين.

- آه، طيب...

سألتها:

- لكن أخبريني، كيف يمكنه الوصول إليك اليوم؟ هل ستكونين في البيت أم في العمل؟

- سأظلّ في العمل لوقت متأخر. لكن لا يهم، يستطيع أن يصل إليّ عن طريق المحمول. هل لا يزال... تعرفين، غاضباً مني؟ إنه سؤال غبي، بالطبع غاضب. لو كنت مكانه لغضبت. لا أقول إنه... تعرفين...

لم أسمع تقريباً بقية كلام ماريا حيث بدأ المخبولان من خلفي ينفجران في مزيد من الضحك.

سأل آدم عندما انتهت المكالمة:

- مَن كان ذلك؟

- ماريا.

اعتدل في جلسته:

- ماريا؟ لماذا اتصلَت على هاتفك؟

- إنه هاتفك. لا أسرار، هل تتذكر؟

- ولماذا لم تخبريني بحق الجحيم؟

- لأنك كنت ستتوقف عن الضحك، وقد كنت تقضي وقتاً رائعاً.

فكَّر آدم في الأمر.

- لكنني أريدها أن تعرف أنني أشتاق إليها.

- ثِقْ بي يا آدم، الأفضل أن تسمعك تضحك من أن تسمعك تبكي. فإن ظهرتَ بائساً ستفكر هي أنها كانت محقّة في اختيار شون.

- طيب.

ظلّ صامتاً لفترة وظننتُ أنني فقدته. ألقيتُ نظرة على أليشا لأرى إن كانت بخير. كانت تتمشى بأصابعها على النافذة.

- هاي، كانت تلك فكرة مثيرة للاهتمام.

قال تلك الملاحظة، فرأيت فيها أكبر قدر من الإيجابية سمعته منه.

- عظيم.

قلتها بسعادة، ثم كان عليّ أن أدوس بقدمي على الفرامل فوراً إذ رحنا نقترب من سيارتين أمامنا.

لم يكن هناك مجال إلّا لسيارة واحدة على الطريق، لكن أمامنا استطاعت سيارتان أن تنحشرا جنباً إلى جنب. كانت إحداهما تواجهنا، والأخرى تتجه في لاتجاه المعاكس. كانت أبوابهما متلاصقة فعلياً، ونوافذهما مسوَّدة. وعندما أدركت أنني لا يجب أن أحدّق، كان باب السيارة قد انفتح ونزل منها رجل بهيئة مخيفة وجاكيت جلدي أسود. كان طويلاً وضخماً جداً ولم يبدُ سعيداً برؤيتنا. شأنه في ذلك شأن الرجال الثلاثة الآخرين المحشورين كتفاً بكتف في مؤخرة السيارة، الذين التفتوا للتحديق فينا. كان الرجال في إحدى السيارتين ينظرون إلى الرجال في السيارة المجاورة. حرك الرجال رؤوسهم وهزوا أكتافهم بعصبية بالغة.

قلتُ بعصبية:

- آدم.

لم يسمعني آدم، كان مشغولاً بالكلام عن البوو بوو مع أليشا.

- آدم!

قلتها بمزيد من الاستعجال فرفع رأسه.

رفع عينيه في اللحظة نفسها ليرى الرجل الطويل المريض وهو يتقدم باتجاهنا وبيده مضرب «هيرلي»[1]

قال آدم متعجلاً:

- ارجعي. ارجعي يا كريستين - الآن!

- لا! يسارا

زعقَت أليشا وهي تقرقر، متصورة أننا ما زلنا نلعب.

- كريستين!

- أنا أحاول.

كانت أسطوانة «الدبرياج» تزمجر في غضب، وكنت مذعورة جداً إلى حد أنني لم أستطع ضبط ناقل الحركة على الوضعية الصحيحة.

صرخ آدم:

- كريستين!

تقدَّم الرجل الضخم خطوة أخرى من السيارة، وتفحصنا من وراء الزجاج، والتقط رقم هاتفي المكتوب تحت لافتة «للبيع» على الزجاج الأمامي. ثم نظر في عينيَّ وأرجع مضربه إلى الخلف. دُستُ بقدمي على دواسة السرعة فاندفعنا إلى الخلف بسرعة كبيرة حتى أنّ آدم ارتطم بمقعده الخلفي بكل قوة. لم يمنع هذا الرجل الضخم من الجري وراء السيارة، وهو يؤرجح المضرب. ظللتُ أنظر إلى الخلف، ورحت أرجع بقدر معقول من المهارة على الطريق

---

(1) مضرب «هيرلي» هو مضرب لعبة Hurling، وهي لعبة محلية إيرلندية لها أصول تاريخية قديمة، تُلعب في ملعب يشبه كرة القدم، بين فريقين يتكون كل منهم من 15 لاعباً، يمسكون بمضارب خشبية، لكل منها رأس مفلطحة منحنية (المترجم).

المستقيم، الذي بدأ عندها ينحرف بزوايا شديدة الحدة لم ألحظها عندما كنت على الهاتف.

- اللعنة، هناك المزيد منهم!

قالها آدم، فنظرتُ ورائي من الزجاج الأمامي لأرى ثلاثة رجال يخرجون من السيارة. صرخ قائلاً:

- ابقِ عينيك على الطريق.

- آه، اللعـ.

بدأت ألعن، ثم تذكرت أليشا، فقلت:

- بوو، بوو، بوو، بوو، بوو.

وظللتُ أكررها مرة بعد مرة.

زمجرَت أليشا من الضحك وانضمت إلي:

- بوو! بوو! بوو!

قال:

- ارجعي بأقصى سرعة.

قلت وأنا أصدم السيارة في شجيرة أخرى:

- لا أستطيع. الطريق ملتوي.

- أعرف، فقط ركزي. وارجعي أسرع.

- هل يلاحقوننا؟

لم يردّ.

- هل يلاحقوننا؟

لم أستطع أن أمنع نفسي. كان يجب أن أعرف. أدرت و-هي إلى الأمام فرأيت النوافذ المسوَّدة تتقدم باتجاهنا.

- يا إلهي!

- لماذا نرجع إلى الوراء؟

سألت أليشا، وقد أنهت ضحكها أخيراً وبدأت تستشعر حالة الذعر في السيارة. أخيراً أتيحت لي فرصة الدخول في طريق ممهّد، وهو ما فعلته بسرعة وخبرة شديدتين، ثم انطلقت، ورحت آخذ سلسلة من المنعطفات إلى اليسار وإلى اليمين بينما يتعالى صوت أليشا تأمرني بالاتجاهات، من دون أن تلاحظ أنني لا أنفذ تعليماتها. عندما وصلنا إلى منطقة سكنية بها بعض الحياة، خففتُ السرعة، لكنني واصلت الدخول في سلسلة من المنعطفات يميناً ويساراً.

قال آدم، وأنا ألفُّ في طريق ملتوية للمرة الثالثة:

- طيب، أعتقد أن بإمكانك التوقف الآن. لا أحد وراءنا.

أنشدت أليشا:

- هواا، هواا، هواا، أنا دائخة.

قال آدم:

- وأنا سأتقيأ.

أعطيتُ إشارة، وخرجتُ من الطريق الملتوية. أعدت أليشا إلى بيتها، حيث بذلت قصارى جهدي لكي أشرح لبريندا لماذا لا تكفّ أليشا عن الصياح بإثارة: «إلى الوراء!» وهي تجري بظهرها بأقصى سرعة حول المنزل وترتطم بكلّ شيء.

جلست بريندا على الطاولة وسحبت كرسياً لآدم بطريقتها المعتادة، التي لا تترك للناس أية فرصة في الرفض.

- إذاً يا آدم، هل نجحت أساليب أختي في مساعدتك على الاستمتاع بالحياة؟

- حتى الآن تناولنا الطعام، وتمشينا في الحديقة، وتنزهنا بالسيارة مع طفلة.

- مفهوم. كيف كان الطعام؟

- الحقيقة أنه قلب معدتي.

- أمر شيق. وكيف كانت الحديقة؟

- قبضوا عليّ.

رددتُ بحدة، وأنا مستاءة من التشكيك في مهاراتي العلاجية:

- لم يقبضوا عليك، كل ما في الأمر أنهم احتجزوك في زنزانة حتى تهدأ.

وأكملَت بريندا بدلاً منا:

- والنزهة بالسيارة انتهت إلى الدخول وسط عملية بيع مخدرات.

ظللنا صامتين. ثم أسندت بريندا رأسها إلى الوراء وراحت تضحك قبل أن تغير الموضوع:

- قل لي يا آدم، حفلتك هذه، هل هي بالملابس الرسمية؟

- نصف رسمية.

- ممتاز. لقد رأيت الفستان المناسب في محل «بايس». وربما أشتري حذاء أيضاً لينسجم معه. طيب.

نهضَت وهي تتابع:

- يجب أن أذهب لإعداد العشاء لغايدن. الأجدر بكما أن تطيرا من هنا وإلّا سينتهي بي الأمر إلى طهو مؤخرتكما!!

نظر آدم تجاهي وعلى وجهه ذلك التعبير المستمتع الذي ينير عينيه. تلك المرة لم أعبأ أن يجيء استمتاعه على حساب أسرتي

المجنونة وطرقي الكارثية في الاستمتاع بالحياة، كنت سعيدة برؤيته حياً فقط.

فقط عندما رجعنا بالسيارة إلى الشقة لجلب وسادة الزنبق، وعدنا إلى السيارة بعد بضع دقائق داخل المنزل، اكتشفنا أن زجاج السيارة الأمامي مهشّم بالكامل.

12

كيف تحل مشكلة مثل ماريا

كانت ماريا تعمل في منطقة «رصيف غراند كنال» في ناطحة سحاب حديثة تشبه رقعة الشطرنج من الخارج. كنت ساعتني بأمر توصيل وسادة الزنبق؛ إذ كان آدم متأكداً أنّ ماريا سوف تنزل بنفسها إلى الاستقبال لكي توقّع بالاستلام عندما تعرف أنها منه. كان قد تلقى تعليمات صارمة بأن يظلّ في الخارج، لكن في مكان يسمح له بملاحظة ردّة فعلها. ولما كان المبنى يبدو وكأنه قد شيِّد بالكامل من الزجاج والصُلب، فقد كانت لديه العديد من نقاط المراقبة؛ المشكلة كانت في ضمان ألّا تراه. أردتُ أن تأتي لحظة لمّ الشمل بين ماريا وآدم عندما يكون مستعداً. وهو لم يكن مستعداً على الإطلاق.

شعرتُ بشعور غريب تجاه لقائي بماريا. ماريا. المرأة التي صرت أعرف تفاصيلها الحميمة والتي تكلمت معها عبر الهاتف مرتين والتي كانت السبب، أو أحد الأسباب التي أوصلت آدم، آدم الجميل، إلى لحظة صارت معها حياته على المحكّ. وفيما كنت أسير على الأرضية الرخامية وكعبا حذائي يدقّان ما جعل الصف الطويل من موظفي الاستقبال يرفعون رؤوسهم ويتطلعون إليّ، أدركتُ أنني أكره ماريا. ويا له من توقيت. لم يسعني إلّا أن أمنع

نفسي من لومها لكونها تمتلك تلك السلطة على رجل يُفترض أنها تحبه لكنها غافلة لا تعرف كيف أثّر فيه هجرانها له. عندما فكرتُ فيما كان يعانيه تلك اللحظة من أجل استعادتها، بينما تقف هي هنا من دون أدنى فكرة، راح دمي يغلي. ومرة أخرى لم يكن التوقيت جيداً، إذ لم يكن مناسباً أن أشعر بذلك بينما يُفترض أن ألعب دوراً محايداً، لكنني لم أستطِع أن أشعر بأيّ قدر من عدم الانحياز في تلك اللحظة.

منطقياً، كنت أعرف أنّ الخطأ ليس خطأ ماريا. ولو كانت ماريا صديقة أسرَّت لي بسلوك آدم، فعلى الأرجح كنت سأؤيد قرارها بأن تهجره بمجرد أن تفشل كلّ محاولاتها لإنقاذ العلاقة، لكن المرأة أثارت غيظي مع ذلك. كنت أعرف أن عليّ أن أنصح آدم بالمضيّ قدماً، بألّا يحاول استعادتها. كانت مع شخص آخر بالفعل، صديقه؛ كانت قد مضت قدماً. هل كان رفضاً آخر سيحطّمه أكثر وأكثر؟ نعم. سوف يقتله. كنت أعرف ذلك. وكنت أحتاج أن تنجح علاقتهما من أجل حياة آدم. وهو ما ردّني إلى كراهية ماريا.

قلت لموظف الاستقبال:

- لدي طرد لماريا هارتي في شركة «رد لبس برودكشنز».
- أقول لها مِن مَن؟
- آدم بازل.

كان بوسعي أن أرى آدم في الخارج، قبعته الصوف مكبوسة على رأسه، ومعطفه الصوفي المغلق حتى ذقنه، وجهه يكاد يختفي عن الأنظار، وما ظهر من جلده كان محمرّاً من البرد. كان عليّ أن أتأكد من الوقوف بطريقة تسمح لآدم برؤية ردّة فعلها. كنت آمل فقط ألّا تلقي ماريا بوسادة الزنبق على الأرض وتدوسها بقدميها في كلّ

موضع. كنت أعتقد أنني لن أستطيع الوصول إليه في الوقت المناسب إن أراد القفز من فوق الحافة إلى القناة.

انفتح باب المصعد وخرجت منه دمية في جينز أسود ملتصق، وحذاء برقبة، و«تي شيرت» عليه امرأة عارية في وضعية موحية، وشعر أسود كالحبر كان كثيفاً ولامعاً ويرسم إطاراً لذقنها الشبيهة بذقن الدمية، شعر مقصوص بحدة عند الجبهة، وعينان زرقاوان كبيرتان، وأنف مثالي، وشفتان حمراوان، حمراوان. لم أكن لأتصور أن تلك يمكن أن تكون ماريا. كنت قد تصوّرتها أشبه بموظفات الشركات، فانتظرتُ ظهور بدلة، ولكن فور أن رأيتها، عرفت. كانت الشفتان الحمراوان هما ما كشفتاها، وفجأة بدأ اسم الشركة يصير مفهوماً (الشفاه الحمراء). عرفتُ أنها هي لكنني لم أستطع أن أنادي عليها وأنا أراها تقطع البهو باتجاه الاستقبال. تخيّلتها هي وآدم يشكلان ثنائياً مدهشاً، تدور له الرؤوس أينما ذهبا، وفي تلك اللحظة كرهتُ ماريا أكثر. تلك الغيرة النسائية القديمة الطيبة. وانزعجتُ من نفسي؛ لم يسبق لي من قبل وأن وقعت فريسة لهذا النوع من التفكير. لم أكن من هذا النوع. لكنني كنت سعيدة دوماً، مستقرة في حياتي، والآن لم أعد كذلك، وهكذا صار أي شيء آمن، أي شخص آمن، يطيح بثقتي المهتزّة أصلاً كما تطيح كرة بالقناني الخشبية.

أشار موظف الاستقبال تجاهي، فنظرت ماريا إليّ. في تلك الأيام قبل أن يخاصمني بيتر وبول، كانا يستقبلانني في الصباح باسم «السيدة الكاجوال»، لأنّ الجينز كان هو الزي الأساسي في دولاب ملابسي. وليس الجينز العادي فقط، بل كان لدي جينز بكل لون من ألوان الطيف، وكذلك كانت ألوان بقية ملابسي. كان دولاب

ملابسي أشبه بـ«مشكال»[1] رائع، الغرض منه إضفاء البهجة على يومي حتى عندما تعاكسني كلّ الأمور الأخرى. تحوّلت من الدولاب الكالح الذي لا يضمّ إلّا اللون الأسود والبيج إلى هذه الألوان المتفجرة في منتصف عشرينياتي. وصرت أرتدي على الأقل قطعة ملونة واحدة بعدما قرأت كتاب كيف نثري روحنا من خلال الألوان التي نرتديها، الذي علمني أنّ بشرتنا وروحنا يستمدان طاقة من الألوان التي نرتديها، وأن ارتداء الألوان الداكنة يستنزفنا. إنّ أجسادنا تتوق إلى الألوان قدر احتياجها إلى الشمس، مع ذلك ها هي ماريا، بزي أسود تماماً لكنها في غاية الظرف، وكأنها خرجت لتوها من محلّ «أول سينتس»، وها أنا، مثل كيس من حلوى «سكيتلز» الملونة، شعري الطويل، المجعد، الأصفر بلون الرمال تحت قبعة صوف مقلمة تبدو وكأنني قد سرقتها من كواليس مسلسل عرائس «زينجزيلا». كنت أعتني جيداً بشعري الأشقر المجعد كأنه شعر «شاطئ»، وأصففه كل أسبوع، فأشعثه وأنفشه حتى يبدو وكأنه لا يبالي، وكأنه لا يعاني من أية مشكلة في العالم، لكن الحقيقة أنه كان يبالي، كان فقط يتظاهر بأنه لا يبالي. كان شعري يقهقه ويتغنج، كان يتطاير مع النسيم، بينما كان شعر ماريا، ذلك المقصوص بشكل مستقيم يجاري آخر صيحات الموضة، يضحك في وجه الخطر، كان يستحضر التمرّد.

فور أن وقعت عينا ماريا على وسادة الزنبق بين ذراعيّ، ولم

(1) المشكال (Kaleidoscope): أداة بصرية تتكون من أنبوب مبطن بمرايا وبداخله خرز وأشياء صغيرة ملونة، حين تنظر إليه في الأضواء المختلفة والزوايا المختلفة تظهر لك أشكال هندسية ملونة (المترجم).

يكن من الصعب رؤيتها، أشرقَ وجهها. اكتسحتني الراحة وخُفت أن أستدير لأرى ردة فعل آدم تحسباً لأن تنتبه ماريا إلى مكانه. وضعَت يديها على فمها وراحت تضحك، محاولة ألّا تجذب الكثير من الانتباه، ولو أنني خمّنت أن زملاءها سرعان ما سيتداولون الخبر، أن شخصاً أرسل وسادة زنبق لماريا هارتي.

- يا إلهي!

مسحَت عينيها المبللتين. كانت دموع فرح ولكنها أيضاً دموع ذكرى مفاجئة لشخص من زمن آخر. مدّت يدها لتأخذ الوسادة، وهي تبتسم وتقول:

- هذه غالباً أغرب عملية توصيل قمتِ بها. يا إلهي. لا أصدّق أنه فعل هذا. ظننته قد نسيَ. كان ذلك منذ زمن بعيد، بعيد.

كانت تمسك وسادة الزنبق بين ذراعيها. وفجأة شعرَت بالحرج، وقالت:

- اعذريني، أنت لست بحاجة إلى أن يُسمعك الناس قصصاً كهذه. أنا متأكدة أن لديك عملية توصيل في مكان آخر. أين أوقّع؟

- ماريا، أنا كريستين، تكلّمنا في الهاتف.

- كريستين...

قطبَت جبينها قبل أن تتذكر.

- آه. كريستين. هل هذا اسمك؟ أنت التي تردّين على هاتف آدم؟

- هي أنا.

- آه.

رفعت ماريا رأسها، وقيّمتني في ثوانٍ.

- لم أظن أنك شابة. أقصد، صوتك أكبر كثيراً في الهاتف.

- أوه.

شعرتُ بدفء داخلي، وأعجبتني ردة فعلها، لكنني كنت أعرف أنه شعور لا يصح.

عمَّ صمتٌ مرتبك.

- هل جلبها من أجلي فعلاً؟

قلت وأنا لا أزال أشعر بالبرودة في رأسي:

- طبعاً. غاص في درجة حرارة تحت الصفر. وخرج وملابسه مشبعة بالمياه، وشفتاه زرقاوان، وكل شيء.

هزّت ماريا رأسها.

- إنه مجنون.

- مجنون بكِ.

- هل هذا ما يقوله لي؟ إنه لا يزال يحبني؟

أومأتُ برأسي.

- يحبك فعلاً.

ولسبب ما شعرتُ بغصّة في حلقي. ربما كان التوقيت سيئاً. تنحنحتُ:

- فكرت أن عليه أن يرسل أزهاراً، لكنه أصرّ على هذه. لا أعرف إن كانت تعني شيئاً بالنسبة لكِ.

نظرت ماريا إلى وسادة الزنبق وعندها فقط لاحظت الشفتين الصغيرتين الملفوفتين في ورق مفضّض أحمر. كان آدم قد أضافهما في الدقيقة الأخيرة قبل أن أدخل المبنى وفجأة بدأ كل شيء يكتسب معنى بالنسبة لي. وأدركت وقتها أنها شوكولاتة صغيرة من ذلك النوع الذي كان متناثراً على الفراش في فندق غريشام.

- ياه!

همسَت ماريا، وهي تلاحظها للمرة الأولى. حاولَت أن تلتقطها لكنها لم تستطع الإمساك بوسادة الزنبق الهائلة بيد واحدة.

أخذتها منها حتى تستطيع تفحص الشفتين الصغيرتين.

- لا أصدق أن شيئاً منها قد بقي. هل تعرفين ما هذه؟

هززت رأسي.

- لقد صنعها خصيصاً من أجلي في السنة التي التقينا فيها لأول مرة. الشفاه الحمراء هي، طيب، علامتي المميزة.

بدأت تفتح الورقة المفضضة وعندما رأت الشوكولاتة تحتها ضحكت.

- إنها حقيقية!

- آدم يعرف كيف يصنع شوكولاتة؟

ضحكتُ، وأنا أشعر بالشك. إذا كانت ماريا تريد تصديق ذلك فلا يجب أن أزرع الشك في عقلها، لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من السؤال.

ظلَّت تتفحصها وهي تقول:

- طيب، ليس شخصياً، بطبيعة الحال، ولكن الشركة. كان ذلك منتجاً تجريبياً، ولم يكن مفترض أن يرى النور أصلاً. ظننتُ أننا أكلناها كلها.

قلت، محاولة أن أربط الأمور:

- الشركة...

- لقد صمّمها من أجلي، ثم جعل الناس في بازل يصنعونها. وضع فيها مكسرات وبندق ولوز لأنه قال إنني مجنونة وعقلي مثل المكسرات.

ضحكَت، لكن ضحكتها علقت في حلقها وامتلأت عينيها بالدموع.

- اللعنة، آسفة.

أدارت ظهرها لمكتب الاستقبال وراحت تروِّح عن عينيها لتوقف الدموع.

في تلك اللحظة كنت مصدومة إلى حدّ ما لكنني حاولت التظاهر بأن كل شيء على ما يرام. كان بإمكاني أن أسأل ماريا عن آدم، وأن أعرف المزيد عنه، لكن لسبب ما لم أرد أن تكتشف ماريا أنني لا أعرف؛ وقد منعني إحساسي بعدم الأمان منذ رؤيتي من إنجاز مهمتي على أكمل وجه.

- لا داعي للأسف. ليس من السهل تذكر الأوقات الحلوة. لكنه أراد فعلاً أن يذكِّرك.

أومأت برأسها.

- قولي له إنني أتذكر.

قلت بإخلاص:

- إنه لا يزال موجوداً، تعرفين. لا يزال مرحاً وتلقائياً مثلما تذكرينه. ربما ليس بالطريقة نفسها حين كنتما معاً. ربما يكون هذا مستحيلاً على أيّ كان. لكنه يجعلني أضحك طوال الوقت.

تفحّصتني ماريا:

- فعلاً؟

شعرتُ بحرارة في وجنتي. كانت القبعة الصوفية، لا بد وأنها هي، بعد أن دخلت من البرودة الشديدة في الخارج إلى الحرارة الخانقة في البناية المكتبية، وبرودة الرأس التي كنت أعرف أنها ستصيبني بعدما نزلت البركة الباردة حدّ التجمد. مع ذلك لم أكن

لأخلع قبعتي، ليس في وجودها ووجود شعرها البديع، فمن يعرف ما الذي يختبئ تحت قبعتي!

- أنت تعتنين به فعلاً، أليس كذلك؟

- نعم.

لم أستطع تحمّل نظرتها أكثر من ذلك، فناولتها وسادة الزنبق وأنا أقول:

- يجب ان أتركك الآن لتعودي إلى عملك.

استرسلت ماريا قليلاً:

- أتمنى أنه يعرف كم هو محظوظ بوجودك.

لم أستطِع أن أمنع الدموع عن عينيّ.

- أنا فقط أؤدي وظيفتي.

ابتسمتُ لها ابتسامة مشرقة ومرحة وحاولت جاهدة ألا يبدو كلامي أشبه بالردّ السريع المبتذل المميز للأبطال الخارقين في الأفلام.

- وما هي وظيفتك؟

- صديقة.

قلتها وأنا أبتعد بضع خطوات.

- أنا صديقة، هذا هو كل شيء.

استدرتُ وغادرت، وأنا أشعر بوجهي يلتهب. كنت شاكرة للنسيم المثلج الذي ضرب خديّ فور أن خطوت إلى الخارج. ظللت أمشي، وأنا أشعر بعيني ماريا عليّ. وسعدت بانعطافي حول الناصية بأسرع ما استطعت، لكي أهرب من الأسطح الشفافة ويصبح ما بيننا طوب مصمت. توقفت على الفور وأسندت ظهري إلى الجدار، وأغمضتُ عينيّ وأنا أتذكر المحادثة مذعورة. ما الذي حلّ بي؟

لماذا تصرفتُ على هذا النحو؟ لقد تصرفَت ماريا وكأنها تعرف شيئاً عن مشاعري لم أعرفه أنا، جعلتني أشعر بالذنب، بأنني مثيرة للشفقة حين شعرَت بشيء لم أشعر به، لا يمكنني أن أشعر به. كان هدفي أن أجمعهما معاً، لا أن أبدأ في الإحساس بمشاعر تجاه آدم. هذا أمر مستحيل. أمر سخيف.

- أهلاً!

سمعتُ صوتاً متحمّساً يقولها بالقرب من أذني، فقفزتُ، مفزوعة.

- يا إلهي! آدم!

- ماذا حدث؟ هل تبكين؟

رددت بسرعة:

- لا، لا أبكي. أظنني مصابة ببوادر نزلة برد.

مسحت عينيَّ.

- طيب، ليست مفاجأة بعد السباحة في البرك في منتصف الليل. إذاً، ماذا قالت؟

كان أنفه في أنفي فعلياً حيث كان متحمّساً جداً، متشوّقاً جداً لسماع الكلمات.

- رأيتَ ردة فعلها.

ضرب بقبضته في الهواء وهو يقول:

- نعم! كان ذلك عظيماً. عظيماً جداً. وهل كانت تبكي؟ بدا عليها أنها كانت تبكي. تعرفين، ماريا لا تبكي قط، هذا حدثٌ جلل. وقد ظللتما تتكلمان طويلاً جداً - ماذا قالت؟

كان يتواثب حولي، ينطّ على قدميه، يفتش في وجهي عن كلّ علامة صغيرة ليعرف كيف جرى الأمر بالضبط.

قطعت عواطفي ببرودة وأخبرته بالقصة، باستثناء أفكاري الداخلية المعذّبة.

- سألَتني إذا كنت تحاول أن تخبرها بأنك ما زلت تحبها. قالت إنّ الرجل الذي يقفز في مياه درجة حرارتها تحت الصفر ليحضر وسادة زنبق لا بدّ وأنه يحب شخص ما حقاً. وقلت إنك، نعم، تحبّها.

- لكنني لم أفعل ذلك.

ثبّتني آدم بعينيه الزرقاوين هاتين، وهو ما كان عادة يجعل قلبي يضطرب لكنه لحظتها جعله يتألم.

- أنتِ فعلتِ ذلك لأجلي.

تبادلنا التحديق، ثم أشحتُ ببصري.

- ليست هذه هي المسألة، المسألة أنها فهمت المسألة!

بدأت أتحرك، كان عليّ أن أتحرك، كنت بحاجة إلى الابتعاد.

- كريستين؟ إلى أين تذهبين؟

- إلى أيّ مكان. أشعر بالبرد، أحتاج إلى الحركة.

- طيب، فكرة جيدة. هل أحبّت الشوكولاتة؟

- أغرِمَت بالشوكولاتة، الشوكولاتة هي التي جعلتها تبكي. هل صنعت لها شوكولاتة؟ هل أنت آدم بازل، كما في «مع بازل يحلو الغزل»؟

قلَب عينيه، لكن الانتشاء كان بادياً عليه من النتيجة.

- ماذا قالت؟

- تقريباً مارسَت الحب معها، كانت سعيدة جداً لأن تراها ثانية. أنت صنعت شوكولاتة لامرأة؟ يا إلهي! آدم، لقد كنت ماهراً.

- كنت؟!

- أنتَ تعرف قصدي. ستعود كما كنت ثانية.

قال بفخر:

- شوكولاتة محشوة بالمكسرات، والبندق، واللوز، لأنها مجنونة وعقلها مليء بالمكسرات.

- أعرف، لقد أخبرتني.

- فعلاً؟ ماذا قالت؟

كانت حماسته محبّبة، وهكذا أعدت سرد الحوار بأكمله، بعدما حذفت الجزء الذي استجوبتني فيه ماريا عن دوري في حياته. كنت لا أزال لا أتفهم هذا الجزء جيداً.

هززت رأسي وأنا ما زلت لا أصدق:

- أنت إذاً آدم بازل، صاحب شوكولاتة بازل. كان يجب أن تخبرني بالأمس. لقد أنكرتَ ذلك.

- لم أنكر. أتذكر أنني قلت «نعم، ومثل نبتة الريحان».

- آه، طيب، عندما ينتهي كلّ هذا سيكون عليك أن تصنع لي شوكولاتتي الخاصة، كدليل على امتنانك.

- سهلة. شوكولاتة بطعم القهوة السوداء.

قلّبتُ عينيّ:

- لا يبدو ذلك مبتكَراً.

حاول أن يُبهرني.

- مصنوعة على شكل فنجان اسبرسو.

- أتمنى أن يكون لديك فريق إبداعي جيد في بازل.

ضحك قائلاً:

- لماذا؟ لن تأكليها على أية حال.

مشينا صامتين. كان عليّ أن أطفئ عقلي، كنت أشعر بصداع

وكان التفكير يؤلمني، لذا سمحت له بأن يقودني. أمسكت بيده ونحن نقترب من جسر صمويل بيكيت؛ كانت حركة غريزية، خفتُ أن يقفز فجأة، حتى وأنا أعرف أنّ معنوياته مرتفعة بعد ردة فعل ماريا. ولم يعترض، بل أمسك هو أيضاً بيدي ونحن نمشي على الجسر، وعندما عبرناه لم يترك يدي.

سألته:

- أين تظن الشركة، بازل، أنك موجود؟

- تظن أنني أزور والدي. قالوا لي أن آخذ كلّ ما أحتاجه من وقت. أتساءل إن كانوا سيقبلون أن يستمر هذا الوقت بقية حياتي.

- أنا متأكدة أنّ ذلك سيسعدهم أكثر من البديل.

نظر إليّ بحدّة:

- لا يمكن أن يعرفوا.

- أنك حاولت الموت انتحاراً؟

ترك يدي تسقط.

- قلتُ لكِ ألّا تستخدمي هذه الكلمات.

- آدم، لو عرفوا أنك كنت تعيساً لدرجة أنك أردتَ إنهاء حياتك، أنا واثقة أن ذلك سيكون مخرجاً هائلاً من الوظيفة.

قال:

- هذا ليس مطروحاً وأنت تعرفين ذلك. ليس هذا هو السبب الذي جعلني أفعل ذلك.

تركنا صمتاً طويلاً.

- عليك أن تذهب لزيارة والدك.

قال، وقد عاد إليه الطرب لما حدث مع ماريا:

- ليس اليوم. اليوم يوم جميل. إلى أين الآن؟

- أنا متعبة قليلاً يا آدم. أعتقد أنني سأذهب إلى البيت لأستريح قليلاً.

بدا عليه الإحباط، ثم الاهتمام:

- هل أنت بخير؟

أومأت براسي وأردتُ أن أبدو مستبشرة:

- نعم. أحتاج فقط إلى أن أغفو قليلاً وسأكون على ما يرام.

- لقد اتفقت مع بات أن يمرّ علينا.

- بات مَن؟

- سائق والدي.

كررتُ:

- سائق والدك؟

- طيب، والدي في المستشفى، ولن يحتاجه، وأنت سيارتك خارج الخدمة. لذلك اتصلتُ ببات. وعلى أيّ حال فقد كان يشعر بالملل من الانتظار بلا عمل.

بعد لحظات، وصل بات في سيارة رولزرويس جديدة ثمنها مائتان وخمسون ألفاً. لا أعرف الكثير عن السيارات، لكن باري الذي لم يكن شغوفاً بأيّ شيء في الحياة كان شغوفاً بحقّ بالسيارات وكان دائماً يتكلم عن السيارات الجيدة التي لا يقودها إلا الحمقى. في رأي باري، كانت الرولزرويس هي السيارة التي يفضلها أكبر الحمقى. ألقيتُ التحية على بات السائق وجلستُ في السيارة. كانت دافئة دفئاً لذيذاً بعد البرد الشديد في الخارج. ولم يكن آدم قد أغلق الباب بعد؛ كان يحدّق فيّ، وعلى وجهه نظرة تأمل.

سألته:

- ماذا؟

قال ببساطة:

- بتلة وردة.

- أحبّ بتلة الوردة.

- والشوكولاتة ستكون على شكل بتلة.

اعترفت:

- أنتَ ماهر. وهذا سبب إضافي لكي أبقيك على قيد الحياة.

مازحني وهو يغلق الباب:

- تقصدين أن هناك أكثر من سبب؟

نعم، هكذا قلت لنفسي وأنا أتابعه وهو يدور حول السيارة.

13

كيف تشعر بالناس الموجودين في حياتك اليوم وتبدي لهم امتنانك

جلستُ في الصف الذي يقع خلف أميليا في جنازة أمها. بخلاف عمّها المسن، الذي خرج من دار الرعاية لهذه المناسبة، كانت وحيدة في الصف الأول المخصص للعائلة. أما فْريد، الذي كان قد طلب منها قبل أيام الانتقال معه إلى برلين، فلم يزعج نفسه بسؤالها مرة ثانية. الحقيقة أنني لاحظت كم كان مذعوراً عندما تحدثنا معاً. كان قد عرض الزواج وهو يعرف تماماً أن أميليا سترفض بسبب أمها؛ الآن بعد أن توفيت ماجدا ولم يعُد هناك ما يربط أميليا لا بالمكتبة ولا بدبلن، بدا رعبه ملموساً. كنت متأكدة أن أميليا كانت محقة عندما قالت إن لديه امرأة أخرى تنتظره في برلين. التقت أعيننا وهو يجلس ورائي ببضعة صفوف ورميته بأقذر نظرة قدرتُ عليها، وذلك باسم الصداقة. نكّس عينيه وعندما شعرتُ بالرضا كان يتململ بالارتباك حتى أنني استدرتُ مرة أخرى لأنظر أمامي، وقد ندمتُ فوراً وشعرت كم أنا منافقة قذرة. لم يكن ثمة رجل سرّي ينتظرني، كان ذلك أمراً واضحاً، لكنني هجرت باري، وأنهيتُ علاقتنا بلا سبب حقيقي على الإطلاق - أو بلا سبب يمكن

لأيّ شخص آخر أن يراه. لم تكن تعاستي حجّة كافية فيما يبدو. فطالما لم يخنّي ولم يضربني ولم يعاملني بقسوة، لن يتعامل أحد مع عدم حبي له أو عدم سعادتي معه على أنها أسباب معقولة. لم أكن خالية من العيوب، لكنني بذلت قصارى جهدي، مثل أغلب الناس، كي لا أرتكب أخطاء. لكن أن يكون الزواج بأكمله خطأ فذلك يسبب ألماً شديداً، ناهيك عن الأمور المُحرجة التي كان يمكن أن تقع في حياتي. توقفت عيناي الهائمتين عندما خطر ببالي احتمال وجود باري في الكنيسة.

لقد أوجع فريد أميليا، لكن كيف ألومه وقد فعل ما سبق وأن توقعته في حواراتي الخاصة مع باري؟ كانت أميليا قد سجنت نفسها في نظام يومي يقوم على العناية بوالدتها وتكريس نفسها للمشروع الذي أحبّه والدها، وهو نظام يومي نبيل، لا شك في هذا، لكنها أغرقت فيه نفسها بإرادتها الحرة. لم يتبقَّ من أميليا قدر كبير مُتاح لفريد، أو غيره.

كان رأس أميليا منكّساً، وشعرها الأحمر المتموّج يخفي وجهها. عندما استدارت إليّ كانت عيناها الخضراوان المتعبتان محاطتين بهالات حمراء، وكانت قمة أنفها حمراء، ملتهبة من المناديل الورقية، وكان الألم واضحاً على وجهها. ابتسمتُ لها ابتسامة دعم، ثم أدركتُ أن الكنيسة بأكملها غرقت في الصمت وأن الكاهن ينظر إليّ.

- أوه!

أدركتُ أنهم ينتظرونني. فوقفتُ ومضيت في طريقي إلى المذبح.

كنت قد صمّمت على حضور آدم إلى الجنازة، أراد أم لم يردْ،

والجلوس معي ومع أسرتي. وبرغم مزاجه الرائع بعد مقابلتي ماريا، لم أكن لأجازف بتركه وحيداً. كنا نأخذ قفزات عظيمة إلى الأمام، قفزة صغيرة مع ماريا، وقفزة صغيرة مع نفسه، لكن مع كل قفزة كانت بضع خطوات إلى الخلف. كنت قد منعته من قراءة الصحف ومشاهدة الأخبار. كان عليه أن يركز على الإيجابيات؛ وهو ما لم تكن الأخبار مفيدة فيه. كان من الممكن أن تظلّ على اتصال مع العالم دون أن تسمح له بأن يقصفك بمعلومات يراها الغرباء مهمة. في اليوم السابق، قضينا وقتاً طويلاً في اللعب بلعبة الصور المقطّعة بينما رحت أنا أشغل عقله بأقل قدر ممكن من الإزعاج، ثم لعبنا «مونوبولي»، وهو ما جعلني أتوقف عن استجواب آدم وأركز مع اللعبة حتى لا يمسح بي الأرض. لم أنجح وأويتُ إلى الفراش في مزاج متعكّر. كنت أعرف أن تلك الألعاب لن تنقذه، لكنها كانت تساعدني أنا على معرفة المزيد عنه لأنها تسهّل عليه الكلام معي. وأظنها أيضاً كانت تمنحه فرصة للتفكير في مشكلاته، ومعالجتها وهو يركز على شيء آخر في الوقت نفسه، بدلاً من جلبها إلى وسط المسرح. هذا الصباح أخذتُ أنصتُ إلى نشيجه المكتوم وهو يستحمّ ورحت أخطّط لحلّ بقية مشكلاته. كنت أؤمن بأنّ معظم الأشياء ممكنة إذا خصّصت لها عقلك، لكنني أيضاً كنت واقعية؛ فـ«معظم» لا تعني كلّ شيء. ولم أستطِع أن أدرس الاحتمالات في هذه القضية؛ إذ ليس مسموحاً إلّا بنتيجة واحدة.

وقفتُ على المذبح ووضعتُ أوراقي على الحامل. كانت أميليا قد طلبت مني أن أقرأ وتركَت لي اختيار نصّ أجده مناسباً. كنت أحتاج إلى عزيمة قوية لكي أنطق بتلك الكلمات؛ إذ كان لها معنى شديد الخصوصية بالنسبة لي ولم يسبق لي قراءتها بصوت عالٍ من

قبل، لنفسي فقط، ونادراً ما كان ذلك بعيون جافة، لكنني لم أستطِع التفكير في توقيتٍ أكثر ملاءمة لقراءتها. ابتسمتُ لأميليا، ثم نظرتُ من فوق كتفها، لأسرتي أولاً، ثم لآدم. سحبتُ نفساً طويلاً مرتعشاً ووجّهتُ كلماتي له.

- أين سنكون من دون أيام قادمة؟ لن يكون بحوزتنا وقتها إلّا الأيام الحالية. فإذا كانت الحالة هكذا، معك، فإنني أتمنى أن يكون اليوم هو أطول الأيام بالنسبة لك. سأملأ يومي بك، وسأفعل كلّ شيء أحببته في حياتي. سأضحك، سأتكلم، سأنصت وأتعلم، سأحب، سأحب، سأحب. سأجعل كلّ يوم هو اليوم وأقضيه كلّه معك، ولن أشغل بالي بالمستقبل، عندما لن أكون معك. وعندما يأتينا هذا الغد الذي نخاف منه، فاعلم، رجاء، أنني لم أرد أن أتركك، أو أن تتركني، اعلم أنّ كل لحظة قضيتها معك كانت أجمل أوقات حياتي.

- هل كتبتِ هذا؟

سألني آدم ونحن نجلس في مجلس العزاء بعد الجنازة وأمامنا أكواب من الشاي بالحليب وصحن من السندويتشات. ولم يأكل أيّ منا.

- لا.

خلّفنا صمتاً طويلاً وانتظرته أن يسألني مَن كتبها، وتهيأتُ لِما سأقوله، لكنه فاجأني ولم يسأل.

قال آدم فجأة:

- أعتقد أنني أريد زيارة والدي.

وكان ذلك كافياً بالنسبة لي.

كان والد آدم يقيم في مستشفى «سانت فينسينت» الخاصة. وكان قد دخل لإجراء خاص بداء الكبد قبلها بشهر وظلّ هناك. وقد صادف أنّ السيد بازل هو أكثر شخص وقح يمكن أن يقابله إنسان، ومع أن الحياة من دونه ستكون أيسر على كلّ مَن في المصحة، فقد استخدموا أفضل ما أنتجه الطب الحديث من أجل إبقائه على قيد الحياة. كانت غرفته من ذلك النوع الذي لا يمكن لإنسان أن يدخلها بإرادته، خوفاً من الأذى اللفظي الذي يلحق بالجميع، والأذى الجسدي الذي يلحق بالممرضات الشابات - أو «اليانعات» كما كان يسميهن. أما مع غير اليانعات فكان يلجأ إلى أنواع أخرى من الإيذاء الجسدي، تصل إلى حدّ إلقاء بوله على إحدى الممرضات عندما قاطعته في أثناء إجراء مكالمة هاتفية. وكان لا يسمح إلّا لعدد محدود من الممرضات النساء برعايته، وقد تركوه يظنّ بأنه صاحب القرار في هذا الأمر. كان يريد أن يكون محاطاً بالنساء لأنه كان يؤمن أنهن أفضل في إنجاز أعمالهن بسبب قدرتهن على القيام بمهام متعددة، وبسبب برودتهن الفطرية وعقولهن التي لا تعرف اللغو، ولكن الأهم من ذلك، لأنهن، بوصفهن الجنس الأدنى في اعتقاده، يشعرن بالحاجة والرغبة لإثبات أنفسهن أكثر من الرجال. فعيون الرجال تهيم؛ وكان هو بحاجة إلى أشخاص بإمكانهم التركيز على شيء واحد في كلّ مرة، وهذا الشيء ليس إلّا هو. كان يريد أن يتحسّن، ويحتاج إلى ذلك، فقد كان لديه «بيزنس» دولي بالمليارات عليه إدارته، وحتى يعالجونه سيظلّ يديره من تلك الغرفة الزهيدة التي تمّ تحويلها إلى الجهاز العصبي لـ«مصنع بازل للحلويات».

بينما كنا نسير وراء مسؤولة الطعام، التي دفعت الباب لكي

تدخل، لمحتُ الشيخ المسن ورأيت رأساً كاملة من الخصلات الرمادية الناعمة ولحية رمادية ناعمة، كانت تمتد فقط من الذقن، وليس من الخدين، وتنتهي في بروز دقيق مثل سهم يشير إلى الأسفل حيث أعماق الجحيم. لم يكن ثمة ما يهدئ الأعصاب في الغرفة، التي وُضع فيها من أجل الاستشفاء. بدلاً من ذلك، كانت هناك ثلاثة أجهزة كمبيوتر، وجهاز فاكس، و«آي باد»، وعدداً كبيراً من أجهزة الـ«بلاك بيري» والـ«آي فون» تحت إمرة هذا الشبح المتهالك في الفراش والمرأتين اللتين ترتديان البدلات وتنكبّان برأسيهما إلى جانبه. لم تكن غرفة توحي بأية إمكانية لوداع العالم؛ كانت غرفة حية، مشغولة، جاهزة للإنتاج؛ تركل وتصرخ وتغضب في وجه الضوء المحتضر. كانت غرفة لم ينتهِ شاغلها من العالم وسوف يحارب من أجل البقاء إنْ دَعته الضرورة.

صرخ في وجه المرأة الأكبر سناً:

- سمعتُ أنهم يقدمون أكواب «بارثولميو» على الطائرة. كوب صغير من الآيس كريم لكلّ فرد، حتى في الدرجة الاقتصادية.

- نعم، عقدوا اتفاقاً مع شركة «إير لنجوس». لعام واحد فيما أعتقد.

- ولماذا لا يقدّمون «بازل» على الطائرة؟ إنها مهزلة أن تصل «بارثولميو» إلى هناك لا نحن. مَن المسؤول عن هذا الإخفاق اللعين؟ أهو أنتِ يا ماري؟ بأمانة، كم مرة يجب أن أطلب منك التركيز على عملك؟ إنك مشغولة جداً بهذه الخيول اللعينة حتى أنني بدأت أتساءل إن كنت قد فقدت قدرتك على العمل.

- بالطبع تكلمت مع «إير لنجوس» يا سيد بازل، وفي مناسبات متعددة، وظللتُ أفعل ذلك لسنوات، لكن الفكرة التي لديهم هي أنّ

«بارثولميو» أكثر فخامة كـ«اسم تجاري»، بينما اسمنا اسم عائلي، فمنتجاتنا متاحة ــــ

قاطعها قائلاً:

- ليست منتجاتنا، منتجاتي.

تابعت بهدوء وكأنه لم ينطق:

- لمن يريد شراءها على متن الرحلة، وأستطيع أن أخبرك بالإيرادات الدقيقة من هذا...

تصفحَت بعض الأوراق.

- أغربوا عن وجهي!

هكذا صرخ فجأة بملء رئتيه، فقفز الجميع باستثناء ماري الباردة الهادئة، التي تصرَّفت مرة أخرى وكأنها لم تسمعه.

- لدينا اجتماع، كان يجب أن تتصل مسبقاً.

كيف رآنا ندخل؟ هذا أمر يفوق إدراكي، مع الوضع في الحسبان أننا كنا مختفين وراء عربة الطعام ولم يكن بوسعي رؤيته تقريباً.

استدار آدم على عقبيه وهو يقول:

- هيا بنا.

- انتظر.

مددتُ يدي وأمسكت بذراعه. سددتُ الباب وحبسته في الغرفة، ثم همستُ:

- سنفعل ذلك اليوم.

وضعت مسؤولة الطعام الصينية على الطاولة أمام السيد بازل.

- ما هذا؟ شكله مقرف!!

نظرت إليه المرأة التي تضع قبعة التمريض، وقد بدا عليها الملل، وأنها معتادة على هذه الإهانات.

- إنها فطيرة الراعي يا سيد بازل.
قالتها بلكنة أهالي دبلن، ثم تابعت بنبرة أكثر سخرية واستعلاء:
- مصحوبة بطبق جانبي من سلطة الخس وحبات الطماطم الصغيرة، وإلى جانبهما شريحة من الخبز والزبد. وللتحلية لديك الجيلي والآيس كريم، وبعد ذلك الحقنة الشرجية - لذلك نادِ على الممرضة سُو لتُعطيها لك.
ابتسمَت بعذوبة للحظة ثم عاد عبوسها الأصلي.
- الأفضل أن تقولي كارثة الراعي، وهذه السلطة الجانبية تشبه الحشائش. هل أبدو لك مثل حصان يا ماجز؟
لِم تكن مسؤولة الطعام تعلِّق شارة تحمل اسمها. وبرغم الإهانات، فربما شعرَت بشيء من الإطراء لأنه يعرف اسمها. إلا إذا كان اسمها جنيفر.
- لا يا سيد بازل، لا تبدو كحصان بالتأكيد. أنت تبدو مثل رجل مسنّ غاضب نحيل يحتاج إلى عشاءه. والآن، كُل.
- عشاء الأمس كان يبدو مثل الطعام ومذاقه مقرف. ربما إذاً يكون لهذا القرف مذاق الطعام.
قالت، وهي تتناول الصينية القديمة وتحملها إلى خارج الغرفة، برأس مرفوعة:
- وبعدها، آمل أن تساعدك الحقنة الشرجية اليوم على أن تبرز.
هُيّء لي أنني رأيت السيد بازل يبتسم، لكن هذه الومضة المحتملة اختفت بأسرع ممّا ظهرت. كان صوته أجش، ضعيفاً ولكن سلطوي. إذا كان بهذه الخشونة على فراش موته، فلا أحبّ أن أتخيل كيف كان في مكتبه. وكيف كان كأبّ. نظرتُ إلى آدم؛ كان

التعبير على وجهه غير مقروء. كانت هذه الزيارة مهمة، ففيها يجب عليّ أن أخاطب الغرائز الأبوية لدى السيد بازل، لكي يفهم أنّ إجبار آدم على تولي قيادة الشركة مضرّ بصحة ابنه. كانت تلك هي السلة التي وضعتُ فيها كلّ بيضاتي. وصرت خائفة أن تكون تلك البيضات قد قررت أن تهشّم نفسها في الطريق إلى داخل الغرفة.

نادى الرجل المسنّ:

- أو اسمع. عُد إلى هنا.

توقفت ماجز.

- ليست أنتِ. أنا أكلم هذين الاثنين.

ربتت ماجز على يدي بتعاطف وهي تتجاوزنا وقالت برقة:

- إنه وغد حقيقي.

اقتربنا أنا وآدم من السرير. لم يتبادل الأب وابنه كلمات حب، ولا حتى تحية من أي نوع.

جأر السيد بازل في وجهه:

- ما الذي ستفعلانه اليوم؟

بدا آدم مرتبكاً.

- سمعتك تهمسين: سنفعل ذلك اليوم.

قالها وهو يقلّدني ساخراً.

- لا تتفاجئي، أنا لا أعاني من أية مشكلة في السمع. كبدي هو الذي أدخلني هنا، وحتى كبدي ليس هو الذي يقتلني. إنه السرطان - وأعتقد أن الطعام اللعين سيقتلني قبل السرطان!

دفع صحنه بعيداً.

- لا أفهم لماذا لا يخرجونني من هنا فحسب لكي أموت. لدي أشياء أفعلها.

رفع صوته ثانية فيما كانت طبيبة تدخل لإلقاء نظرة على ملفّه. وكان بصحبتها اثنان من طلاب الطب.

قالت الطبيبة:

- يبدو أنك تفعل الكثير بالفعل. ليس مسموحاً بالوجود في الغرفة إلّا لاثنين من الضيوف فقط.

نظرَت إلينا جميعاً بغضب كأننا المسؤولون عن نمو السرطان بهذا المعدل السريع.

- ظننتُ أنني قلت لك أن تستريح يا سيد بازل.

قال:

- وأنا ظننتُ أنني قلت لكِ أن تذهبي إلى الجحيم.

عمَّ صمت طويل ومزعج وشعرتُ فجأة برغبة في الضحك.

قال:

- الواحد منا يظلّ طوال اليوم في انتظار طبيب وغد، ثم فجأة يدخل عليه ثلاثة مرة واحدة. ما الذي أدين لك به لكي تشرّفيني بزيارة مرافقيك؟ الآلاف التي أدفعها كلّ يوم لكي تتجاهلوني؟

- سيد بازل، اسمح لي أن أذكّرك أن تحفظ لسانك. إذا كنت تشعر بأنك عصبي أكثر من المعتاد، فيمكننا أن نلقي نظرة على أدويتك.

أشاح بيد نحيلة شاحبة، فيما يشبه الاستسلام.

قالت بصرامة:

- أمامكم جميعاً بضع دقائق ثم سأصرّ على أن يبقى السيد بازل بمفرده. وعندها نتحدث.

استدارت وغادرت الغرفة وسرعان ما تبعها الرجلان البشوشان.

- ربما لا أراها ثانية إلّا في الأسبوع القادم، حيث ستزور سريري ومرة أخرى تُخبرني بهراء لعين. من أنتِ؟

سألني وهو يحدّق فيّ بغضب.
أدار كلّ مَن في الغرفة رؤوسهم ناحيتي.
مددتُ يدي وأنا أقول:
- أنا كريستين روز.
نظر السيد بازل إلى يدي، ورفع يده، التي برز منها أنبوب، ووجّه كلامه إلى آدم وهو يصافحني برخاوة:
- هل تعلم ماريا بأمرها؟ لم أعرف أبداً أنك تقيم علاقتين في وقت واحد، طالما بدوتَ لي جباناً. تتلاعب بك النساء. روز - أيّ اسم هذا؟
استدار لي ثانية.
- نعتقد أنه كان روزنبرغ في الأصل.
قيّمني بعينيه، قبل أن يُعيدهما إلى آدم.
- تعجبني ماريا. لا يعجبني الكثير من الناس، لكنها تعجبني، كما تعجبني ماجز، المسؤولة عن الطعام. ماريا ذكية. فور أن تحسم أمرها ستذهب بعيداً. لا تعجبني شركتها تلك - الشفاه الحمراء. فوَقْع اسمها خَليع جداً.
لم أستطع أن أمنع نفسي، فضحكتُ بصوتٍ عالٍ.
بدا أنّ السيد بازل قد تفاجأ، ثم تابع، ناظراً إليّ وهو يتكلم:
- عندما تعود إلى عقلها وتكفّ عن صناعة الكارتون ـــــ
- الرسوم المتحركة.
قاطعتُه، وأنا أشعر أنني مدينة لماريا بعد أن استمتعتُ بإهانتها بشكلٍ زائد عن الحدّ.
- لا يعنيني الاسم اللعين - ساعتها سوف تكون على ما يرام. سوف تكون مفيدة لك عندما تتولى القيادة، والله يعلم أنك لا تستطيع تنظيم حفلة عشاء في مطعم!

- إذاً لماذا تريده أن يرأس الشركة؟

سألته، فاستدارت ناحيتي كل الرؤوس.

بوغت الجميع، بخاصة السيد بازل، وإن لم يكن ليُظهر ذلك. لم يكن يسمح لسلطته بالإفلات من بين يديه ولو للحظة واحدة، لا يسمح لغيره أن يمسك بزمام الأمور.

غمغمتُ قائلة لآدم:

- هل يُفترض أن ذلك سر؟

هزّ رأسه نفياً، وهو ينظر إليّ بعينين حذرتين.

- ما الأمر إذاً؟

نظرتُ حولي، وأنا لا أعرف أيّ خطأ ارتكبت. تراجعت المرأة المسمّاة ماري خطوة إلى الخلف عن السرير، وتبعتها المرأة الأصغر بزيّها الرمادي.

- سوف نتركك لهذا يا سيد بازل. سنكون بالخارج إذا احتجتَ إلينا.

تجاهلها. وبدت ماري متردّدة بين المغادرة والبقاء.

- أخبريني، كيف عرفتِ ابني؟

تدخّل آدم:

- نحن صديقان.

قال والده:

- آه. إنه يتكلم. قلْ لي يا آدم، إنك لم تظهر في المكتب منذ الأحد الماضي. المفترض أنك كنت في دبلن لرؤيتي، لكن لو كنت أتيتَ هنا كنتُ لاحظتُ ذلك، فأنت لم تأتِ. فإذا كنت ستقضي أوقاتك في العهر ـــ

- لم يكن يقضي أوقاته في العهر ـــ

- فافعل ذلك في وقت فراغك. لا أحب أن يقاطعني أحد، شكراً لك يا آنسة روز.

قلت:

- هناك موضوع أريد مناقشته معك على انفراد. آدم، يمكنك ان تخرج أنت أيضاً.

نظر السيد بازل إلى المرأتين بجوار فراشه. كانت تبدو عليهما الرغبة في مغادرة الغرفة، ولذلك تحديداً أصرّ على بقائهما.

- أنا أثق بماري أكثر ممّا أثق بنفسي. إنها معنا منذ اليوم الذي استلمتُ فيه الشركة قبل أربعين عاماً، وعرفَت ابني منذ كان يتبرّز على نفسه، وهي المرحلة التي ظلت أطول ممّا انتظر الجميع. أي شيء تريدين قوله يمكن أن يُقال أمام ماري. أما الفتاة الأخرى فلستُ واثقاً منها، لكن ماري تحترمها، لذا فأنا أعطيها فرصة. الآن توقفي عن هذا الهراء وأخبريني لماذا جئتِ إلى هنا.

نكّست الشابة بجوار ماري رأسها، محرَجَة. وسحبتُ أنا كرسياً وجلست. «كيف تعلن خبراً خطيراً لرجل يُحتضر». هذا الرجل على وجه التحديد لم يبدُ وأنه بحاجة إلى أي نوع من الحساسية، حيث إنه لا يحسّ أصلاً بالآخرين. طيب، إذا لم يكن آدم سيتكلم معه بصراحة، فسأتكلم أنا. سأنهي هذا الموضوع مرّة وإلى الأبد. لقد جئت من عالم يتّسم بالأمانة والصراحة، لم أكن درامية وبالتأكيد لم أكن أثير قضاياي مع الناس ما لم يكن الأمر حيوياً وما لم يكن سيحسّن العلاقة وقضية آدم في رأيي قضية حياة أو موت. فإذا كان سلوك شخص ما يؤثر سلباً على حياتك، فلا مفرّ من أن تتواصل مع هذا الشخص، أن تشاطره مشكلتك، أن تناقشها معه، أن تصل إلى حلّ. التواصل مسألة حاسمة في هذه المواقف، والواضح أنه كان

غائباً بين الأب والابن. استشعرتُ أن آدم كان خائفاً من الوقوف في وجه أبيه المتسلّط، فقررتُ أن أفعل ذلك لأجله.

تكلمتُ بثبات وأنا أنظر مباشرة في عيني الشيخ المسنّ.

- أنا أعلم أنك ستموت قريباً جداً وأنك تريد لآدم أن يتسلّم زمام الشركة حتى لا تؤول القيادة إلى ابن أخيك. ونحن هنا للكلام عن هذا الأمر.

تنهّد آدم وأغمض عينيه.

- اخرس!

هكذا صرخ فيه السيد بازل، مع أنه لم يتكلّم أصلاً.

- ماري، باتريشيا - إلى الخارج من فضلكما.

لم يأبه حتى بمتابعتهما بنظره وهما تغادران، ظلّ يثبت عينيه عليَّ.

منحتُ آدم ابتسامة تشجيع لكنه كان يستعصي على القراءة. كان يصرّ على أسنانه.

نظر السيد بازل إليّ وكأنني آخر شخص يريد الكلام معه.

- آنسة روز. الحقائق ملتبسة عليك. أنا لا أريد أن يتسلّم آدم زمام الشركة. الدور يقع على لافينيا، وهي التي كان من المنتظر أن ترثها. وهي أكفأ بكثير في هذه الوظيفة منه، صدقيني، لكنها في بوسطن.

- نعم، سمعتُ أنها سرقت الملايين من أصدقائها وأقاربها.

قلتُ ذلك لأضعه في مكانه.

- هذا هو الأمر: آدم لا يريد الوظيفة.

خلفتُ صمتاً طويلاً. وانتظر هو المزيد، لكن شيئاً لم يأتِ. كان هذا هو كل شيء. لقد انتهيت. إنه لا يستحق لا الملاطفة ولا التفسيرات المهذبة.

نظر إليَّ ثم إلى آدم:

- هل تظنين أنني لا أعرف ذلك؟ هل تفترضين أن هذا اكتشاف بارع؟

قطّبت جبيني. لم تكن الأمور تسير كما خطّطت لها.

بدأ السيد بازل يضحك، لكن حتى ضحكته كانت خالية من المرح.

- عدم اهتمامه بأيّ شيء أفعله طالما كان أمراً واضحاً وجلياً. لقد ظلّ يلعب بالطائرات المروحية منذ بدأ في الكلام، وقضى السنوات العشر الأخيرة وهو يلهو مع حرس السواحل. لا يهمني إذا كان لا يريد الوظيفة. لا يهمني إن تسبّب له ذلك في تعاسة بالغة. فهذا ما لا يجب أن يكون. يجب أن يتولى شخص من عائلة بازل قيادة هذه الشركة. دائماً كان شخص من عائلة بازل مسؤولاً عن هذه الشركة، وسيظلّ الأمر كذلك. ولا يمكن أن يكون هذا الشخص هو نيجل بازل - هذا لا يمكن. على جثتي.

بدا غير مدركٍ للمفارقة.

- جدي وأبي وأنا حاربنا بقوة للحفاظ على هذه الشركة في أيدينا في السراء والضراء منذ تأسيسها، ولن تأتي عاهرة صغيرة متسلطة كثيرة الكلام قليلة الفهم لتغيّر هذا الأمر.

انفغر فمي. وسمعتُ واحدة أخرى من بيضاتي تتهشم تحت الضغط.

قال آدم بصرامة:

- أبي، يكفي هذا. لا تتحدث عنها بهذه الطريقة. إنها لا تريد تغيير أي شيء، هي تخبرك فقط بما تعتقد أنك يجب أن تعرفه. تريد أن تساعد.

- ولماذا توصلين الرسالة بالنيابة عن ابني؟

ثم نظر إلى آدم.

- يا بني، حان الوقت لأن تصبح رجلاً. لا تدع الآخرين يقومون بعملك القذر.

ثم بدأ يصبح أكثر بذاءة. ليس على نحوٍ كوميدي كما كان من قبل، بل بذاءة قاسية، بذاءة وحشية تنبعث من عينيه وفمه، الذي التوى في نظرة احتقار.

- هل أخبرَك أنه لن يتلقّ مليماً واحداً، ولا نصيباً أياً كان من الميراث. أعتقد أن هذا ربما يقنعه.

ظلّ آدم يحدق في الحائط بوجه ثابت.

- لا، لم يخبرني.

قلتها، وقد ثارت ثائرتي لهذا المسنّ اللئيم.

- لكنني لا أظن حقيقة أن المال يمثل شيئاً بالنسبة إلى آدم. يا سيد بازل، إذا كانت شركتك مهمة لك أكثر من سعادة ابنك، أليس عليك أن تفكّر على الأقل فيما هو أفضل للشركة؟ أنا أتفهم أنها شركة عائلية وأنها ظلت كذلك على مدار ثلاثة عقود؛ وقد أنفقتَ عليها عمرك كله، وبنيتها بالدم والعرق والدموع - الآن عليك أن تجد شخصاً يفعل ذلك في غيابك. لن تزدهر الشركة بين يدي آدم لأنه ليس مدفوعاً بالرغبة نفسها مثلك. إن كنت تهتم حقاً بتركتك، فاعثر على شخص يحبها ويرعاها مثلك.

نظر إليّ، وعلى وجهه تعبير احتقار، وعيناه باردتان، ثم استدار إلى آدم. توقعتُ أن أسمع مشاحنة، لكن فوجئت بنبرته الهادئة:

- ماريا سوف تساعدك يا آدم. عندما يكون عليك اتخاذ قرار ولا تعرف كيف، تكلم مع ماريا. في الماضي عندما بدأت، هل

تظن أنّ يوماً واحداً مرّ لم أسأل فيه أمك عن رأيها؟ وسوف يكون لديك ماري، إنها ذراعي اليمنى. هل تظن أنك ستضطر إلى المضي قُدُماً بمفردك؟ ليس صحيحاً.

توقف، وقد شعر فجأة بالتعب.

- لا يمكنك أن تسمح لنيجل بالانقضاض على الشركة، أنت تعرف ذلك.

- ربما لن تجد ماريا الوقت لتقديم يد العون لأنها مشغولة بالنوم مع شون. أليس كذلك؟

استدرنا جميعاً نحو الباب مندهشين. كان ثمة شاب ينظر إلينا، وكان الشَّبَه العائلي واضحاً في فكّه القوي وعينيه الزرقاوين. لكن شعره كان داكناً وليس فاتحاً - وكذا كانت روحه. وشعرت بأنه ينشر ذبذبات خبيثة.

رفع أحد حاجبيه وقد بدا عليه الاستمتاع، ووضع يديه في جيبيه وتقدم متمهلاً.

قال آدم بفظاظة:

- نيجل.

- أهلاً آدم. أهلاً عم دِك.

أتمنى لو أنني استطعتُ التعاطف مع السيد بازل وقتها. فما الذي يمكن أن يكون أسوأ من رؤية شخص تحتقره وأنت مريض في الفراش، ترتدي منامة منقوشة على الطراز الفارسي، وعاجزاً عن الدفاع عن نفسك. ثم أن اسمه كان «دِك» (قضيب)، لكن كان من المستحيل عليّ استدعاء الشفقة.

سأله آدم، من دون أن يحرص على التأدب، وقد بدا أنه يريد أن يضربه:

- ما الذي أتى بك يا هذا؟

- جئتُ أزور عمي، لكن التوقيت ممتاز - فأنا وأنت لم نكمل اجتماعنا الأسبوع الماضي، بعد أن غادرتَ مسرعاً.

بدا السيد بازل وكأنه تلقى طعنة في القلب:

- اجتماع بينكما أنتما الاثنين؟

- آدم جاءني لنناقش الاستحواذ على شركة بازل. وقد أعجبته فكرة الربط بين الاسمين: بارثولوميو بازل - وهو أكبر عرفان لجدّنا، ألا تظن ذلك؟

ابتسم هازئاً.

- أنت كذّاب!

كان غضب آدم واضحاً. تعثّر في قدميَّ لكي يصل إلى ابن عمه، وقبض على الوشاح الذي يلحف به رقبته ودفعه بطول الغرفة حتى صدمه بقوة في الحائط. قبض بيده على حلق نيجل وثبّته هناك فيما كان ابن عمه يصارع ليفلت من قبضته.

قلت محذّرة، وأنا أمنع نفسي عن الهلع:

- آدم!

- أنت كذّاب لعين.

قالها آدم عبر أسنان مطبقة. كانت أوردة نيجل تبرز من جبهته وهو يحاول أن يشد يدي آدم بعيداً عن حلقه، لكن آدم كان أقوى. لذلك، حوّل نيجل جهده لكي يدسّ أصابعه في منخري آدم، فأجبره على الرجوع برأسه.

- آدم!

قفزتُ في محاولة لمنعهما لكنني خفتُ أن أقترب أكثر من اللازم وهما يتصارعان هكذا. عدتُ بنظري إلى السيد بازل. كان

وجهه مكفهراً لكنه كان شيخاً مسناً عاجزاً تماماً على فراش موته - وكان يعرف ذلك. وبدأ يتنفس بصعوبة شديدة.

- سيد بازل، هل أنت بخير؟

سألتُه، ثم هرعت إلى فراشه وضغطتُ زر استدعاء الممرضين.

كانت عيناه تدمعان.

قلت بقوة:

- لن يفعل ذلك. آدم لن يفعل ذلك.

تفحّص وجهي ليتحقّق من أنني لا أخدعه.

- بكلّ تأكيد لن يفعل ذلك.

قلتها وبدأتُ أشعر بالهلع وأضغط زرّ الاستدعاء دون انقطاع. وحين اندفع الأمن إلى الغرفة، كان آدم ونيجل يتصارعان على الأرض. قاموا على الفور بسحب آدم، وبينما يمسكون به من كتفيه وذراعاه مكتوفتان خلف ظهره، أرجعَ نيجل ذراعه ولكَمَ آدم بقوة، في فكه أولاً، ثم في معدته.

وانثنى آدم نصفين.

- أظن أنّ أيامك كعارض أزياء ولّت بلا رجعة.

قلتها بوهنٍ أمازح آدم وأنا أمسح شفته المشقوقة فور عودتنا إلى الشقة.

ابتسم فعاد الدم ينسكب وقد انفتح جرحه من جديد.

قلت، وأنا أمسحه ثانية:

- آه، لا تبتسم.

تنهد قائلاً:

- لا مشكلة.

ثم وقف فجأة، وأزاحني بعيداً، وقد عادت العدوانية إلى جسده.

- سآخذ حماماً.

فتحت فمي لأطلب اعتذاراً. لقد حاولت أن أفعل الصواب، فسارت كل الأمور على نحوٍ بشع. غداؤنا في المطعم سبّب له بتقلصات، والتمشية في الحديقة قادته إلى السجن في زنزانة، ورحلة السيارة العشوائية أدت إلى مطاردة، وسعيي لإخبار والده بالحقيقة جعله يتلقى لكمة في فمه.

آسفة

لكنني لم أقل شيئاً. لم يكن ذلك مهماً. لقد ظللت أقولها في السيارة ونحن في الطريق إلى البيت حتى ازرق وجهي؛ وحاولت تفسير التجربة بأكملها بوصفها خبرة إيجابية، خبرة مواجهة الحقيقة والتعامل مع تبعات ذلك، لكنني كنت أعرف أنها حجّة تستعصي على الترويج. لقد أخطأتُ تقدير الموقف. لقد ظننتُ أنه كان خائفاً من إخبار والده، لكنه كان خائفاً لأنه يعرف أنّ والده يفهم عدم رغبته، لكن ذلك لا يغيّر من الأمر شيئاً. كانت تلك سذاجة مني، أن أظنني قادرة على شقّ مخرج واضح من موقفٍ ظلّ آدم لسنوات يحاول انتشال نفسه منه. إنه لم يتّخذ قراره اليائس على جسر هابيني إلا بعد استكشاف كافة طرق الهروب الأخرى. كان عليّ أن أعرف ذلك، وكون ذلك لم يخطر ببالي جعلني أشعر بالارتباك والحرج. لم يكن يريد أن يسمع المزيد من الكلمات. كلماتي لم تكن تُصلح أيّ شيء. وأسفي لن يغيّر أي شيء.

في الرابعة صباحاً، ركلتُ الألحفة عن السرير في نوبة إحباط وتخليتُ رسمياً عن محاولة النوم.

ناديت في الظلام:

- هل أنت مستيقظ؟

أجابني:

- لا

ابتسمت.

- تركتُ لك ورقة على طاولة القهوة. خُذها.

سمعته يسير في الغرفة لكي يصل إلى الورقة التي هيأتها في الليلة السابقة.

- ما هذا بحق الجحيم؟

- اقرأ رقم واحد.

- أفضل وأجمل الأشياء في العالم لا تُرى ولا تُلمس - يجب أن تُحس بالقلب. هيلين كيلر.

صمتَ قليلاً، ثم شخر.

صحتُ أقول، من الذاكرة، وأنا مستلقية على ظهري في السرير:

- في أحلك لحظاتنا علينا أن نركز لكي نرى النور - أريستوتل أوناسيس.

توقف قليلاً فتساءلتُ إنْ كان سيمزق الورقة، أو يهزأ من محاولتي لرفع روحه المعنوية.

صحت مجدداً، أشجعه على قراءة واحدة أخرى:

- صدّق أنك تستطيع، تصبح في منتصف الطريق - تيودور روزفلت.

صاح آدم:

- لا تتبول في الريح.

قطبتُ جبيني:

- هذا ليس في الورقة.

- لا تشتري تليسكوب، فقط اقترب ممّا تريد رؤيته.

ابتسمت.

- إياك وأن تأكل ثلجاً أصفر. لا تدخن. ارتدي حمالة صدر. لا تنظر في عيني أحد وأنت تلعق مصاصة الثلج.

كنت أقهقه في الفراش. وأخيراً صَمَت.

- طيب. فهمتك: أنت تظن أن ذلك كلاماً فارغاً. ولكن هل تشعر بأنك أحسن؟

- هل تشعرين أنت بذلك؟

ضحكت:

- نعم، بالتأكيد.

صمت قليلاً، ثم أجاب بصوت رقيق وخفيض:

- وأنا أيضاً.

تخيّلته يبتسم، أو على الأقل تمنيتُ ذلك؛ كان بوسعي أن أسمع الابتسامة في صوته.

- تصبح على خير يا آدم.

- تصبحين على خير يا كريستين.

نمت قليلاً تلك الليلة، إذ لم أستطع أن أمنع نفسي عن التفكير: لم يتبقَّ سوى ثمانية أيام.

14

كيف تحصل على كعكتك وتأكلها

جلس المحقّق ماغواير أمامي على الطاولة في غرفة التحقيق في مركز شرطة «بيرسي ستريت». كانت عيناه حمراوان بلون الدم، وأسفلهما انتفاخات مكرمشة وكأنه قضى احتفالاً صاخباً في الليلة السابقة. مرة أخرى كنت أعرف أنّ ذلك ليس حقيقياً. كان قد وافق على مقابلتي مكرَهاً، وأكّد لي أنه سيستمع إلى قصتي أولاً ثم يرى ما إذا كان سيحيلني إلى زملائه. وفهمت أنه يقصد أنه سيعمل كمصفاة؛ حتى لا يضيع وقت الشرطة إن كانت شكواي لا تستحق. شعرت بزخّات من العرق على جبيني. كانت الغرفة خانقة، بلا شبابيك ولا تهوية. لو كنت متهمة لاعترفتُ بأيّ شيء لكي أخرج من هناك. لحسن الحظ، أصررت على إبقاء الباب مفتوحاً حتى أستطيع أن أبقي عيني على آدم.

- هل أنت معتادة على اصطياد ضحايا الانتحار؟

كان ذلك هو السؤال الذي وجّهه لي المحقق ماغواير عندما وصلت مع آدم.

- الحقيقة أنني أساعده على إيجاد وظيفة.

لم تكُن كلبة بالمعنى الكامل.

نظرت إلى الباب ثانية لأتأكد من أنّ آدم لا يزال هناك. بدا عليه الملل والتعب لكنه كان موجوداً على الأقل.

سألني:

- وهل من عادتك أن تأخذي العمل معك إلى البيت؟

قلت بحدة:

- وهل ترجع أنت إلى بيتك أصلاً؟

أدركتُ بعد فوات الأوان أنه كان على وشك أن ينفتح للمرة الأولى، لكن حدّتي جعلته يتراجع إلى قوقعته؛ وعاد مجال الطاقة ليغلّفه من جديد. فأخذ يراوح مكانه في مقعده منزعجاً، وبدا أنه يوبخ نفسه على ضعفه الذي جعل قناعه يسقط عن وجهه.

أشعرتني ردّة فعلي بالذنب؛ إذ أدركت أنني أفضّل التعامل مع ماغواير الخشن. لم أكن أرغب في الاسترخاء ومشاركة أسرار مهنتي مع هذا الرجل.

- ذكريني إذاً، تظنين أن رجلاً يرتدي سترة جلدية سوداء وصدبري بقبّة عالية، ربما يكون من أوروبا الشرقية، هشّم زجاج سيارتك الأمامي بمضرب «هيرلي» لأنك ربما تكونين قد شهدتِ عملية بيع مخدرات بين هذا الرجل وسيارة سوداء ذات زجاج مسوَّد - ولا تتذكرين منها أية تفاصيل أخرى - في طريق ريفي، لا تستطيعين تذكُّر مكانه أو وجهته لأنك كنت تلعبين لعبة الضياع. هل ما فهمته صحيح؟

كان الملل بادياً على صوته.

- زجاج سيارة صديقتي جولي، ليس سيارتي، ولكن نعم، البقية صحيحة.

كنت قد استغرقت ثلاثة أيام لكي أتقدّم ببلاغ بشأن زجاج

السيارة، أولاً لأنني كنت أساعد أميليا في ترتيبات جنازة والدتها، وثانياً بسبب انشغالي مع آدم، لكن السبب الأهم أنني كنت أتحاشى البقاء ولو لثانية واحدة في صحبة المحقّق ماغواير، مع أنني أدركت في النهاية أنه الشخص الذي يستطيع مساعدتي.

- ولماذا تفترضين أنه من الممكن أن يكون من أوروبا الشرقية؟

قلت بهدوء، وأنا أتمنى لو أنني لم أذكر هذه التفصيلة من الأساس:

- كان مظهره هكذا. كان ضخماً، بفكّين قويين، وكتفين عريضين. لكنه مع ذلك كان يمسك بمضرب «هيرلي»، ما جعله يبدو أكثر مثل أيرلندي...

انخفض صوتي حتى الصمت، وراح وجهي يتورّد حين رأيت التسلّي بادياً على وجهه.

- إذاً، لو كان تشقلب على نفسه في الهواء لكان روسياً، ولو كان ممسكاً بمضرب بيسبول لجعله ذلك أميركياً؟ ماذا لو هجم عليك بعصي الطعام؟ يابانياً أو صينياً - ما رأيك؟

ابتسم، مستمتعاً بمزحته. لكنني تجاهلته.

- هل من شخص آخر يدعم قصتك؟

- نعم، آدم.

- رجل الانتحار؟

- ضحية محاولة الانتحار، نعم.

- هل من شهود آخرين لم يحاولوا قتل أنفسهم منذ خمس دقائق؟

- لقد حاول الانتحار منذ خمسة أيام، ونعم، ابنة أختي رأت كلّ شيء.

- سأحتاج إلى سماع التفاصيل منها.

فكرت في الأمر.

- طبعاً، هل لديك قلم؟

تناول قلمه الحبر متذمراً، وفتح مفكرته، التي كانت خالية مع أنني قضيت الدقائق العشر الأخيرة أحكي له ما حدث.

- تكلّمي.

قلت ببطء:

- اسمها أليشا روز تالبوت وسوف تجدها في حضانة القرد الشقي، مدارس مونتيسوري، جادة فيرنون، كلونتارف.

- هل تعمل هناك؟

- لا، هي تلميذة هناك، إنها في الثالثة من عمرها.

خبط القلم على الطاولة.

- هل تمزحين معي؟

نظر آدم إلى داخل الغرفة استعداداً لحمايتي.

قلت:

- لا، الحقيقة أنت مَن تمزح معي. لا أظنك أخذت كلامي على محمل الجد.

- اسمعي، من خبرتي العملية، تعلمتُ أنّ الحقيقة تكمن غالباً في الإجابة الأكثر وضوحاً. قصتك عن تاجر المخدرات الروسي ومضرب الـ«هيرلي» في طريق ريفي بها الكثير من الـ«ربما» والـ«لكن»، وأشكّ أنّ لها أيّ أقدام.

- لكن هذا ما حدث.

- ربما حدث.

- بل حدث.

صمَت.

سألته:

- إذاً، ما هي الإجابة الأكثر وضوحاً؟

- سمعتُ أنك هجرتِ زوجك.

ابتلعت ريقي، وقد فوجئت بتحوّل الحوار إلى هذا المسار.

استحثني:

- ليلة إطلاق النار.

- ما علاقة توقيت تركي لزوجي بأي شيء؟

حكّ فكه ذا اللحية الخفيفة، والمحمر كالدم من كثرة الحلاقة من دون ترطيب كافٍ. ثم جلس للحظة، وراح يتفحصني، وبدأتُ أشعر وكأنه يحقّق معي.

- ألم يكن لذلك علاقة بواقعة إطلاق النار؟

- لا   نعم.. ربما.

تلعثمتُ، حيث أدركت أنني لا أريده أن يعرف.

- لماذا تريد أن تعرف ذلك؟

راوح مكانه على كرسيه وبدأ يخربش على المفكرة:

- أنا في هذه الوظيفة منذ وقت طويل و - خذيها من شخص لديه خبرة بهذه الأمور - ما كان يجب عليك أن تجعلي ما يحدث في عملك يؤثر على ما يحدث في حياتك الأسرية.

تفاجأتُ. وكنت على وشك أن أحتدّ عليه ولكنني أمسكت لساني. لا بد وأنه فكر طويلاً قبل أن يقول ما قاله.

- لم يكن ذلك بسبب ما حدث مع سايمون. ولكن أشكرك على النصيحة.

تفحصني لبرهة في صمت، ثم أثار الموضوع:

- هل تظنين أنّ لزوجك السابق أيّ علاقة بمسألة تخريب السيارة؟

- مستحيل.

- وكيف تعرفين؟

- لأنه ليس من هذا النوع. إنه لا يمتلك هذا القدر من الحرارة. إنه حتى لا يشجع فريق كرة قدم لأنه لا يستطيع أن يؤمن بأيّ شيء لهذه الدرجة. في أحد أعياد ميلاده أهداه أصدقاؤه جزءاً من سياج ليجلس عليه - إنه عاطل عن الرأي إلى هذا الحدّ. بأمانة، لو كنت تعرفه لما دارت بيننا هذه المحادثة. دعنا نتجاوز ذلك.

- كيف تَعامَل مع هجرك له؟

صحتُ وأنا أنهض واقفة:

- يا إلهي، يا ماغواير، ليس لكَ علاقة بذلك.

قال بهدوء، وهو لا يزال في مقعده:

- ربما يكون له علاقة بزجاج سيارتك. فهو زوج هجرته زوجته مؤخراً، ويشعر بالإهانة، وقلبه مكسور وغاضب، كما أتخيّل. ربما كان حلواً ورقيقاً وأنتما زوجان، لكنك لا تعرفين أبداً كيف يمكن أن يتغيّر الناس في غمضة عين. هل سبق ورأيت في سلوكه أي نوع من التهديد في الأسابيع الماضية؟

صمتي عن الإجابة كان إجابة كافية بالنسبة له.

اعترضتُ:

- لكنها ليست سيارتي حتى. وهو يعرف ذلك. وتحطيمها سيؤثر على شخص آخر، لا عليّ.

- إنها سيارة صديقتك جولي، لقد أخبرتِني بذلك. لكنكِ أنتِ

مَن يقودها. وهو لا يفكر بطريقة منطقية تماماً الآن. ما هو شعوره تجاه صديقتك جولي؟ هل قال شيئاً عنها مؤخراً.

تنهدت، وقد تذكّرت البريد الصوتي قبل بضعة أيام، ونظرت إلى آدم في الخارج وكان واضحاً أنه ينصت الآن. أومأ إليّ لكي أخبر ماغواير.

- اللعنة.

فركتُ وجهي بتعب.

- إذاً، فأنا لن أتهم أحداً. سأدفع ثمن التصليح بنفسي.

نهضتُ وتحرّكت في الغرفة.

- لا فارق، فأنا أودّ أن أقوم بزيارة له.

توقفت عن السير:

- لا! حقاً، سيجنّ جنونه إذا عرف أنني حكيت لك.

- يبدو أنّ جنونه قد جنّ بالفعل. أريد أن أتأكد من أنه لن يفعلها ثانية.

- أرجوك لا تتصل به.

تنهد، ثم نهض واقفاً.

- أيها جاء أولاً؟ المكالمات الهاتفية الغاضبة؟ هل بدأت مكالمات حزينة، ثم مسيئة؟ ثم يحطم سيارتك.

- سيارة جولي.

- لا يهمني سيارة مَن! الفعل التالي على هذه القائمة لن يكون الجلوس وتناول الحليب والحلوى معك.

- لكن الرجل الروسي ـــ

- إنه ليس روسياً. هل يقيم أحد معك في المنزل؟

لم أحب هذا السؤال الشخصي ولم أعرف بالضبط كيف أجيبه.

تورّدتُ خجلاً، محرجة من إخباره أنّ آدم يُقيم معي. في النهاية لم أضطر لقول أي شيء؛ فقد لمحت النظرة المتبادلة بين آدم والضابط ماغواير.

- طيب.

بدا وأنّ ماغواير راضياً نوعاً ما أنني سأكون في أمان:

- فكري في الأمر وأخبريني إذا أردتِ أن أقوم بزيارة له.

قلت، وأنا شديدة الحرج بينما كان يغادر الغرفة:

- آسفة على إضاعة وقتك.

قال بصوت عالٍ وهو يمضي في القاعة:

- لقد اعتدتُ على ذلك يا روز.

- اللعنة!

قلتها، وأنا أنهي المكالمة على هاتفي.

- كان ذلك شخصاً يريد أن يرى السيارة. كم يستغرق الأمر لإصلاح الزجاج؟

رفعتُ كفي عن وجهي ثم رحتُ أبحث في دواليب الملابس الخاوية عن دليل الهاتف.

قال آدم، وهو يجلس على المنضدة ويؤرجح ساقيه ويراقبني:

- سريعاً. أعرف شخصاً يمكنه إصلاحها، سأتصل به.

- سيكون ذلك رائعاً. شكراً لك. كم سيُكلّف ذلك؟

عضضتُ أظافري في انتظار ردّه.

- ليس كثيراً. أنا متأكد أنّ صديقتك لديها تأمين، لا داعي للقلق.

- مستحيل بأيّ حال أن أخبر جولي. يجب أن أتدبّر الأمر من دون معرفتها. كم سيكلّف؟

- كريستين، اهدئي. إنه مجرد زجاج. والزجاج يتهشّم طوال الوقت. يمكن لحصاة أن تقفز من الطريق وتشرخه.

قلت:

- زوجي السابق هشّمه إلى مليون قطعة. الأمر مختلف.

- ولكنه يستغرق الوقت نفسه لإصلاحه. هل تعتقدين أنه هو مَن فعلها؟

- لا أعرف. يبدو المحقق ماغواير متأكداً، لكنني حقاً لا أستطيع تصوّر باري وهو يفعلها.

قلّب الأمر في رأسه لبرهة، ونظر من النافذة وكأنما ليتأكد من كوني في أمان. أحببتُ هذا الجانب الحنون منه.

قال فجأة:

- سأدفع ثمن الزجاج.

قلت بغضب:

- مستحيل، هذا لا يكون أبداً. إنها فكرة غبية يا آدم.

ثم أضفتُ بصرامة:

- ليس هذا ما أريد. لم أكن أحاول أن أوحي بذلك. أنا لا أقبل الصدقات.

قلَب عينيه:

- هذه ليست صدقة. أنا مدين لكِ لما تقدّمينه من خدمات على أية حال.

- آدم، أنا لن أحاسبك على هذا. أنا لا أفعل هذا من أجل

المال. أنا أحاول إنقاذ حياتك. بقاؤك على قيد الحياة سيكون أتعاباً كافية لي.

دمعت عيناي فاضطررتُ لأن أشيح بوجهي. وبدأتُ أبحث عن دليل الهاتف في الدواليب التي سبق وبحثتُ فيها، وقد نسيت قوله إنه سيتصل بصديق. كان عقلي يشتُّ.

- لكنكِ ألغيتِ كلّ مواعيدك لأسبوعين. أنا أكلّفك.

- لا أفكر في الأمر بهذه الطريقة.

قال وهو يتأمّلني:

- أعرف. لأنك طيبة. الآن اسمحي لشخص أن يكون طيباً معك، لأنني أعتقد أنك تمرين بأوقات عصيبة على وجه الخصوص، ولم أرَ شخصاً جاء لمساعدتك ولو مرة. لا أرى أيّ شخص يحاول المساعدة في إصلاح «الآنسة الصغيرة إصلاح».

فاجأتني ملاحظاته ونسيت للحظة أمر النقود. أسرتي ربما تكون غريبة لكنني كنت أعرف أنهم دائماً مستعدون لمساعدتي، أميليا كانت مشتتة على نحو مفهوم؛ وجولي كانت في تورنتو؛ والآخرون. . . طيب، كنت أقول لنفسي إنهم يتركون لي مساحتي من باب الاحترام، ولكن الآن، أصبحتُ أفكر في هذا الأمر. أدركتُ أنهم ربما انحازوا له. طردتُ الفكرة من رأسي وعُدت إلى متاعبي المالية. في نهاية الأمر سوف أضطر إلى الحديث مع باري بشأن إعادة نقودي التي أودعتها في حسابنا المشترك. لقد فتحنا هذا الحساب ليكون حساب ادّخار لنفقات عرسنا وشهر عسلنا وأبقيناه مفتوحاً بعدها ليكون الحساب الذي ندفع منه أقساط البيت، وكنت أنا مَن أدفع الجزء الأكبر من النقود حتى لا أنفقها. والرسالة التي كنت قد تلقيتها من باري ذاك الصباح قالت إنه استولى على نقودي،

على حصّتي من نفقات الأقساط وعلى كلّ نقود أخرى أودعتها. وقد راجعتُ الحساب لأرى إن كان يخبرني بالحقيقة فوجدتُ النقود قد سُحِبَت. لم تكن فكرة ذكية أن نحصل على بطاقة أوتوماتيكية للحساب. لقد أفرغ الحساب بالكامل.

قال آدم، مغيّراً الموضوع:

- على أية حال، هذا يمكن أن يجعلك تشعرين أفضل: أنا محتاج إلى مساعدتك في أمر آخر. أحتاج إلى مساعدتك في اختيار هدية لماريا.

- طبعاً.

قلتها، وقد أزعجني واربكني أن أحسست بقلبي يغوص أكثر وأكثر لمجرد ذكر اسمها.

- ما رأيكَ في أحمر شفاه وردي؟

ضاقت عيناه، وحاول أن يتبيّن ما إذا كانت العبارة قيلَت بنيَّة خبيثة كما بدا.

قال ببطء:

- لا ليس ذلك ما أفكر فيه. تعرفين، إنه عيد ميلادها ــــ

رددتُ بحدّة لسماع ذلك:

- ماذا؟ عيد ميلادها متى؟

- اليوم. لماذا هذا الغضب؟

- وتقول لي الآن؟ آدم، إنها فرصة هائلة لاستعادتها. كان يمكن أن نقضي أياماً ونحن نخطط لهذا الحدث.

- ظللتُ أفكر بنفسي في هدية، لكن لا شيء بدا جيداً بما يكفي. هناك الأشياء العادية - مجوهرات، ألماس، رحلات - لكننا

فعلنا كلّ ذلك. لا تبدو هذه الأشياء كافية في هذا التوقيت. كما أنني ظننتُ أنك لن تسمحي لي برؤيتها على أية حال.

كان محقاً لكنني ظللتُ مستاءة منه لأنه لم يخبرني قبل الآن.

- ماذا أهديتَ لها السنة الماضية؟

- ذهبنا إلى باريس.

نظر إليّ فتضخّمت كراهيتي لماريا.

- لكنني لم أعطِ نفسي لها بالكامل. لم تكن إجازة رائعة.

- لماذا، ماذا حدث؟

- لا شيء محدد. كان ذلك في الوقت الذي رحلت فيه أختي. وكان عقلي مشغولاً بالكثير من الأمور. وظنّت ماريا أن ذلك لأنني كنت أفكر كيف أعرض عليها الزواج؛ لكن الأمور لم تسر على هذا النحو و... طيب، كانت الرحلة كارثية.

أخته رحلت. كان يرى في رحيل الناس تخلّياً عنه. يجب أن أكون حريصة عندما نفترق. وجعلتني الفكرة أشعر بالحزن.

سألني:

- هل أنت بخير؟

- نعم، أنا أفكر.

ذهبتُ إلى غرفتي وتناولتُ الكتاب بحثاً عن إلهام. كان الفصل التالي بأكمله عن فوائد تعلّم الطهي. طوّحت الكتاب إلى آخر الغرفة، وأنا لستُ راضية عن الحلّ الذي قدّمه لمعضلتنا. في الواقع، كنت غير منبهرة بأيٍّ من الحلول التي قدّمها حتى الآن. الطهي بوصفه علاجاً؟ الطهي كطريقة لاستعادة ماريا؟ ما لم يطهو لماريا عشاء. ولكن كيف لذلك أن ينجح؟

ناديتُ عليه:

- آدم، هل ما زلت تحتفظ بمفاتيح شقتكما؟

- نعم، لماذا؟

ظهر عند باب غرفتي. كان دائماً يتوقف هناك، لا يعبُر العتبة قط دخولاً إلى مساحتي الخاصة. وكنت أقدِّر ذلك فيه، احترامه الدائم للحدود غير المرئية، احترام مساحتي.

كنت أفكِّر أننا يمكن أن نتسلَّل ونضع عشاء لماريا في شقتها بمناسبة عيد ميلادها، لكن لو تصادف وكان شون هناك ستصبح كارثة وستنكس آدم بعد أيام من عملنا الشاق.

- أريد أن أعرف أين ستكون في يوم عيد ميلادها. هل يمكنك معرفة ذلك بطريقة ما؟ أن تتحدث إلى صديقاتها؟ أو أسرتها؟ من دون أن تفضح الأمر بالطبع.

قال مستاء:

- عيد ميلادي وعيد ميلادها في الأسبوع نفسه، لذا فقد كنا عادة نحتفل بهما معاً.

سحب نفساً عميقاً ليسيطر على غضبه.

- صديقاتها سيأخُذْنَها إلى مطعم «إيلي» في رصيف «غراند كانال».

- وكيف عرفت؟

بدا عليه الخجل.

- أعرف وكفى.

حذّرته قائلة:

- آدم، لقد شدَّدتُ عليك ألّا تكلمها.

- لم أكلمها. فقط سمعت رسالة على البريد الصوتي لشون.

- وكيف حدث ذلك؟

- لأن شون أبله لا يتذكر قط أن يغيِّر الرقم السري الخاص ببريده الصوتي. إنني أستمع إلى رسائله منذ يوم الاثنين.

شهقت:

- لم أكن أعرف أنّ ذلك ممكناً!

- واضح إذن أنك لم تغيّري رقمك السري.

سجلت ملاحظة في عقلي لكي أفعل ذلك على الفور.

- لا يهم، فأنت تستمع إلى بريدي الصوتي على أية حال.

فكرت في الرسالة التي قد سمعها ثم مسحها. كنت أكاد أموت شوقاً لمعرفة ما الذي قاله باري، لكنني لم أستطِع أن أسأل آدم أكثر ممّا فعلت ولم أسمع إجابة. تجاوزت عن الأمر.

- إذاً، ماذا كانت فحوى الرسالة؟

- إنه قلق لأنّ ماريا بعيدة نوعاً ما هذه الأيام، منذ يوم الأحد عندما اكتشفتُ أمرهما، ولكن الأمر ازداد أكثر في الأيام القليلة الأخيرة. إنهما في استراحة، أو أنها طلبت مساحة، لكي تفكّر.

- تفكّر فيك؟

قلتها همساً، فهزّ آدم كتفيه، لكن ظهر بريقاً في عينيه.

رفعتُ يديَّ الاثنتين عالياً:

- مرحى يا آدم!

ضربَ كفّيه بكفي ثم سحبني إلى حضن.

- شكراً.

قالها في أذني، وذراعاه ملفوفتان بقوة حول وسطي.

واقشعر جسدي بأكمله لملمس أنفاسه.

- لا مشكلة.

قلتها، وأنا أرغب في البقاء مكاني. ثم أجبرتُ نفسي على الانسحاب.

- الآن، هيا إلى العمل.

- ماذا سنفعل؟

- لقد أعطيتَها باريس السنة الماضية، لكن هذه السنة، يا عزيزي، سوف تصنَع لها كعكة عيد ميلاد.

«الطهو في القلعة» كان اسم دورة تدريبية على الطهو أقيمت في مطبخ قلعة «هوث» التي تعود إلى سنة 1177. القلعة مكان معروف لليالي المواعدة وخروجات البنات، وليلة الجمعة هذه لم تكن مختلفة. كان الفصل يتكون بالأساس من ثنائيات، من جميع الأعمار، ثنائي منها يبدو جلياً أنه في «الموعد الأول». كذلك كانت هناك مجموعة من ثلاث بنات في أوائل العشرينيات انطلقن في نوبة من القرقرة فور دخول آدم.

- كريستين! يووهوو!

سمعت امرأة تناديني. كانت كبيرة ومستديرة، بابتسامة مشعّة على وجه جميل. لم تكن لدي أدنى فكرة مَن هي.

- أنا! إيلين!

ظللتُ أحدّق فيها حتى تذكّرتها فجأة. آخر مرة رأيتها كانت ترتدي زي دراكولا وتقرأ كتاباً لجمهور من الأطفال المرعوبين. في اليومين الأخيرين، منذ وفاة والدة أميليا، ظلّت تساعد في تشغيل المكتبة.

- أنا هنا في موعد.

قالتها همساً حتى لا يسمع رفيقها الواقف بجوارها. لكنها فشلت بشكل بائس.

مددتُ يدي لأصافحه فتيقّنت على الفور أنه مثليٌّ.

- لقد التقيته في فصل «كيف تقع في الحب».

- فصل ماذا؟

- ألم تسمعي عنه؟ يا إلهي، كل البنات يذهبن إليه - والكثير من الرجال أيضاً. وهذا ما يجعلني أذهب.

كانت لا تزال تتكلم بصوت خافت.

- هكذا قابلت مارفن.

قرقرَت وأشارت إليه بفخر، ثم قرقرَت ثانية. تلك المرة شخَرت وانفتحت عيناها من الصدمة وطارت يدها إلى أنفها لتمنع تكرارها ثانية. ضحكت البنات العشرينيات معاً على ما بدا وأنه نكتة فاحشة أو ملاحظة موحية، أو على الأقل هذا ما تخيلتُه من الطريقة التي كن يراقبن آدم بها. وتحرّكت إحداهن لتقترب منه. وابتسم لها.

قلت بصوت عالٍ، وأنا أضع يداً على ذراع آدم وأشدّه قريباً مني:

- وهذا آدم. آدم، هذه إيلين. إنها تحكي لي عن فصول «كيف تقع في الحب» التي تحضرها.

- آه، إنها رائعة! الدورة تحت إشراف إيرما ليفينغستن - تعرفين، المرأة التي تكتب الـ..

خفضَت صوتها.

- الكتب الجنسية. وهي تُقام في قاعة الكنيسة المحلية.

قاطعها آدم:

- المكان المناسب.

تابعَت من دون أن تدرك ما قاله:

- نعم. وكلّ أسبوع نتعلم نصائح حول كيفية مقابلة الشخص المناسب والوقوع في الحب، ثم نشجَّع على تطبيق ما تعلمناه مع زملائنا في الفصل.

قال آدم:

- إذاً هذا هو فرضك المنزلي.

قالت بسرعة، وبأسلوب دفاعي:

- لا، إنه موعدي.

بدا بعض الألم على وجه مارفن.

- عليكِ أن تأتي أنتِ أيضاً.

لكزتني، لكن يبدو أنها لم تدرك قوتها فاندفعت بقوة حتى أنني طرتُ ناحية آدم، الذي أعاد إليّ توازني.

قال آدم، وهو يثبتني وعلى وجهه ابتسامة لعوب:

- نعم، يجب أن تذهبي أنتِ أيضاً.

- إذا ذهبتُ، فسوف تذهب معي.

قلتها، فاختفَت ابتسامته.

قالت إيلين بصوتٍ خافت ثانية:

- سمعتُ عمّا حدث مع زوجك.

نظرَت إليّ بإشفاق، ثم قالت ونوع من الكدر يحلّ على مزاجها المرح بطبعه:

- قابلتُ زوجك، زوجك السابق، وأنا في طريقي إلى العمل قبل بضعة أيام. حكى لي ما حدث. وأنه سيُعيد إليك مضرب الغولف الخاص بك. أنا سعيدة أنّ الأمور بينكما ودية إلى هذه الدرجة. لم تكن الأمور هكذا بيننا أنا وإيمون - هذا زوجي السابق.

سألتُ بارتباك:
- مضرب الغولف الخاص بي؟ لكنني لا ألعب الغولف.
قال آدم:
- لا أنت تلعبين الغولف. وهو تركَ لك المضرب على زجاج سيارتك، تتذكرين؟
- هو... أووووه. صحيح، نعم.
إذاً، فقد كان هو.
رحّبت مدرِّسة الطبخ بكلّ مَن في الفصل، وجلسنا على مقعد مستطيل، وأسماؤنا مكتوبة على ملصقات على صدورنا، لنراقب العرض. راحت الثنائيات الأكثر جدية تدون ملاحظات، بينما أنا وآدم بالكاد ننصت، ثم جاء دورنا لنبدأ إعداد الكمكات. عقد آدم ساعديه ونظر إليّ. كان يخبرني أنه جاء إلى هنا لأنه مضطر، لا لأنه يريد ذلك. تناولت فرشاة الزبدة وبدأتُ أمسح بها الصينية.
سأل آدم إيلين:
- ماذا تعلّمتم اليوم إذن؟
قالت بجدية:
- اليوم كان حول الوقوع في الحب للأسباب الصحيحة. وكيفية التعرّف على هذه الأسباب.
سأل بسخرية:
- واو. وكم تكلّف هذه الدورة؟
لم تكن إيلين غبية. تفحّصَته بشك، وبنوع من الشعور بالإهانة:
- مئة وخمسون يورو لعشرة أسابيع. لكن إيرما تنصح بأخذ دورتين.
أومأ برأسه جاداً:

- نعم، طبيعي. كريستين، هل أنت متأكدة أن ذلك صحيح؟
قلت، وأنا أحاول أن أرشّ الدقيق بالتساوي فوق الزبدة في الصينية:
- لقد انتهى بي الأمر وأن دفعتُ كلّ ما أملكه من أجل الحب، فلا تسألني أنا عن رأيي.
ابتسم لي:
- لا، أقصد الكعكة.
- آه. لقد قالت أن نضع الزبدة هنا لكي لا تلتصق الكعكة، ثم الدقيق حتى لا تشرّب الزبدة.
قلتها والإحباط يراودني لأنّ الدقيق التصق بأنماط غير متساوية بالصينية وبدا أشبه بكتلة ملبّكة ولزجة. الحقيقة أنني لم أكن أستمتع بالأمر. لم أكن أحب الطهو، والخبيز على وجه الخصوص، وبدلاً من أن يختبر آدم «متعة» أخرى من متع الحياة، كنت أنا من أقوم بالعمل. وكان عملاً خالياً من المتعة.
قلت، وأنا أبحث عن قماشة أمسح بها الزبدة عن يدي:
- طيب، الدور دورك الآن - امزج الخليط.
كان آدم ينظر إليّ بنظرة متسلية.
قلت له بحدة:
- ماذا؟
- لا شيء، فقط أراقبك وأنت تستمتعين بالحياة، هذا كل شيء.
ثم حوّل انتباهه إلى إيلين.
- إذاً، ماذا تتعلمون، وكيف تعلّمكم طريقة الوقوع في الحب للأسباب الصحيحة؟

أدارت إيلين ظهرها لموعدها، وراحت تحكي لنا عن فصلها:

- إيرما تقول إننا نفكر في الوقوع في الحب بوصفه أمراً سحرياً وغامضاً يحدث لنا وليس لنا عليه سلطان، وهذا هو السبب في تسميته «الوقوع»، لكن الوقوع في الحب يحدث عندما تتوالى سلسلة من الأحداث مع شخص واحد.

الآن، كان آدم يطرب لسماعها.

- ثم، مثل كلّ شيء في حياتنا، إذا أردته أن يحدث فعليك أن تجعله يحدث. لا تستطيع أن تجلس على الكنبة في منزلك وتتوقع أن تقع في الحب. عليك أن تكون مشاركاً فعالاً في العملية، إيرما تعلّمنا الخطوات التي تجعلنا فاعلين في مسعانا نحو الوقوع في الحب.

- مثل...

- مثل، أن تحدّ من احتياجاتك، أن تكون على سجيّتك، أن توسع دائرتك الاجتماعية، أن تتعامل مع الانتكاسات بواقعية، أن تضحك كثيراً، أن تنصت، أن تكون ذكياً، أن تحكي بعض الأسرار، أن تحرَص على أن تكون العلاقة ممتعة. إنها تعلمنا هذه الأمور في الفصل ثم نقوم بتطبيق عملي، تمرينات بعد الفصل.

- أي نوع من التمرينات؟

- الأسبوع الماضي كان علينا أن نخرج في موعد ونمارس تقنيات الإنصات، حيث تتكلم أنت عشرين بالمئة من الوقت ثم تنصت ثمانين بالمئة.

وسأل آدم مستمتعاً:

- هل أصبحَت للإنصات تقنيات؟

قالت:

- سوف تندهش عندما تعرف كم من الناس لا يمارسونه. طيب، أنا خرجت في موعد مع زميل بعد الفصل ولم تجرِ الأمور على نحو طيّب. كنا نحن الاثنين نحاول أن ننصت، ولا أحد يقوم بمهمة الكلام.

ضحك آدم.

- يا شيف! هل تركّز معي؟

هكذا تعالى صوت المدرّسة الودود واستدارت بضعة رؤوس فحاول آدم أن يبدو مشغولاً

همست إيلين بانفعال:

- الدرس القادم عن الأسرار. سوف نلعب لعبة «لم يسبق لي أبداً أن». ثم نسأل أسئلة مثل ما هي أكثر اللحظات إحراجاً في حياتك، وما هي الذكرى الطفولية المفضلة، وما أكثر شيء تخافه، وما هي مواهبك الدفينة، وما الذي تفعله وأنت وحدك، وما هو اليوم الذي تسميه يوماً رائعاً؟ تعرف، هذا النوع من الأشياء.

سأل آدم، وهو ينظر إلى موعدها الذي كان يقوم بالعمل كله حتى الآن، كما كنت أنا أفعل من أجله:

- إذاً، هذا هو فصلك التالي.

أومأت برأسها في حماس.

بدا وأن آدم على وشك إطلاق ملاحظة ساخرة أخرى، لكنه أوقف نفسه.

- حظاً سعيداً يا إيلين.

ابتسمَت:

- شكراً لك. حظاً سعيداً لك أيضاً.

نظر إليّ، ووجهي قد احمرَّ من المجاهدة في خلط العجين، فابتسم.

همست:

- سوف نعرف سراً أو اثنين من أسرار مارفن، كن أكيداً من هذا.

قهقه آدم، وقال:

- لم أظنّك تنصتين.

- عشرين بالمئة إنصات، وثمانين في المئة خلطاً للعجين.

- سوف أساعدك.

مدّ يده لتناول بيضة.

غمغمت:

- حذار من أن ترمي كلّ البيض على الحائط.

ابتسم آدم، وكسّر البيضة.

- أنت ظريفة.

ثم نظر إليَّ، وتأمّل للحظة.

- ماذا؟ هل يوجدُ دقيقٌ على وجهي؟

- لا.

دفعتُ الزبدية باتجاهه.

- عليك أن تفصلها.

- لا أعرف كيف أفعل ذلك. أنتِ منفصلة، تستطيعين أن تفعليها.

قلت ولم تُعجِبني المزحة:

- ها ها. أنت تزداد مرحاً يوماً بعد يوم.

- هذا بسبب الحياة الممتعة التي تجعلينني أعيشها.

راحت إيلين تراقبنا، متسلية.

- افصل أنت ثلاثاً وأنا سأفصل ثلاثاً.

قلتُها، فاتفقنا.

كسر آدم البيضة وتأوّه لإحساسه بملمس البياض على أصابعه. وضع المحّ المكسور في زبدية، والبياض والقشرة في الأخرى. وفي المرة الثانية كان أسوأ، وأفضل في الثالثة. حاولتُ أن أصطاد القشر لأبعده عن البياض. وبدلاً من وضع السكر على المحّ، أفرغتُه على بياض البيض. وعندما لاحظتُ ما فعلته، بدأت على الفور في رفعه بالملعقة وصبّه في الزبدية الأخرى على أمل ألّا تراني المدرِّسة. ضحك آدم ضحكة مكتومة. أضفت الفانيليا وخلاصة الليمون. ثم بدأتُ أخلط بياض البيض بينما غاب آدم في حلم يقظة، يفكر ولا شك في ماريا العزيزة. لم يَسعني أن أمنع نفسي، دسستُ ذقني في بياض البيض المضروب، فصنعتُ لنفسي لحية طويلة، واستدرت إلى آدم. قلدتُ صوت والده، خفيضاً ومبحوحاً:

- يا بني، يجب أن تدير الشركة. فأنت من عائلة بازل، حيث يحلو الغزل.

نظر إليّ متفاجئاً ثم رمى رأسه إلى الوراء وأطلق ضحكة ربما تكون أعلى من أية ضحكة سمعتها منه من قبل، صوتاً مفعماً بالمتعة والحرية. توقفت المدرِّسة عن الكلام، واستدار الفصل ليحدِّق فينا. اعتذر آدم للجميع لكنه لم يتمكّن من السيطرة على نفسه.

- اعذروني. سأعود بعد لحظة.

قالها، وشقَّ طريقه وسط المطبخ الساكن، وهو يضحك لوحده، غير قادر على التوقف، يمسك ببطنه وكأنها انتفخت من كثرة الضحك.

نظروا جميعاً تجاهي. وكان بياض البيض يتساقط من ذقني، فابتسمتُ لهم جميعاً.

- كعكتك في الفرن؛ ستستغرق عشرين دقيقة. هاكَ.

قلتها وأنا ألحق بآدم إلى الخارج. وناولته معطفه، ثم كشفت عن كأس من الشمبانيا.

- لدينا استراحة عشر دقائق ثم نبدأ في التزيين.

تناولت رشفة من الشمبانيا.

راقبني، وعيناه تلتمعان، ثم ضحك ثانية، نوبة أخرى استولت عليه. كان ضحكاً مُعدياً وسرعان ما انضممتُ إليه، مع أنني كنت أضحك عليه وهو يضحك علي... لم أكن متأكّدة بالضبط. بعد برهة توقف، ثم ضحك قليلاً من جديد، ثم توقف.

قال، وأنفاسه تنتقل في الهواء البارد:

- لم أضحك هكذا منذ وقت طويل.

- مع أنّ الأمر لم يكن مضحكاً إلى هذا الحدّ.

انفجر في الضحك مرة أخرى، واستطاع أن يصرخ:

- كان مضحكاً جداً.

ابتسمت.

- لو كنتُ عرفت أنّ وضع بياض البيض على ذقني سيصلح أحوالك، لفعلتُها منذ أيام.

نظر إليّ، ووجهه مليء بالحيوية، وعيناه براقتان:

- أنتِ. أنتِ منعشة. يجب أن يصفوكِ للاكتئاب بدلاً من الحبوب.

بالطبع أسعَدَني هذا الإطراء. كان ألطف ما قاله لي واللحظة الأقرب التي شعرت فيها أنني لست عقبة في طريق حياته. وبدلاً من أن أردّ بشيء لطيف، تحولتُ إلى وضعية المعالج:

- هل سبق لك وتناولت مضادات للاكتئاب؟

استغرق لحظة ليفكر في الأمر، ليعود مرة أخرى إلى كونه عميلاً، الشخص الذي يُطرح عليه الأسئلة.

- مرة واحدة. ذهبتُ إلى طبيب صحة عامة، وأخبرته بشعوري، فوصف لي حبوباً. لكنها لم تساعدني بالطريقة التي أردتُها. فتوقفت عن تناولها بعد شهر أو اثنين.

قلت:

- لأنها لم تتعامل مع جذور المشكلة.

نظرَ إليّ فرأيتُ أن تعليقي ضايقه. كان يعرف أنني سأحرّضه على رؤية معالج مرة ثانية، فكبحتُ نفسي.

ابتسمت:

- وصنع الكعك هو الطريقة المثالية للوصول إلى الجذور.

قال بلطف:

- طبعاً، لأنك تعرفين بالضبط ما تفعلينه.

- طبعاً.

صمتنا لبرهة ورحتُ أتساءل إن كانت تلك اللحظة التي يجب أن أعترف فيها أنني لا أعرف أصلاً ماذا أفعل، أم أنّ تلميحه بذلك كان اعترافاً كافياً. وكأنني كنت أشعر بما سيأتي، انتفض من سَرَحانه وكسَرَ الصمت.

- صحيح. هيا نبدأ في التزيين.

قبل تزيين الكمكات، كان علينا أولاً إخراجها من الفرن. كانت كعكتنا الوحيدة في الفصل كله التي انهارت من المنتصف. على نحو سحري تقريباً، أمام أعيننا، وفور أن اصطدمت بالهواء، انهار وسطها بهسيس هادئ.

في المقابل، انهرنا نحن في ضحك هستيري حتى كدتُ أبلل سروالي، فطلبَت منّا المدرّسة بأدب، ولكن بحزم، أن نغادر المكان.

15

كيف تحصد ما زرعت

في الطريق إلى العشاء الاحتفالي بعيد ميلاد ماريا في وسط مدينة دبلن توقفنا عند أحد محلات «سبار» لتزيين كمكتنا. كنا لا نزال دائخين، وكأننا في حالة سُكر، نضحك على أيّ شيء لطيف يحدث، إذ كنا تواقين لمشاعر كهذه منذ زمن طويل. حمل آدم الكمكة الإسفنجية على شكل قلب، ذات الوسط الطري النيء والحواف المحترقة.

قال آدم ضاحكاً:

- هذه أبشع كمكة رأيتها في حياتي.

قلت، وأنا أتجول بين الممرات:

- إنها تحتاج إلى جراحة تجميلية، ليس أكثر. آه ها!

تناولت علبة من رشاشات القشدة ورججتها.

- هاي!

صاح مدير المحل في غضب. سارع آدم بإخراج حزمة من النقود، فكفَّ المدير عن الاحتجاج.

أمسك آدم بالكمكة ورحتُ أنا أرش. كانت الرشة الأولى

كارثية؛ إذ لم أكن قد رججت العلبة بما يكفي فانطلقت القشدة في هسيس محبط، ورشرشت على الكعكة وطالت وجه آدم وشعره.

- سأقول إن هذا عشرون بالمئة على الكعكة وثمانون بالمئة على وجهي.

أصابني تعليقه بنوبة من الضحك واستغرق الأمر دقائق كاملة قبل أن أتمكن من تثبيت يدي مرة أخرى لأحاول ثانية. كانت المحاولة الثانية أكثر نجاحاً، وغطّت وجه الكعكة بالقشدة المرشوشة. عندما انتهيت، نظر آدم إليها متأملاً. ثم أخذ الكعكة إلى رف الحلويات المشكلة، واغترف بعضاً من الحلوى على شكل الأسنان اللبنية، ثم بيدٍ مرتعشة نوعاً ما، وزّعها على الوجه.

عرضَها على مدير المحل:

- ما رأيك؟

لم يبدُ الإعجاب على وجه ذلك الـ«هيبي» ذي الشعر الطويل، وقال:

- ينقصها شيء ما.

ضحكت، كان ينقصها الكثير من الأشياء.

قال أخيراً:

- لو كنت مكانكما لأضفت بعض المقرمشات.

رفع آدم إصبعاً في الهواء:

- مقرمشات! هذه فكرة عظيمة.

طلب مني أن أفتح كيساً من الـ«هولا هوبس»، رششته على سطح الكعكة، ثم رجعت إلى الخلف لأطالع عملي.

قال، وهو يتفحّصها من جميع الزوايا:

- مثالية.

قلت:

- إنها أسوأ كمكة رأيتها في حياتي.

- بالضبط. إنها مثالية. ستعرف أنني صنعتها بنفسي.

قبل أن نغادر، دسَّ آدم شمعة على شكل كرة قدم في المنتصف، قائلاً بسعادة:

- إنها تكره كرة القدم.

ثم عدنا إلى السيارة وسائقها.

وقفنا خارج مطعم «إيلي» وراقبنا ماريا وصديقاتها من وراء الزجاج خفية بقدر ما استطعنا بحيث لا يُبصرننا ولا يطلب منا عمال المطعم المضي بعيداً. كان الجو في الخارج يجمد الأوصال، وندف صغيرة من الثلوج بدأت في الهطول. كانت قدماي نمِلتان، وشفتاي تتحركان بالكاد، وكان أنفي قد سقط منذ وقت طويل عن وجهي، أو على الأقل هكذا شعرت.

- اليوم أشعر بأنني... أموت من البرد.

قلت هذه العبارة، فنالت ابتسامة من آدم، وكان ضحكنا الهستيري السابق قد تراجع إلى الدفء. سألته، وأنا أكاد لا أقوى على تحريك شفتي لتشكيل كلماتي:

- هل تعرف أولئك البنات؟

أومأ آدم برأسه:

- إنهنّ أقرب صديقاتها.

كنّ جميلات جميعاً، نساء على الموضة تدور لهن الرؤوس، لكن لا يظهر عليهن الانتباه لذلك، إذ كنّ منغلقات على أنفسهن،

متجمعات معاً في ركن المطعم يتبادلن آخر أخبار الحياة والحب والعالم. لم أستطِع أن أرفع عيني عن ماريا. مرة ثانية شفتاها الحمراوان، علامتها المميزة، والشعر الأسود المقصوص بشكل مستقيم، هذه المرة بملابس عصرية متمثلة في فستان جلدي أسود أنيق. كانت كاملة الأوصاف. وكانت تثرثر مع كل من صديقاتها، ويبدو عليها المرح، والاهتمام، والتعاطف مع كلّ مَن تتكلم. المرة الوحيدة التي حوَّلتُ فيها عينيَّ بعيداً عنها كانت لأراقب آدم وهو يراقبها، وكان من الواضح أنها تمتلك التأثير نفسه عليه. كانت مثل المنوِّم المغناطيسي، هذا النوع من النساء الذي تنجذب إليه معظم العيون. وكانت لطيفة. وتلك كانت ميزتها الفتاكة. كرهتُها أكثر من أي وقت، لكنها كانت الفتاة المثالية لرجل مثل آدم. كانا معاً يشكّلان ثنائياً مذهلاً، متساويين في الجمال لكنهما متمايزان، كلّ منهما غريب ومتفرد. لم يستطع آدم تحويل عينيه عنها، لكنه كان بادي الحزن، وكأنّ خسارته إياها قد سلبته روحه، سلبته كل شيء.

تراجعتُ إلى الخلف بضع خطوات ونظرتُ حولي، ورحت أضرب بقدمي على الأرض لأولِّد الدفء، أي شيء لأنفض عني هذا الشعور بأنني دخيل أو عزول. ما الخطأ الكبير الذي وقع في حياتي وجعلني أقف خارج مطعم أراقب امرأة جميلة تعيش حياة كنت ساعتها أحسدها عليها - وليس فقط على الدفء؟ كان الأمر سخيفاً وشعرت بأنني بلهاء، فاشلة على أعلى مستوى. فجأة لم اعُد أرغب في البقاء هناك أكثر من ذلك.

قال آدم بينما كانت الطاولة تُنظف استعداداً لتقديم الحلوى:

- أخيراً!

كنت قد أوصلت الكعكة إلى المطعم. لم تكُن مهمة عسيرة، أن

أشرح للعاملين وأنا أحاول أن أظلّ بعيدة عن الأنظار، أنها مفاجأة لعيد ميلاد تلك الفتاة الجالسة هناك. وكانت النادلة قد ألقت نظرة واحدة على الكعكة وضحكت. الآن رحنا نتابع الندل الأربعة وهم يبدأون الموكب باتجاه طاولة ماريا. قطع آدم الشارع واقترب من النافذة ليرى أفضل. استولت على ماريا الدهشة، ثم النشوة عندما انضم الزبائن من حولها إلى أغنية عيد الميلاد. لاحظتُ بعضاً من صديقاتها على الطاولة يتبادلن نظرات متسائلة، يحاولن معرفة مَن رتّب لهذه المفاجأة. ثم وُضعت الكعكة أمام ماريا فنظرَت إليها في ارتباك، هذه الكتلة الكبيرة الملبكة على الصحن مع القشدة، والأسنان اللبنية، والـ«هولا هوبس» التي تعجنت من القشدة. للحظة علا وجهها تعبير محايد، وكأنها تحافظ بلطف على مظهر الامتنان حتى لا تجرح مشاعر الصانع المجهول، ثم تمنّت أمنية وأطفأت الشمعة. نظرت إلى البنات لتعرف مَن رتب هذا الأمر. فانطلقت المزيد من هزات الأكتاف والضحكات، ثم راحت تستجوب الندَّل لتتأكد من أنهم لم يخطئوا الطاولة. راح آدم يراقب، بقلق، ورحت أنا أتمنى أن تفهم ماريا أنها منه، حتى لا أضطر إلى الإمساك به ومنعه من الركض إلى داخل المطعم لكي يشرح لها.

قال يستحثّها، بصوت خافت لا يسمعه إلاي:

– انظري يا ماريا. انظري إلى الأسنان والـ«هولا هوبس».

سألته مندهشة:

– هذه الأشياء لها معنى؟

ظننتُ أنه قد التقط العبوات بصورة عشوائية وأفرغها على وجه الكعكة، لم أشعر قط أن ثمة سبب وراء اختياره.

لم تتراجع عيناه عن النافذة، لكنه كان قد سمعني وكان يجيبني

بنبرة مشتتة جعلتني أشعر أنني دخيلة، أنه كان يفضّل ألا يزعج نفسه بالإجابة عن سؤالي:

- في أحد أيامنا الأولى معاً جاءت لتشاهدني وأنا ألعب كرة القدم. كانت تقف على جانب الملعب، وارتطمت الكرة بوجهها، فكسَرَت سنها الأمامي. اشتريت لها أسناناً لبنية حتى تضعها وهي في الطريق إلى منزلها، ورحت أمصّ لها «الهولا هوبس» لتصبح طرية لأن سنّها كان يؤلمها ولا تستطيع أن تعضّ عليه.

وكأنها تعيش من جديد القصة التي كان آدم يحكيها، رفعت ماريا رأسها عن الكعكة، وقد أشرق وجهها بالفهمِ، وشرَعت تضحك. ثم تماسكت لتُخبر الفتيات الأخريات. ومع أن آدم لم يسمع شيئاً، فقد راح يضحك معها. في هذا الوقت كنت قد فقدت حسّ الدعابة تماماً. وراودتني رغبة أن أعود إلى بيتي.

ثم توقفت ماريا عن الضحك وفعلت شيئاً غريباً. بدأت تبكي. وعلى الفور راحت الفتيات الستّ ينكفئن عليها، فضاعت وسط فورة الأحضان وعبارات المواساة.

نظرتُ إلى آدم. وكانت عيناه دامعتين هو الآخر.

استدرتُ لأغادر. في تلك اللحظة لم يكن يهمني حقاً إنْ بقي هو. ولم أظن أنه سيلاحظ أصلاً.

- هاي، يا آنستي الصغيرة إصلاح!

قالها بنعومة، فاستوقفني.

رفع يديه المقفزتين. ضربتُ كفي بكفيه فانثنت أصابعه لتقبض على أصابعي. نظر إليّ فابتلعتُ ريقي بقوة، وقلبي يخفق وقد وقعتُ في شراك نظرته.

قال بنعومة:

- أنتِ عبقرية، هل تعرفين ذلك.

أشحتُ بوجهي بعيداً:

- طيب. لكننا لم نستعدها بعد.

عاد آدم ببصره إلى المطعم. كانت ماريا تمسح عينيها بمنديل ورقي، عادت تنظر إلى الكعكة ثم هزّت رأسها بخفة وضحكت.

ليس بعد. لكننا أوشكنا.

شعرت براحة من نوع غريب لكنها كانت مَشُوبة بالحزن. لم يكن أمامي وقت للاسترسال في مشاعري لأنّ ماريا كانت قد وضعت معطفها ومضت في طريقها للخروج من المطعم.

سألت، وأنا أخلِّص أصابعي من أصابعه:

- اللعنة، هل رأتك؟

أجاب، وقد شابَ صوته قليل من الخوف:

- لا يمكن.

أسرعنا نبتعد عن المطعم بقدر الإمكان. وعندما وصلنا إلى مسافة آمنة استدرتُ ورأيت ماريا واقفة خارج المطعم.

قلت، وقد اطمأن قلبي:

- إنها تدخن سيجارة.

- لكنها ليست مدخِّنة.

راقبناها. فلمحنا ضوءاً ينبعث من الهاتف في يدها. شرع هاتف آدم يرنّ. سرعان ما كتم صوته لكنه راح ينظر إلى الشاشة في اشتياق.

- لا تردّ.

- لماذا؟

- الغياب يزيد الشوق في القلب. نريدها أن تشتاق إليك وأن

تريدك بحقّ. ثم أنك ما زلت غاضباً، أنا أحسّ بذلك. ستقول الأشياء الخطأ وتنفّرها منك.

- مثل باري؟

استدرتُ عنه.

سأل بعد برهة:

- هل تريدينه أن يحاول استعادتك؟

ابتسمتُ بحزن. لم نكن قد تكلمنا كثيراً عن باري، ليس كلاماً جاداً.

- إنه لم يحاول من الأساس. لم أكُن لأرجع له، لكن كان سيصبح لطفاً منه لو حاول. إنه لم يرغب في أيّ شيء بالقدر الكافي أبداً. ولا حتى أنا. أعرف أن هذا يبدو سخيفاً، خاصة وأنني أنا التي هجرته.

- ربما تكون تلك محاولاته: رسائل البريد الصوتي، المكالمات الهاتفية...

- صباح اليوم أخبر صديقة مشتركة بيننا كنا قد قضينا معها ليلة رأس السنة أنني أمقُت الذهاب إلى حفلاتها لأنني أكره طبخها والاستماع إلى غناء أطفالها الذي لا يُحتمل حيث إنهم لا يمتلكون أية موهبة ولا أطيق صبراً حتى يبدأ العدّ التنازلي للسنة الجديدة لكي أستطيع مغادرة منزلها. وقد أرسلَت لي رسالة نصّية، وهي لا تزال منزعجة وغاضبة جداً من هذا الأمر. والآن أصبحتُ خارج قائمة المدعوين في كلّ حفلاتها على مدى المستقبل المنظور.

- طيب، إذاً هو لا يحاول استعادتك.

- لا إنه إنسان يشعر بالمرارة. مضطرب جداً في هذه الأثناء. لا أظنه يسعى لأي نوع من التصالح.

- قولي لصاحبتك إنّ ذلك ليس صحيحاً.
نظرتُ إليه.
أخذ يعِظُني:
- آه، إنه صحيح. إذاً فأنتِ تبولين تحت الـ«دوش»؟
كنت شاكرة للظلام كونه يخفي وجهي القرمزي.
- طيب، ربما ليس كلّ ما يقوله صحيح.
ضحك ضحكة مكتومة وقال:
- إنه صحيح!
- لقد قرصتني بعوضة، قرصة سيئة جداً. وقد دخل هو علي وأنا أحاول أن... طيب، أنتَ تعرف.
بدأ يضحك:
- تبولتِ على عضة البعوضة؟
- ششش!
قلتها وأنا ألكمه في ذراعه، ثم أضفت:
- على أية حال، لم ينجح الأمر.
رحنا نضحك، وأشار هاتفه إلى استلام رسالة صوتية.
قلت:
- كانت تلك رسالة طويلة. دعني أسمعها.
«آدم، هذه أنا». جاء صوتها ناعماً، لطيفاً، وكانت مشاعرها واضحة. لم أكن بحاجة إلى سماع المزيد، لكنني أنصتُّ على أية حال. «لقد استلمتُ كعكتك». ضحكَت. «إنها الكعكة الأسوأ والأكثر رقّة في حياتي. لن أنسى ذاك اليوم أبداً. كان هذا يوم تبادلنا أول قبلة. وفي فمينا تلك الأسنان». ضحكَت. «شكراً لك. أنت مجنون». ضحكَت ثانية. «لقد اشتقت إلى هذا الجزء منك،

لكن... أشعر أنك عدت. أنا آسفة جداً لأنني جرحتك. كنت أشعر بأنني... ضائعة، كنت قلقة. لم أعرف ماذا أفعل. شون كان... كان هناك، وكان مهتماً و... إنه يهتم بك أنت أيضاً بحق، أنت تعرف. لا تكرهه. على أية حال، شكراً لك. اتّصلت لأشكرك. أريد أن أراك، كلمني... طيب؟».

كان آدم يبتسم من الأذن إلى الأذن.

رفعني عالياً ودار بي في الهواء فضحكتُ بصوتٍ عالٍ في الشارع الفارغ البارد المظلم حتى أنّ الضحكة وصلت إلى ماريا خارج المطعم. لكننا لم نقلق: فكل ما ستراه اثنين في الظلام، يستمتعان معاً، يختبئان في الظل، وربما يكونان عاشقين.

16

كيف تنظم حياتك وتجعلها أبسط

عندما عدنا إلى الشقة، نحمل في أيدينا أكياس الوجبات السريعة، لاحظنا أن مكتبة أميليا لا تزال مُضاءة. كانت العاشرة مساء.

قلت وأنا أناوله مفاتيح الشقة:

- هذا أمر غريب. خذْ واسبقني. وابقَ بعيداً عن الزجاج والكهرباء. سألقي نظرة لأطمئن عليها.

قلَب عينيه.

- سآتي معكِ.

فتحت أميليا الباب فور أن اتجهنا إليها، وكأنها كانت واقفة بانتظارنا. كانت عيناها واسعتين وقلقتين. نظرتُ حولي. كانت طاولة قد أُعدَّت وعليها نبيذ، وجبن، ومكسرات، وكانت ثمة خمس زجاجات فارغة من النبيذ على الطاولة. كانت خزائن الكتب قد أزيحت من وسط المكتبة وحلت محلها كراسي، أربع صفوف كلّ صف من أربعة كراسي، وبضع أشخاص يجلسون أمام منصة حيث امرأة تقرأ من كتاب بصوت عال. كان شعرها رمادياً حيوياً طويلاً وجميلاً وانسيابياً، وكانت ترتدي فستاناً أسود صقيلاً مفتوح الرقبة يكشف عن صدر مقوَّر ومدهون بالزيت.

استدارت إيلين ولوّحت لنا بحماس قبل أن تعود لمواجهة المتحدّثة.

همستُ:

- مَن هذه؟

أجابت أميليا، وهي تقلِب عينيها:

- إيرما ليفينغستن. إنني ألعن اليوم الذي وافقتُ فيه إيلين. إيرما هي مدرِّستها في دورة «كيف تقع في الحب»، وإيلين فكرت أنها ستكون فكرة رائعة أن أحضرها إلى هنا وأطلب منها القراءة من كتابها. وها هي تقرأ منذ ساعة كاملة.

ناولتني أميليا الكتاب. «كيف تمتلك منطقتك الإيروتيكية».

- لماذا؟ ومَن يمتلكها الآن؟

سألتُها وأنا ألقي نظرة غير متحمِّسة عليه قبل أن يختطفه آدم من يدي.

كان رجل مسنّ في الصف الأمامي قد راح في النوم وكان يشخر بصوت عالٍ. وثمة امرأة مولعة بالكتب تدوّن فيضاً من الملاحظات، ورجل بدا عليه أنه يحاول إخفاء انتصاب هائل، لا تعرفه إيلين، التي كانت تنظر إليه على أمل أن تواعده.

لاحظت إيرما وجود آدم.

- كنت سأتوقف هنا، لكنني أرى أن لدينا صحبة. سأقرأ الآن الفصل الرابع: متعة أن تمتع نفسك مع شريكك. يجب أن أحذركم أنه جزء شديد الإيروتكية - وعذراً على التورية.

ابتسمتُ لآدم، فابتسم لي قائلاً:

- عظيم. أنا أحب الأجزاء الإيروتيكية. يمكنكما مواصلة الكلام يا بنات. الله معكم!

لم يسعني إلّا أن أضحك بينما بدأت إيرما تقرأ فقراتها الايروتيكية بصوتها العسلي ببطء وشهوانية.

فور أن أصبحنا في هدوء شقة أميليا فوق المكتبة صار بإمكاننا الكلام.

- كيف حالك؟

جلست أميليا، وقد بدا عليها التعب، وقالت:

- أنا بخير. الحياة هنا من غيرها هدوء، ووحدة.

- أنا آسفة لأنني لست معك.

- أنت معي. ثم أن لديك ما يكفي من الأمور مع سايمون وآدم وباري. وآدم.

أضافت بابتسامة صغيرة.

هززت رأسي، غير قادرة على الاستطراد في هذا الموضوع.

- كفى.

- باري أرسل لي رسالة نصية لطيفة عن أمي.

- طيب، يسرني أن أسمع ذلك، من باب التغيير.

- كيف تسير الأمور مع آدم؟

- بخير. جيدة. إنه في الطريق، تعرفين. قريباً سيكون بخير بمفرده. لن يحتاج إليّ بعد ذلك... وهذا أمر رائع.

سمعتُ صوتي يرتعش وتبيّن لي كم بدا زائفاً وسخيفاً.

ابتسمت أميليا:

- طبعاً. كم أنت طيبة حتى تساعديه هكذا.

- نعم، طيب، إنه يمرّ بوقت عصيب.

قالت أميليا وهي تعضّ على شفتها لتمنع نفسها من الابتسام:

- آه. هاه!

دفعتُها برفق:

- كفى. أنا أحاول أن أتكلم بجدية.

- أعرف. أستطيع أن ارى ذلك.

ضحكت أميليا. ثم سرعان ما تحولت ابتسامتها إلى تكشيرة.

- ما الأمر؟

- كنت أفتش في أشيائها.

نهضَت واقفة وسحبت أوراقاً من أحد أدراج المطبخ.

- ووجدتُ هذه.

ناولتني حزمة من الأوراق. كان هناك الكثير منها، فنظرت إليها.

- أخبريني ما هذا.

- مخزن. باسم ماما. لم تخبرني بأيّ شيء عنه، وهو أمر غريب، لأنني كنت أتولى كلّ شؤونها. وكان إيجاره يُخصم مباشرة من حساب لا أعرفه.

أظهرَت لي الرقم. لم أكن أتوقع أن أتعرّف عليه، لكنني عرفته. كان الحساب الذي يذهب إليه إيجاري كلّ شهر. شركة بابا. لم تنتبه أميليا لردّة فعلي فابتلعتُ ريقي، في انتظار أن أفهم إلى ماذا يؤدي هذا.

- لم أكن لأعرفَ أيّ شيء ما لم أعثر بالمصادفة على هذا المظروف الذي يحوي مفتاحاً وتفاصيل المخزن. إنه يعود لعشر سنين مضت. انظري إلى العنوان على الظرف.

كان العنوان البريدي لـ«روز وبناته للمحاماة».

- هل تعرفين أيّ شيء عن هذا الأمر؟

قلت:

- لا لا بكل تأكيد.

نظرة أميليا قالت إنها لا تصدقني.

- طيب، لم أعرف إلّا منذ ثانيتين فقط عندما رأيت رقم الحساب. أميليا، أؤكد لك أنهم لم يخبروني قط بأي شيء. هم المسؤولون عن تنفيذ وصية ماما، أليس كذلك؟

أومات برأسها.

- هل هناك أي ذكر لمحتويات المخزن في الوصية؟

- لا أعرف، لم أذهب لأبيكِ بعد لأسمعها. لكن. كنت أظنني أعرف حقاً ما في وصية ماما. فقد تكلمنا في الأمر.

تناولتُ هاتفي.

- دعينا نسأل بابا. الأمر بسيط، سوف نحلّ المشكلة الآن.

أخذَت أميليا الهاتف من يدي:

- لا. لا لا عمليات إصلاح سريعة الآن.

وعندما لاحظَت على وجهي أنني شعرت بالإهانة، استطرَدَت:

- ماذا إن أخبرك أبوك إنني لا يحق لي دخول المخزن؟

- لن يقول ذلك. لماذا يقول ذلك؟ أملاكها أصبحت أملاكك الآن.

- ماذا إن كان يُفترض ألا أعرف بأمره؟ فور أن نسأله، سيتحدّد مصيري. أريد أن أذهب وأكتشف بنفسي ماذا يوجد هناك.

راقبتها وعيناها تغيمان وقد ضاعت بين آلاف الأفكار في رأسها.

- لماذا تكلّف نفسها كل هذا العناء كي تخفي عني ما بداخل المخزن؟

في اليوم التالي توجّهنا أنا وأميليا وآدم إلى «ستور إيدج»، وهي شركة للمخازن الخاصة تقع في مجمع كبير للتسوق في دبلن. كانت أبواب المخازن باللون الوردي الساطع، وكذا كان شعار الشركة، حتى يمكن رؤيته وسط حركة المرور في الطريق السريع القريب. كان اللون كافياً لإصابتي بالصداع، خاصة بعد ليلة من الأرق قضيتها وأنا أحاول وضع خطة لمستقبل آدم، لكنني ذكّرت نفسي بأنني هنا لأدعم صديقتي. والحقيقة أنني كنت مسرورة بالإلهاء الذي سببته المنعطفات غير المتوقعة في مسار حياة أميليا. وكان مزاج آدم قد تعكر ثانية بعدما راحت أفكاره تعود إلى المستقبل الذي سيقضيه في خدمة شركة العائلة، وكانت فكرتي ذلك الصباح - أن أقدّم له «مفكرة عرفان» يسجّل فيها كل يوم خمسة أشياء على الأقل يشعر تجاهها بالامتنان، حتى يُصبح لديه في نهاية الأسبوع خمسة وثلاثون شيئاً - قد اختفت مثل حجر في بئر. كنا قد تحوّلنا إلى خطة مواجهة لأزماته وقد آثر أن ينظّف ثلاجتي على أن يعترف بالأشياء التي يمتنّ لها في حياته. وكانت دلالة ذلك واضحة. يبدو أنني إذا عجزت عن حلّ قضية مصنع حلويات بازل، فإن النجاح مع ماريا سيصبح بلا طائل.

بينما أتفكّر في الأمر، حاولتُ المحافظة على الأجواء لطيفة من أجل أميليا.

مازحتُها قائلة، وأنا أكمل اللعبة التي ظللنا نلعبها طوال الطريق:

- ربما كانت أمك عميلاً سرياً وستجدين داخل المخزن مجموعة من الهويات السرية، والباروكات، وجوازات السفر، وحقائب بجيوب سرية.

نظرتُ إلى آدم لأسلمه الكلمة.

- والدك لديه مجموعة ضخمة من المواد الإباحيه لم يكن يريدك أن تعرفي بأمرها.

أجفلت أميليا.

قلتُ:

- والداك كانا سادو-مازوكيين وهذا هو عرينهم السري.

أطرى آدم عليّ:

- هذا لطيف.

- شكراً.

قال آدم:

- والداك اختلسا الملايين وخزّناها هنا.

غمغمت أميليا:

- يا ليت!

- أمك سرقت الحصان شرجار[1]

قلتُها، فانفجر آدم ضاحكاً.

توقفت أميليا فجأة أمام الباب الوردي الساطع، فاصطدمنا بظهرها. لملمَت نفسها، ونظرت إليّ، ثم وضعت المفتاح في الباب، وأدارته ببطء ودفعت فانفتح الباب، وهي تقف بعيداً عن الغرفة بقدر الإمكان تحسّباً لأن يقفز شيء عليها. وقد استقبلنا ظلامٌ عطِن.

تحسّس آدم الحائط وضغط زر الإنارة.

---

(1) الحصان شرجار: حصان سبق إيرلندي شهير، خطفه ملثمون عام 198: ولم يظهر بعدها. وقد تناولت هذه الحادثة عدد من الكتب والوثائقيات وفيلم سينمائي (المترجم).

- واه!

خطونا إلى الداخل ونظرنا حولنا.

قلتُ:

- أمك كانت إميلدا ماركوس[1]

كلّ حائط من الغرفة التي مساحتها عشرة أقدام في عشرة أقدام كان مبطّناً بوحدات تخزين تكتظّ بعلب الأحذية. وكلّ علبة كانت تحمل ملصقاً بسنة معينة، بدءاً من علبة الركن السفلي الأيسر الملصق عليها سنة 1954 وانتهاء بالحائط المقابل بعلبة يرجع تاريخها إلى عشر سنوات مضت.

قالت أميليا وهي تتجه نحو العلبة الأولى وتفتحها:

- هذا هو عام زواجهما.

بالداخل كانت صورة لوالديها يوم زفافهما، مع زهرة مجفّفة من باقة العرس. كانت ثمة دعوة للزفاف، وكتاب صلوات من الحفل، وصور من شهر عسلهما، وتذكرة قطار، وتذكرة باخرة، وكعب تذكرة سينما من موعدهما الأول، وإيصال مطعم، ورباط حذاء، وكلمات متقاطعة محلولة بالكامل من صحيفة أيريش تايمز - وجميعها مرتبة بنظام. ليس مجرد صندوق ذكريات، كانت غرفة ذكريات.

- يا إلهي، لقد احتفظا بكلّ شيء!

مرّرت أميليا أصابعها برقة على صفوف علب الأحذية، وتوقفت عند السنة الأخيرة.

---

(1) إميلدا ماركوس: أرملة ديكتاتور الفلبين فيرناندو ماركوس الذي حكم بين عامي 1965 و1986. لقّبت بـ«الفراشة الحديدية» وهي الآن عضو بمجلس النواب الفلبيني. عُرفت بثرائها الفاحش وكانت تمتلك ألف زوج من الأحذية، أودِعَ بعضها في متحف «ماريكينا» (المترجم).

- سنة وفاة بابا. لا بد وأنه هو مَن رتَّب كل هذا.

ابتلعت ريقها بقوة، وابتسمَت حين تخيَّلَته يرتب هذه المجموعة، ثم عبسَت، وقد تألّمت لكونهما أخفيا الأمر عنها.

مدّت يدها إلى علبة أخرى بشكل عشوائي وفتّشت داخلها، ثم سحبت علبة أخرى. واحدة بعد واحدة، راحت تفتش كلّ علبة، تهتف فرحاً وهي تعثر على أغراض تلو أغراض تمثّل ذكريات في حياتهما، وفي حياتها. تقارير مدرسية قديمة تخصّها، الشارة التي كانت تضعها في أول يوم مدرسة، أولى أسنانها، خصلة شعر من أول زيارة لها لمصففة الشعر، خطاب كانت قد كتبته لوالدها عندما كانت في الثامنة من عمرها تعتذر له فيه بعدما تعاركا. بدأتُ أتساءل إن كان من الأفضل أن نتركها وحدها في الغرفة، بالتأكيد تريد قضاء ساعات لا نهاية لها وهي تفتشر في كل علبة، تعيش من جديد كلّ سنة من سنيّ حياة والديها الزوجية ،حياتها. لكنها كانت بحاجة إلى شخص تشاركه ذكرياتها، وكان آدم صبوراً بما يكفي لأن يظلّ إلى جواري حتى نفعل ذلك من أجلها. حتى هو بدا عليه التأثر بما رآه وتمنيتُ أن يكون ذلك نوعاً جيداً من العلاج له، أن يرى هذا الحبّ المحتجز في هذه الغرفة.

رفعَت صورة لوالديها في جبال النمسا.

- كان هذا في شاليه الإجازات الخاص بعمي.

قالتها وهي تتفحص الصورة مبتسمة، وتمرِّر أصابعها على وجهيهما.

- كانا يذهبان إلى هناك كلّ سنة قبل ولادتي. رأيت الصور وتوسّلت إليهما أن يصطحباني، لكن ماما رفضت الذهاب.

سألها آدم:

- هل بدأ مرضها منذ كنتِ طفلة؟

- ليس في البداية. أصيبت بأوّل سكتة عندما كنت في الثانية عشرة، لكن قبل ذلك كانت قد أصبحت شديدة الخوف. أصبحت شديدة التوتر فيما يخص السفر بعدما أنجبتني. أعتقد أنه شأن من شؤون الأمهات.

نظرّت إلينا لنؤكّد لها اعتقادها، لكن أياً منّا لم يستطع الإجابة، حيث نشأنا من دون أم.

- لم أتصور أنهما سيحتفظان بكل هذا.

- أنا متعجب، لماذا أخفيا ذلك عنكِ؟

قالها آدم، وكأنما لنفسه أكثر من لأميليا، وقد جعله انهماكه في استعراض الرفوف لا يتنبه لكلماته.

كان ذلك بمثابة الفيل في الغرفة، وقد أشار ناحيته وصاح. وقد أدرك ذلك فور أن نطق بعبارته فسارع لإخفاء آثاره.

- كم هو رائع منهما أن يحتفظا بكلّ ذلك.

لكن الوقت كان قد فات. واكتسى وجه أميليا بتعبير غريب. لقد ذكّرها بأن هذه الغرفة سرّ لم يرغبا في مشاركته معها. فلماذا؟

سألتُ، بقلق:

- أميليا؟ هل أنت بخير؟ ما هذا؟

وكأنما خرجَت أميليا من غيبوبة، قفزَت وراحت تفتش الأرفف كما لو كانت تعرف ما تبحث عنه وليس أمامها ثانية واحدة تضيعها. مرّرت أصابعها على التواريخ الملصقة على العلب.

سألتُها:

- عمّ تبحثين؟ هل يمكنني أن أساعدك؟

قالت، وهي تقف على أطراف أصابعها لتقرأ التواريخ على الرفوف العلوية:

- عن سنة ميلادي.

قلتُ لآدم:

- ثمانية وسبعين.

بطوله البالغ ست أقدام يستطيع أن يصل إليها أسهل منّا بكثير.

قال، وهو يسحب علبة تكتسي بالغبار:

- وجدتُها.

كان يُنزلها إلى مستوى أميليا عندما كانت هي تمدّ يدها إلى أعلى فخبطت العلبة عرضاً، فطارت في سماء المخزن. انفتح الغطاء وتطايرت المحتويات في الهواء وتبعثرت على الأرض في كل مكان. نزلنا على أيدينا وركبنا لنجمع أكبر قدر ممكن من الأشياء. واصطدمت رأسي برأس آدم.

- آو.

ضحكتُ ومدّ آدم يده ليفرك رأسي.

- آسف.

قالها وهو يجفل، وقد شعر بألمي. نظر إليّ بهاتين العينين الثلجيتين الزرقاوين الواسعتين فذبتُ ذوبانَ. كنت أتمنى لو بقيت في غرفة الحب الصغيرة هذه معه إلى الأبد. أثارتني الفكرة، وجعلتني أحمرُّ خجلاً؛ كان أمراً لطيفاً أن أفتتنَ بشخص من جديد. لقد مرّ وقت طويل، وبعد باري بدأتُ أقلق من كوني لن أشعر بهذا الشعور تجاه أي شخص آخر، لكن ها هو، حياً بداخلي، تلك الكرة من الأعصاب والقلق والإثارة كلّ مرة ينظر فيها نحوي. لكن فور أن

حدث ذلك، صدمتني واقعية موقفي فانزلق ذلك الشعور إلى الزاوية ثانية.

سأل بلطف:

- هل أنتِ بخير؟

أومأتُ برأسي.

- تمام.

قالها بابتسامة صغيرة فشعرتُ بقشعريرة تسري من رأسي إلى أصابع قدمي، وكأنني أئز شرراً.

انتابني ذعر وأدركتُ أن أميليا، التي كانت تقف إلى جانبي، قد استغرقَت في صمت تام. وإذ افترضتُ أنها تشهد لحظتنا، رفعتُ رأسي ورأيت الدموع تنحدر على خديها وهي تقرأ قصاصة ورق في يدها، فقفزتُ واقفة.

- أميليا، ما الأمر؟

ناولتني الورقة المكتوبة بخط اليد:

- أمي... لم تكن أمي.

طفلتي العزيزة أميليا

آسفة على عجزي عن رعايتك كما ينبغي. عندما تكبرين أتمنى أن تفهمي أن هذا القرار كان دافعه الحب الخالص لا غير. إنني أثق في كونك في يد أمينة ومُحبة مع ماجدا ولين. سأفكر فيك دائماً.

محبتي إلى الأبد

أمك.

عندما عدنا إلى مطبخ أميليا كنت أقرأ الرسالة بصوت عالي لأميليا وإيلين. كانت أميليا تذرع الغرفة، بعدما انتقلَت من الصدمة إلى الأسى. والآن إلى غضب لاذع مزعج، جعلني أنا وإيلين عاجزتين عن قول أي شيء. كانت إيلين تتحسّس الأغراض في علبة الأحذية: أحذية أطفال، سترة، قبعة، فستان، خشخيشة، وأشياء أخرى.

قالت، مقاطِعَة اندفاع أميليا:

- كلها صناعة يدوية.

ردّت أميليا بحدة:

- ثم؟ هذا ليس هو الموضوع.

- أقصد، هذه دانتيللا كينمير.

فاحتدّت أميليا ثانية:

- ومَن يهتم أي نوع من الدانتيللا هي؟

- المسألة أن قليلاً من الناس هم الذين يصنعون هذه الدانتيللا، وليس في أيامنا هذه حتى، ومعنى ذلك أن مكاناً واحد هو الذي كان يصنعه في السبعينيات.

توقفَت أميليا عن المشي ونظرت إلى إيلين، وقد بانَ الفهمُ على وجهها.

كان عليّ أن أوقف هذا السخف:

- اسمعوا. اسمعوا. دعونا لا ندخل في هذا الأمر. أنا متأكدة أن هذاه الدانتيللا يمكن أن يصنعها أي شخص في العالم يا إيلين. علينا ألّا نرفع من آمال أميليا بشأن العثور على والديها.

- العثور على والديّ؟

همسَت أميليا، مذهولة. كان يبدو أن الفكرة لم تكن قد طرأت

لها. لقد كانت مستغرقة في التساؤل عن السبب الذي جعل والديها بالتبني يخفيان عنها الأمر وكيف كذبا عليها طيلة هذا الزمن، حتى أنها لم تكن بعد قد وصلت إلى فكرة إمكانية العثور على والديها الحقيقيين.

- كلّ ما أقوله، إن هذه دانتيللا كينمير، صُنعت بحب واهتمام. أنا أعرف، لأنني بدأت فصلاً لصناعة الدانتيللا لكي أقابل الرجال. كل شيء في هذه العلبة يشير إلى كينمير. الدانتيللا دانتيللا كينمير، والبلوزات من «كويلز»، وهي نفسها كينمير.

قلتُ، بسرعة لأخرج قطار الأفكار السخيف ذلك عن سكّته:

- لا يمكن أن تكوني قد لاحظتي أنه «كويلز» من طريقة تطريزه.

- بطاقته تقول هذا.

قالتها إيلين وهي تريني البطاقة. رفعَت رأسها إلى أميليا.

- أميليا، أظن أن أمك البيولوجية في كينمير.

- يا إلهي!

قلتها وأنا أفرك وجهي بإجهاد. لقد كانت أمامنا ليلة طويلة.

كان آدم قد عاد إلى شقة أميليا مع تعليمات مشدّدة بإكمال لعبة الصور المقطّعة ذات الخمسمئة قطعة التي اشتريتها له. لم يكن متحمساً ولا متحفزاً تجاه الصورة الزيتية للعبة التي تُظهر بحراً هائج الأمواج والتي ظللتُ أجمعها معه لساعة كل يوم، لذا اشتريت له عبر الإنترنت لعبة أخرى تُظهر فتاة عارية الصدر على الشاطئ، وصلَت ذاك الصباح. وتوقعت أنه لن يبدأ من الإطار في هذه الصورة!

عدتُ في ساعات الصباح الأولى، منهكة من الدوران في دوائر

مع أميليا. لو لم تكن إيلين هناك لكان من الأسهل أن أكلّمها كلاماً منطقياً، لكن برغم كلّ جهودي، عندما غادرت في آخر الليل، كانت أميليا مصرّة أيّما إصرار على الذهاب إلى كينمير.

- كيف حالها؟

سألني آدم، وهو مُنكبٌّ على طاولة القهوة وفي يده قطعة من اللعبة. كانت جبهته متجعدة، وشفتاه مزمومتين في تركيز. كان منظره جميلاً وجعلني أبتسم.

رفع رأسه وضبطني وأنا أحدّق فيه.

- ماذا؟

- لا شيء. لقد أجبتَ للتو عن تساؤلاتي حول ما إذا كنت رجل مؤخرات أم نهود.

- رجل نهود حتى النهاية.

كان قد أكمل أحد النهدين بنجاح. وكما توقعت، لم يجمع أية قطعة من الإطار.

- هذه اللعبة أفضل بكثير من الأخيرة، شكراً لكِ.

- في خدمتك.

نزلتُ على ركبتي وانضممتُ إليه في اللعبة.

شعرت بأنه يراقبني. تفحّصني قليلاً وعندما وجدني لا أنظر إليه تابع كلامه:

- أنا الآن أبحث عن حلمة يُمنى.

رحنا ندقق في الطاولة الزجاجية، ورأسانا متقاربان. ثم ناولته قطعة.

- هاك.

- هذه ليست حلمة.

- بل هي كذلك - هي جزء من الحلمة وجزء من الإبط، وجزء من البحر. انظر إلى العلبة: إنّ حلمتها صلبة وعلى وشك أن تضرب راكب الأمواج في الخلفية فتطيح به من على لوحه. هل ترى، هذا هو اللوح.

وأشرتُ إلى القطعة.

ضحك قائلاً:

- أوه، نعم. تعرفين، الطريقة التي تتكلمين بها، تثيرني مثل إيرما.

شخرتُ:

- إيرما، لا أصدق أنها طلبت رقم هاتفك.

- وأنا لا أصدق أنني أعطيتها رقمك.

- ماذا؟

دفعته. فدفعني. كانت مغازلة طفولية ولذيذة في آن.

- إذاً، ماذا ستفعل أميليا؟

- إنها مشوشة نوعاً ما. واضح أنها صدمة هائلة. عن نفسي لن أفاجأ إن سمعتُ أنني متبناة، بل وربما أشعر بقدر من السعادة.

وافقني قائلاً:

- بالضبط، بالضبط.

ناولته قطعة:

- هذه من شريط البيكيني.

جلسنا في صمت مريح.

فجأة قال:

- أميليا لم تبدُ مصدومة بهذا القدر. هل لاحظتِ كيف اندفعت إلى سنة ميلادها؟ لقد كانت هائجة.

- تقول إنها لم يكن لديها أية فكرة.
هكذا احتججتُ على آدم، ولو أنني، من أعماقي، كنت متفقة مع غرائزه.
قال، وهو ينظر إليّ:
- وأنا أقول إنها كانت تعرف. أحياناً تعرفين شيئاً حتى وأنت لا تعرفينه.
ثم أطبق ثانية. ذلك الصمت. وكنت أتطلع له في دهشة.
- ماذا؟
ابتلعتُ ريقي:
- لا شيء. فقط..
ثم غيرتُ الموضوع.
- إيلين تحاول أن تقنع أميليا أن تذهب إلى كينمير للعثور على والديها الحقيقيين.
- إيلين بحاجة إلى من يفحص قواها العقلية.
سكتُّ.
تطلّع إليّ:
- تعرفين أنها فكرة سخيفة، أليس كذلك؟
- أعرف، لكن أميليا تريد أن تفعل ذلك.
- بالطبع تريد أن تفعل ذلك. في أسبوع واحد انهار عالمها بأكمله فوق رأسها. إنها لا تفكر بطريقة سليمة. ولسوف توافق على الذهاب إلى القمر إن اقترح عليها أحدهم ذلك.
ما قاله ضَرَبَ على وتر الحقيقة. ليس بشأن أميليا، ولكن شأنه هو. كان عالمه قد انتهى تقريباً ليلة الأحد، لم يكن يفكر بطريقة سليمة: كان ليفعل أي شيء لكي يصلح الأمور. وتصادف أنني كنت

هذا الشيء. ابتلعت ريقي بقوة، وأنا أعرف أن هذه التجربة كانت من أجله، لا من أجلي. كان عليّ انتشال نفسي من الموقف، عليَّ التوقف عن الشعور بدلاً منه. عليَّ إخراجه من دبلن، من حياتي، وعليَّ البدء في إصلاح حياته، في وضع الأساسات التي تتيح له العودة بسلاسة، ساعتها سأُحكم عليه الغطاء وأقول له ليلة سعيدة ووداعاً.

- لم يسبق لي وأن رأيت أميليا تريد الخروج إلى أي مكان طيلة زمن صداقتنا. لم تكن تخرج في عطلات نهاية الأسبوع، أو إذا خرجت كانت تفعل ذلك بعد إلحاح. لم يكن بوسعها الذهاب إلى أي مكان، بل إنها لم تغادر البلاد أبداً. إن رغبتها في الذهاب في تلك الرحلة أمرٌ جَلَل، بصرف النظر عمّا إذا كانت ستعثر على والديها الحقيقيين أم لا. قلت لها إنني سآخذها إلى محقق خاص غداً لترى إن كان يمكن أن يفيدها.

تنهدتُ. كنت مضطرة إلى تنحية أميليا جانباً.

- آدم، علينا الذهاب إلى تيبيراري. علينا إصلاح الأمور هناك. لقد فعلنا ما نستطيع مع ماريا حتى الآن، وحان الوقت لمغادرة دبلن لبضعة أيام. وسوف أعيدك في الوقت المناسب من أجل عيد ميلادك، وقد رتَّبت الأمور للإعلان عن أنك لن تتسلم إدارة شركة بازل. سوف تستعيد ماريا، ووظيفتك في حرس السواحل، وسوف تُنقذ بازل وسوف أخرج من دماغك إلى الأبد.

ابتسمتُ بشفتين مطبقتين.

لم يبدُ سعيداً جدا لكلامي هذا.

- لا تكن بائساً هكذا. لدينا أمر واحد نفعله غداً قبل أن نغادر ماريا لبضعة أيام.

تناولتُ العلبة الموضوعة إلى جوار الباب، طردٌ آخر وصل هذا الصباح. كان الأرق مفيداً في بعض الأمور. التسوّق عبر الإنترنت.

نظر إليها بتشكك:

- ماذا في هذه العلبة؟

- ماريا قالت إنها تريد أن تراك. طيب، غداً، ستراك. كثيراً.

فتحتُ العلبة وكشفت محتوياتها:

- تا دا!

أشرق وجهه الجميل وهو ينظر إليَّ في اندهاش. ثم ضحك قائلاً:

- كريستين، كم أتمنى لو كان العالم مليئاً بأناس على شاكلتك، تعرفين هذا؟

صحتُ فيه، إنما داخل رأسي: **إذاً، فلتملأ بي عالمك.**

17

كيف تظهر وسط الزحام

في الصباح التالي تخلّينا عن لعبة الصور المقطّعة. كان آدم يقف في وسط دبلن، متحمّسا للمشروع التالي، وهو يعتمر قبعة صوفية بيضاء وحمراء لها كرة حمراء، ومن تحتها تبرز باروكة سوداء، ويضع نظارة دائرية سوداء، ويرتدي بلوفر مخططاً بالأحمر والأبيض، وبنطاله الجينز الأزرق ويمسك بعصا للسير. وما إن وقعت عيناي عليه وهو يرتدي مثل «والي» (في حلقات «أين والي؟») حتى شرعتُ في الضحك ولم أعد أستطيع التوقف. حتى وهو يرتدي ملابس والي، كان جميلاً.

كانت ماريا تصعد في المصعد في «ماركس أند سبنسرز» عندما رأت، إلى جوارها تماماً ولكن متّجهاً لأسفل، رجلاً يشبه آدم كثيراً يرتدي ملابس «أين والي». لم ينظر باتجاهها ولو مرة، إذ أبقى رأسه مرفوعاً إلى أعلى وعيناه تنظران إلى الأمام مباشرة. لم يتغير تعبير وجهه قط، ما دعاها للتساؤل إن كانت تمثيلية أعدّت من أجلها أم مجرد صدفة، لكن عندما كانت تضع البروكلي في سلّتها مرَّ «أين والي» من جانبها وهو يدفع عربة تسوق فارغة، ثم اختفى حول أحد الأركان عندما حاولت أن تتبعه في الممر، وعندها بدأت تشكّ أنها

ربما كانت المقصودة. وعندما كانت تجلس في الطابق الرابع من متجر «براون توماس» لتجميل أظافرها ومرَّ الرجل نفسه بجوارها، وراح يظهر ويختفي من بين الأزياء المعلقة على الحوامل ثم اختفى، صارت متأكدة أنه هو. وقد تأكدت من ذلك عندما لمحته من زاوية عينها وهي تشتري زهوراً في «غرافتون ستريت»، وعندما كانت تشتري قهوة في «بوتلرز» ومرَّ من أمام الواجهة قبل أن يطأطئ رأسه ويختفي عن الأنظار، راحت تضحك بصوت عالٍ. وفيما كانت تعبُر الجسر في «ستيفنز غرين»، راحت تتطلع في الحديقة لكي تراه. التقطت عيناها بارقة من اللون الأحمر ورأته على الممرّ أسفل الجسر. راقبته وهو يدخل من أحد جانبي الجسر، فهرعت إلى الجانب الآخر لتراه وهو يخرج. منذ تلك اللحظة، وكلما لمحت بارقة حمراء كانت تتوقف وتحدق، والتوقع يرفرف بداخلها أنه سيظهر ثانية.

- آدم!

نادت من فوق الجسر، لكنه لم يرفع رأسه إليها. تجاهلها وظلَّ متقمِّصاً الشخصية وواصل نزهته المرحة كـ«أين والي»، الأخرق الأحمق بمشيته المضحكة وعصاه المتأرجحة بطرب، والجِوال الكبير المعلق على ظهره.

لعلعَت بالضحك، وراح المارة ينظرون إليها، لكنها لم تهتم. لو كان بإمكانها أن تمد بصرها لترى ما وراء الأشجار حيث اختفى، لتوقفَت عن الضحك. لأنها كانت سترى الثنائي الذي كان في الشارع المظلم قرب المطعم في الليلة السابقة، ينفجران في الضحك مرة ثانية عندما شعر أنه في مأمن ويستطيع التخلي عن شخصية «والي». كلّ مرة ترى فيها هذا الرجل بالذات، لم تكن ترى المرأة

التي تقف وراءه، معه، إلى جانبه، تشجّعه، تدعمه. وربما لو رأت ذلك، لتساءلت مَن هو المقصود حقاً بهذا العرض؟

نزعتُ قبعة «والي» عن رأس آدم ورميتها في وجهه:

- هيا يا رجل يا مجنون. هيا نمضي من هنا، أنا جائعة.

سألني باستغراب ساخر:

- جائعة؟ لا أصدق. لقد شفينا!

جلسنا معاً، أنا آكل السلطة، ولكن سلطة أكثر ثراء من المعتاد، مع الجوز، وهو بطبق الدجاج الساخن. وفي غمضة عين كنا قد مسحنا أطباقنا:

تجشأتُ بصوت خفيض فضحك آدم. قال:

- انظري إلى أي مدى ذهبنا.

رمقني بنظرة جعلت معدتي تتقلقل. ثم فكرت كيف سينتهي هذا الأمر ففقدت شهيتي من جديد. لحسن الحظ، ألهتني مكالمة هاتفية من أوسكار، الذي أراد أن يثرثر معي قليلاً وهو جالس في الحافلة. بعدها، وقد ذكرتني المكالمة بدوري في التوقيت المثالي، عدت إلى العمل.

- اليوم أشعر بأنني...

تطلعت إليه ليكمل.

- اليوم أشعر بأنني... متخمٌ بالطعام.

- هذا ليس امتحاناً، تعرف، ليست هناك إجابة خاطئة.

فكّر في الأمر قليلاً:

- اليوم أشعر أنني... سعيد. مستعاد. لا، ليس مستعاداً، متجدّد. وكأنني أنا، ولكن نسخة أفضل مني.

نظر إليّ باهتمام.

- هل هذا كلام معقول؟

لم أستطِع ان أمنع نفسي. كان عليّ أن أشيح بنظري بعيداً وإلّا ستكشف له عيناي أكثر من اللازم. بدلاً من التقاء نظراتنا، ركزتُ على رشاشاتّي الملح والفلفل ورحت أدفعهما حول الطاولة بفتور.

- تمام. أظن أن ذلك لأنك تعتقد أنك استعدت ماريا ثانية.

بدا وأن السؤال أربكه.

- سؤالي هو، هل أنت مستعد للمضي قدماً واستكمال المهمة؟

سحب نفساً عميقاً.

- لم تسر الأمور على ما يرام في المستشفى.

لم أكن أملك إجابة عن ذلك. بدأتُ أغرس شوكتي في السلطة ثانية.

- لماذا اجتمعت مع ابن عمك نيجل؟ لقد ادّعى أنكما تكلّمتا عن الاندماج.

- أردتُ أن أراه. لم تكن عيناي قد وقعتا عليه منذ كنا في الثانية عشرة - هل تتخيلين؟ هذا الدم الفاسد بين آل بارثولميو وآل بازل كان فقط بين والدينا بالنسبة لي. ووصية جدي تنصّ صراحة على أنني إذا لم أتولَّ قيادة الشركة، فإنها تذهب إلى نيجل. أردت أن أعرف نواياه، ماذا سيفعل من أجل الشركة.

- أردتَ هدنة.

- لم يخطر ببالي أصلاً أننا بحاجة إلى هدنة. كما قلت، فيما يتعلق بي أنا فإن المعركة كانت بين والدينا، ليست بيننا. كنت أبحث عن مخرج يا كريستين. كنت أريده أن يقول إنه سيدير الشركة بالضبط

بالطريقة التي يجب أن تُدار بها. وبدلاً من ذلك، بدأ يتكلم عن اندماج، كما لو كنا نعقد صفقة في التوّ واللحظة.

- ورفضتَ طلبه؟

- استمعت إليه. أقصد. هل سيكون الأمر سيئاً جداً إذا اتّحدت بارثولميو مع بازل؟ كان ذلك اسم جدي، لهذا كان حلاً مناسباً، وكنا سنترك كلّ الدماء الفاسدة خلفنا، ونبدأ من جديد. الاندماج بين الشركتين سيساعد الاسمين التجاريين. ولو لم يكن هناك ذلك الشقاق لكان والدي وافقَ في لمح البصر، لكن نيجل ملدوغ من شركة العائلة شأنه شأن عمي ليام. يريد أن يدمج الشركتين، ثم يبيعهما. قال إنه بتلك الطريقة يستطيع كلانا الخروج من الـ«بيزنس»، وقضاء بقية حياتنا ممدَّدين على الشاطئ في مكان ما.

بدا على آدم وكأنه يريد أن يلكم حائطاً. كانت العدوانية تتراكم داخله ثانية. وضعت يدي على ذراعه لبرهة.

- لكن يبدو وكأنّ البيع سيحلّ مشكلة بالنسبة لك.

- أنا لا أريد إدارة هذا الـ«بيزنس»، لكن مستحيل أيضاً أن أخسف به الأرض. الكثير من الناس يعتمدون عليّ. أريد أن أرى بازل تنتهي بين أيدٍ أمينة، حتى تظلّ مزدهرة. إنني مَدين لوالدي وجدي بهذا القدر على الأقل.

مرَّر أصابعه في شعره، منهكاً من الأمر برمّته.

- وهل تظنّ أن أختك كانت ستبيع الشركة؟

- لافينيا كانت ستتماسك عشر سنوات حتى تصبح مستحقة للميراث، ثم تبيعها مقابل أعلى سعر، لأي مَن كان. ولكن لكي تحقق ذلك، سيكون عليها أن ترجع إلى البلاد، حيث ستواجه السجن - وسأسعى أنا لذلك، لو لم يسعَ أحد آخر، بعد ما فعلَته.

خاطبته برقة:

- آدم، لو كنت قد قفزت، إن قفزت، فماذا سيكون مصير الـ «بيزنس»؟

- لو قفزت يا كريستين، لما عدتُ أحمل همّ هذه الفوضى المؤسفة، تلك هي النقطة اللعينة.

ألقى بالنقود على الطاولة، ونهض مغادراً المطعم.

جلست أمام بابا في مكتبه. كان يحدق فيّ بلا تعبير.

- قولي ثانية.

- اي جزء؟

- الموضوع كله.

صرخت:

- بابا، أنا أتكلم لي عشر دقائق!

- وهذه هي المشكلة تحديداً. كلامك كان كثيراً جداً، ومملاً جداً، وعقلي شرَدَ مني. ثم هل تشرحين لي لماذا لدينا بيض مهشّم في كل مكان في حديقتنا منذ يوم الثلاثاء؟

سحبت نفساً عميقاً، وأغمضتُ عيني وقرصت أنفي لكي أهدأ.

- إنه جزء من العلاج.

- لكنك لستِ معالجة.

قلت أدافع عن نفسي:

- أعرف هذا.

- إذاً، لماذا لا يذهب إلى معالج؟

- طلبتُ منه، لكنه رفض.

صمتَ بابا، وقد ترك المزاح الآن.

- إنك تتحملين الكثير يا كريستين.

- أعرف، لكن مع كامل احترامي فأنا لم آتِ إلى هنا لكي أتلقى محاضرة حول ما اخترت أن أفعله أو ألّا أفعله لشخص يحتاج إلى مساعدة. الآن، هل يمكن أن نعود إلى الموضوع، من فضلك.

- نعم، وأنا أتساءل ماذا كان هذا الموضوع ثانية؟

- بابا، كفّ عن سحب قدمها!

هكذا علا صوت بريندا تحذّره من وراء المكتب.

استدرتُ لأرى شقيقتيّ قد تسلّلتا من دون أن ألاحظ.

- ألا يوجد شيء خاص في هذه الأسرة؟

قالت أدريان، وهي تدخل إلى الغرفة وتجلس معنا على المكتب:

- بالطبع لا!

ثم سرعان ما انضمت إليها بريندا.

مدّ بابا يده ليمسك بيدي وهو يقول:

- كريستين، يا عنزتي الصغيرة. أنت تعرفين أنني، عندما أترك الشركة، والعالم، لا أتوقع منك أن تمسكي بدفة القيادة، قيادة الشركة أقصد، لا قيادة العالم.

نظر إلى عينيّ متفحصاً:

- أنا قلق عليك. لطالما كنت الشخص الذي يفكر، بينما شقيقتاكِ وأنا نفعل، لكن في الأسابيع القليلة الماضية علقتِ بقدر رهيب من الأفعال وقدر محدود من التفكير.

تنهدتُ:

- لقد خرجتَ عن الموضوع. أنا لا أتكلم عني. أنا أعرف أنني لست مضطرة إلى تولي قيادة الشركة.

قالت بريندا، وهي مشغولة بتناول المقرمشات:

- إنها تتكلم عن رجل الانتحار.

قلت بحدة:

- اسمه آدم. قليلٌ من الاحترام.

فقال ثلاثتهم بصوت واحد:

- أووو- وووه!

وسأل بابا:

- هل تبادلتما القبل بعد؟

تجهمتُ:

- لا، لقد ساعدته في استعادة صديقته. وبعد ذلك سأحلّ موضوع وظيفته. أنا أحتاج إلى مساعدة، ماذا تعتقدون يا جماعة؟ هل يمكنكم مساعدتي؟ إنني لا أفهم في الأمور القانونية.

هزوا جميعاً أكتافهم.

قلت، وأنا أنهض:

- أنتم بلا فائدة. أعرف أناساً يذهبون إلى أسرتهم طلباً للنصيحة فيحصلون على مساعدة حقيقية.

قال بابا بلا اهتمام:

- هذا يحدث في إفلام هوليوود. عليكِ أن تتحدثي مع محامٍ عن هذه المشكلة.

- أنتَ محام.

- لا، محامٍ مختلف.

رفعت أدريان أحد حاجبيها له:

- يكون مهتماً؟

ضحك وقال:

- أنا مهتم. لكنك تريدين واحداً ليس مشغولاً

نهض عن مكتبه وحمل ملفاً إلى خزانة ملفاته شديدة النظافة، ثم عاد ممسكاً ببعض الأوراق.

- إذاً، فقد كان فيما يسمى إجازة طارئة. قانون الإجازة الوالديَّة لسنة 1998 والمعدل بقانون الإجازة الوالدية (المعدل) لسنة 2006 يمنح الموظف حقاً للغياب عن العمل لفترة محدودة إذا واجهته أزمة عائلية. ويُطبق، لأسباب أسرية طارئة تستدعي وجود الموظف، بسبب إصابة أو مرض أحد أفراد الأسرة المقربين. والحد الأقصى للإجازة ثلاثة أيام في غضون اثني عشر شهراً، أو خمسة أيام في غضون ستة وثلاثين شهراً، وهي إجازة مستحقة الأجر.

سقط قلبي من ضلوعي. كان آدم قد غاب عن العمل لشهرين حتى الآن. ليس لديه أي سند قانوني يُعتمد عليه لاستعادة وظيفته.

- إذا كان هناك نزاع بين صديقك ورئيسه في العمل حول الإجازة الطارئة، يمكن تقديم شكوى باستخدام استمارة الدعاوى التي أدرجتها في هذا الملف.

وضع ملف الأوراق على المكتب أمامي.

- لا تقولي إنني لم أعطِكِ أيّ شيء. أما فيما يتعلق بوصية جدّه تلك، فلا أستطيع تقديم أية نصيحة قانونية لأنني لم أرها. ضعي يدك على نسخة منها وسأفعل ما بوسعي لمساعدته على العثور على مخرج. إذا كان هذا هو الشيء الصحيح.

قلتُ مرتبكة:

- ماذا تعني بقولك «إذا كان هذا هو الشيء الصحيح»؟ بالطبع هو الشيء الصحيح.

وجَّه بابا كلامه للآخرين:

- إنها بحاجة إلى العثور على معالج.

قالت بريندا:

- تستطيع دائماً أن تتكلم معنا. تذكّري ذلك يا كريستين.

- ليس لأجلي - إنه يتكلم عن معالج لآدم.

قالت أدريان:

- ماذا عن الذهاب إلى معالج وسيم كان عميلاً عندك؟ هذا المدمن على الجنس - ليو ما اسمه.

أجبتها، بينما تتشكل على شفتي ابتسامة لمحاولة أدريان التسرية عني:

- ليو أرنولد، وهو ليس مدمناً على الجنس.

- يا للأسف!

- كان يحاول التوقّف عن التدخين فأعطيته بعض النصائح، هذا هو كل شيء. وكان عميلاً ساعدته في إيجاد وظيفة، لذا فذهابي إلى جلسة معه سيكون أمراً غير احترافي.

قال بابا:

- والمعيشة مع عميل لمدة أسبوع هو الاحتراف؟

- هذا أمر مختلف.

إذا اعترفتُ بأنّ آدم لم يكن عميلاً بالمعنى الفني سأكون قد فتحت علبة أخرى ممتلئة بالدود.

قال بابا:

- لن تتجاوزي الاحترافية إذا أرسلتِ آدم ليرى هذا الرجل.

كررت، محبَطة:

- آدم لن يرى معالجاً.

- لا يريد أن يعالج نفسه فيجعلك تفعلين كلّ شيء نيابة عنه. طيب، سأقول لك شيئاً واحداً، يمكنك أن تعطيه كلّ مساعدة في الدنيا، لكن ما لم يتعلم كيف يعتني بنفسه، سيكون ذلك بلا فائدة.

صمتنا جميعاً. لقد كانت ملاحظة وجيهة من بابا.

قالت أدريان:

- من ناحية أخرى، باري يعتقد أنك تنامين مع ليو، ولذلك هجرته. لقد اتصل بي ليلة أمس ليخبرني بذلك.

استشطتُ غضباً.

استطردت أدريان، وهي ترمق بريندا التي كانت تلحس ملح البطاطس المقرمشة عن أصابعها:

- وقال أيضاً إنك قلت إن بريندا لا تستطيع أن تفقد الوزن مثلما يحدث للنساء بعد الولادة، لأنّ الدهون ليست دهون حمل، وإنما دهون الفجعة الهائلة.

اعترضتُ:

- لم أقل هذا أبداً.

- لا، لكنني لن ألومك إذا قلته.

أضاف بابا، وهو ينظر إلى بريندا:

- ملحوظة جيدة.

رفعت بريندا إصبعها أمامنا نحن الثلاثة، ثم واصلت الأكل.

سألَت أدريان:

- هل اشتريت فستاناً للحفل؟

- أنا مشغولة أكثر بالإبقاء على فتى الحفل على قيد الحياة.

قلتها، وقد شتَّت انتباهي خبر توجّس باري من ليو أرنولد.

ورحت أحاول أن أتبين كيف جاءه هذا الانطباع - الصحيح - أنني كنت أحلم بالرجل. لم يسبق لي قط أن تكلمت معه عن عملائي.

- لا فائدة من بقائه على قيد الحياة وأنت تبدين في حالة مزرية.

قالتها بريندا، فضحك ثلاثتهم.

قال بابا:

- بريندا اشترت حذاء جميلاً، بفتحة تكشف الأصابع ولآلئ صغيرة بديعة.

كان لدى بابا ذلك الشغف بأحذية النساء. كان يحب أن يتسوق من أجلنا عندما كنا في مراهقتنا واعتدنا أنه يفاجئنا بالأحذية في المناسبات الخاصة. وكان ذوقه جيداً أيضاً. بطريقة ما كان رجلاً أنثوياً محصوراً في جسد رجل سوي؛ كان يحب النساء، يحب طريقة تفكيرهن، ويقضي كلّ أيام عمله معهن، وقد قضى حياته كلها في بيت يسكنه عدد أكبر من النساء، بمن في ذلك عماته، لذا فقد كان يكنُّ لهن احتراماً شديداً. كان لديه تقدير لتصرفاتهن وميولهن، لتفاصيلهن الصغيرة، لاحتياجهن للشوكولاتة في ذلك الوقت من الشهر الذي كان يحفظ موعده - وهو شرط ضروري لتربية ثلاث مراهقات بمفرده - وحاول جهده أن يفهم الهرمونات التي لا تني تتذبذب والحاجة إلى مناقشة وتحليل المشاعر والأحداث.

سألته، وقد أدهشني أنهم جميعاً يستعدون:

- ما الذي يجعلكم تظنّون أنكم ذاهبون إلى الحفلة؟

قال بابا:

- لقد دعانا عندما كان هنا، ألا تتذكرين؟ بالتأكيد لا تظنين أننا سنفوّت حدثاً مهماً مثل هذا.

- إنه ليس حدث العام، إنه في الخامسة والثلاثين فحسب.

- لا، لكنها الليلة التي سيعلنون فيها عن توليه قيادة بازل بعد والده، وهذا هو الحدث الجلل، مع اعتبار أن دِك بازل ظلّ على رأس هذه الشركة لأكثر من أربعين عاماً. أبوه تخلى له عنها لكي يديرها وهو في الحادية والعشرين من عمره فقط. تخيلي كل المسؤوليات في هذه السن! هل تعرفين أن بازل تصدِّر منتجاتها إلى أربعين دولة في أنحاء العالم، بإجمالي قدره مئة وعشرة ملايين يورو من التجارة الأيرلندية، وأنّ كل عام يتم تصدير ما قدره مئتين وخمسين مليون يورو من الشوكولاتة المصنَّعة في أيرلندا. الأفضل أن تصدقي أنه حدث جلل. إنهم يستخدمون المكونات المحلية بالكامل، وهو أمرٌ مهم الآن أكثر من أي وقت مضى. أنا متأكد أن رئيس الوزراء سيكون هناك. فهو ودِك بازل صديقان مقربان. فإذا لم يكن في البلدة، فمن المؤكد أن وزير الشؤون الخارجية والتجارة سيكون هناك، وربما وزير الوظائف والأعمال والابتكار.

صفَق بابا كفيه.

- إنها ليلة ستشهد الكثير من الحمقى، وأنا أتطلع إليها.

ابتلعتُ ريقي.

- من أين سمعت كل هذا؟

- من ذي تايمز، صفحة الأعمال.

رفع الجريدة وعرضها عليّ، ثم عاد وألقاها على الطاولة.

- صاحبكِ سوف يتسلم سلالة كاملة.

قلت هامسة، وأنا أشعر بالذعر على آدم بدأ في التضخم داخل معدتي:

- إنه لا يريد ذلك. لهذا أعتني به. إذا اضطر إلى استلام الشركة، سيقتل نفسه. وسيفعل ذلك في تلك الليلة بالذات.

نظروا إليّ جميعاً في صمت.

قال بابا، وهو يمنحني ابتسامة تشجيع:

- طيب إذاً، أمامك ستة أيام لتعملي على ذلك. ابنتي الصغيرة العزيزة، سأعطيك أفضل نصيحة أظنني أعطيتها لك في حياتك القصيرة.

هيأتُ نفسي.

- أقترح عليك أن تعثري على مدمن الجنس ذاك.

تركتُ آدم في مكتب بابا مع الكمبيوتر المحمول الخاص به، مع تعليمات مشددة لبابا ألّا ينطق بأية ملاحظات غير مناسبة، وأخذت نفسي إلى صالة الانتظار الخاصة بليو أرنولد، ذلك العميل الذي كنت قد حلمت به في خيالي في معظم الليالي التي سبقت هجري لباري. لم أرغب ولو للحظة في أن تتحقق تلك الخيالات، فقد كانت هكذا، مجرد خيالات، أشياء تشغل عقلي عندما تبدُ لي الحقيقة مظلمة بدرجة تفوق الاحتمال. كنت متأكدة أنه ليس نوعي المفضل حتى؛ لم يكن هناك انجذاب حقيقي بيننا على الإطلاق، كنت قد اختلقتُ ليو أرنولد مختلفاً تماماً في رأسي، رجلاً يرتب مواعيد لجلسات علاج في آخر الليل، ثم يعجز عن السيطرة على نفسه بعد لحظات، فيقع عليّ وأنا وحيدة في المكتب، بل وأحياناً بينما يكون ثمة عميل آخر بالانتظار في الخارج. وشعرتُ بوجهي يمتقع وأنا أفكر كم كان الأمر برمّته سخيفاً، الآن وأنا أجلس في صالة انتظاره، الآن ونحن في الحياة الحقيقية.

- كريستين!

ظهر ليو فجأة على الباب. كانت سكرتيرته قد أخبرته بالطبع أنني في الانتظار، لكنه، مع ذلك، لم يستطع إخفاء دهشته.

قلت، وصوتي منخفض حتى لا أغضب الآخرين في صالة الانتظار:

- ليو، أنا آسفة أنني لم آخذ موعداً.

قال، وهو يقودني إلى مكتبه:

- لا مشكلة. لدي بضع دقائق بين المواعيد. أنا آسف أنني لن أستطيع أن أطيل عن ذلك، لكنني فهمت أنك قلتِ إنّ الأمر ملحّ.

جلستُ أمام مكتبه، وأنا أحاول ألّا أنظر حولي كثيراً، مع أنني من كثرة ما تخيلت هذا المكتب والأشياء التي قد فعلناها هناك في عقلي كان من الصعب ألّا أرغب في معرفة الحقيقة. ألقيت نظرة على خزانة الملفات وفكرتُ في أصفاد اليدين. وبدأت أشعر بسخونة في وجهي فعرفتُ أنه يتورّد.

قال:

- أعتقد أن الأمر يخصّ زوجك.

وتنحنح ثم أضاف:

- باري.

نظرتُ إليه في اندهاش:

- الحقيقة، لا.

قال مندهشاً:

- هل أنتِ هنا من أجل جلسة؟

- لماذا، ماذا ظننت سبب مجيئي إلى هنا؟

- طيب، فكرت أنّ ذلك قد يكون له علاقة بـ. ممم. المكالمة التي تلقيتُها.

- ممّن؟

- مِن باري. أليس زوجك؟ لقد قال إنه زوجك. أم أنني ارتكبتُ خطأ؟

قلت، وقد أدركت، وصار وجهي الآن يتحوّل إلى اللون القرمزي:

- أوه! هل اتصل بك؟

همست بذلك وأنا خائفة أن أقول الكلمات بصوت عالٍ. كانت الفكرة أكثر مما أحتمل. كيف عثر باري على رقمه؟ فكرت في الكمبيوتر الذي تركته في الشقة. لا بد وأنه وضع يديه على قائمة معارفي. ليست ثمة نهاية لمذلتي.

حان دور ليو ليحمرّ وجهه.

- إممم. نعم، ظننتك عرفت. لم أكن لأفتح الموضوع لو أدركت أنك لا تعرفين.. أنا آسف.

قلت بصوت لا يعلو عن الهمس إلا قليلاً:

- ماذا قال؟

- إنه يعتقد، إممم، أننا، أنا وأنت، إممم... حيب، أظن أنّ الطريقة الأكثر تأدباً في وصف الأمر أنه يظن أن ثمة علاقة بيننا.

قلت لاهثة:

- يا إلهي... ليو... أنا آسفة. لا أعرف كيف...

جاهدتُ لأعثر على الكلمات.

- طيب، هذا تعبير ملطّف لما قاله على أية حال.

قلت بثبات، وقد استعدتُ صوتي، محاولة أن أحافظ على نبرة احترافية:

- أنا آسفة. ليست لدي فكرة كيف أو لماذا توصل إلى هذا الاستنتاج. إنه يمر بنوع من الـ. أقصد، نحن نمر بنوع من الـ.

الكابوس، هكذا أكملت العبارة، بيني وبين نفسي.

تابع ليو، وقد صار وجهه قرمزياً مثل وجهي:

- قال شيئاً عن قلبٍ وجده مرسوماً حول اسمي.

انفتحت عيناي على وسعهما:

- قال ماذا؟ أي كلام هذا - ليست لدي أدنى فكرة. . .

فكرت في المفكرة التي كنت أحتفظ بها إلى جوار الكمبيوتر، تلك التي كنت أشخبط فيها وأنا أعمل، وفكرت أنني كنت كثيراً ما أرسم قلوباً، وأحياناً نجوماً، وأحياناً أشكالاً حلزونية، ثم تذكرت أنني ذات مرة، في لحظة طفولية سخيفة، قد وضعت اسم ليو داخل قلب وفكرت أنه أمر لطيف، وكأنني قد عدتُ تلميذة من جديد، وكأن من حقي اختيار الشخص الذي أحلم به، وكأنه أمر بسيط لا يستدعي أية هموم، أمر ممتع لا خيانة. كنت أشعر أنني واقعة في فخ، واقعة في فخ، وأن اسماً داخل قلب كان يحررني للحظة، والآن ها هو يعود لكي يوقع بي. انكمشت، شعرت ببعض الغثيان، وانتابتني رغبة قوية في الخروج من هذا المكتب.

قال، وقد ازدادت صرامته قليلاً، ولم يعُد وجهه محمراً، واحتدّ غضبه:

- لقد أخبر زوجتي، فعلاً. عرفتُ بالأمر منها. إنها حبلى. في شهرها السادس. أسوأ توقيت يمكن أن تسمع فيه مثل هذه الأشياء.

- قال لمن؟ يا إلهي، آه، يا إلهي. ليو، مرة أخرى، أنا آسفة، أنا.

ظللت أهزّ رأسي، وأنظر حولي، وأتمنى لو تنشقّ الأرض وتبتلعني.

- أتمنى أن تكون قد فهمت أن ذلك ليس صحيحاً. أقصد، يمكنني أن أتصل بها لأشرح لها، إذا كنت تظنّ أن ذلك سوف...

قاطعني بحدّة:

- لا، لا أظن أن ذلك سيفيد.

اومأت برأسي:

- طيب. أنا متفهمة، صدقني. أنا متفهمة تماماً.

نظرت حولي، أردت أن أغادر لكنني كنت مشلولة تماماً.

- لماذا جئتِ لزيارتي، إذا لم يكن من أجل هذا الأمر؟

- آه، لا تشغل بالك.

نهضت، وأنا أخفي وجهي بكفيَّ، كنت أموت من الخزي.

- كريستين، لقد بدا أمراً مهماً. وأنت قلت إنه أمرٌ ملح.

كنت أرغب حقاً في المغادرة. لم أكن أريد سوى الخروج من المكتب، وألّا أرى وجهه ثانية أبداً، أن أعثر على طريقة لمسح هذه الذكرى، كل ما له علاقة بالحوار الذي دار بيننا، لكنني لم أستطع. كنت مدينة لآدم بمساعدته بقدر استطاعتي، وكان ذلك يعني أن أدوس على كرامتي، أن أدوس على كلّ شي، وأن أطلب المساعدة.

بينما كنت أستسلم للأمر، شعرتُ فجأة بالتحرّر.

- المسألة لا تخصّني، في واقع الأمر، أنا هنا بالنيابة عن صديق.

- طبعاً.

قالها، وقد بدا عليه وكأنه لا يصدقني.

- لا، حقاً، المسألة تتعلق بصديق، لكن هذا الصديق يرفض أن يرى معالجاً، ولذلك جئتُ أنا بالنيابة عنه.

- طبعاً.

قالها بنبرة المرة السابقة نفسها، وهو ما أشعرني بإحباط لا يصدق. لو كنت قلت له إن الأمر يتعلق بقرد أليف فالأرجح أنه كان سيرد بالطريقة نفسها.

وهكذا، حكيت له قصتي مع آدم، في الوقت القصير الذي كان متاحاً لنا، وأنا ألخّص محاولة آدم إنهاء حياته، ووعدي له بالمساعدة، ورحلتنا معاً والخطوات التي قد اتخذتها في محاولة لمساعدته على الاستمتاع بالحياة.

اعتدل ليو في جلسته على كرسيه الجلدي الوثير، وقد بدا عليه القلق:

- كريستين. هذا أمر مزعج.

- أعرف، الآن يمكنك أن تفهم لماذا جئت إليك.

- طبعاً موقف صديقك مقلق، لكن الحقيقة أنّ ما تفعلينه معه، من وجهة النظر المتخصّصة، له آثار مدمّرة جداً عليه.

تجمّدت.

- معذرة؟

هزّ رأسه وكأنما ليُصفيها.

- من أين أبدأ؟ أين تعلمتِ هذه «النصائح» المتعلقة بالاستمتاع بالحياة؟

قلت، وقلبي يدق بقوة:

- من كتاب.

ظهرت لمحة غضب في عينيه، ثم قال بصرامة:

- علم النفس الشعبي هذا خطير جداً. كريستين، لقد نزعتِ عنه قوته.

وإذ رأى الارتباك على وجهي، تابع قائلاً:

- أنت لا تعرفين أكثر منه. لا تستطيعين مساعدته بأن تنزعي عنه التزامه. وحين تحاولين «إصلاح» حياته، فأنت تنزعين عنه قدرته، لأن لا شيء سيكون قد تغيَّر من داخله، أنت ببساطة جعلتِه معتمداً عليك. وسعيك وراء طرق الإصلاح السريعة هذه التي قرأتها في كتاب ــــ

قلتُ غاضبة:

- إنني أحاول أن أساعده.

قال بلطف:

- حقيقي. أنا أفهم هذا. وكصديق أفهم ما حاولتِ فعله، لكن كمعالج - ويجب أن أشير هنا إلى أنك لست معالِجة - يجب أن أقول إنك لم تفعلي ذلك بالطريقة الصحيحة.

قلت بغضب، وأنا أنهض واقفة:

- إذاً، كان عليَّ أن أدفعه من فوق الجسر؟

- بالطبع لا ما أقوله هو، يجب أن تمنحيه القوة. يجب أن تسمحي له بأن يمسك حياته هو بين يديه هو.

- لقد حاول التخلّص من حياته هو!

- أنت منزعجة. أنا متفهم أنك كنت تحاولين فعل الشيء الصحيح، وأن هذا وقت ضاغط بالنسبة لك ــــ

- الأمر ليس متعلقاً بي يا ليو. الأمر متعلق بآدم. كل ما أريد معرفته هو كيف أجعله أفضل؟ أخبرني كيف أصلحه فقط!

مرت فترة صمت طويلة وهو ينظر إلي، ثم ابتسم بلطف وقال:

- هل سمعتِ ما قلتِه يا كريستين؟

كنت قد سمعته، وكنت أرتعش.

- لا يمكنكِ إصلاحه. إنه بحاجة إلى مساعدة نفسه. أقترح أن تقصري الأمر على الوجود من أجله، على الإنصات له، على دعمه. لكن أياً كان ما ستفعلينه، توقفي عن إصلاحه قبل أن تمضي بعيداً في هذا الدرب.

نظرتُ إليه بحزن.

- أتمنى أن يكون ذلك مفيداً لكِ. أنا آسف أننا لا نمتلك المزيد من الوقت اليوم، لكن إذا أراد صديقك أن يحدِّد موعداً معي فعلى الرحب والسعة. وإذا شعرتِ أن الحديث مع شخص ما يمكن أن يفيدك، فسوف يسعدني أر أحيلك إلى معالج آخر هنا أقدِّره كثيراً.

ولما أحسّ بارتباكي أضاف:

- زوجتي ستجد معالجتي لك أمراً... غير مناسب.

همستُ، وأنا أنكمش أكثر وأكثر:

- طبعاً. شكراً لك على وقتك. وآسفة مرة ثانية.

- عندي ملاحظة شخصية، إذا سمحتِ...

هكذا أضاف وهو ينظر إليّ منتظراً الإذن بأن يتكلّم بصراحة.

أومأت له برأسي.

- أنت رائعة فيما تفعلينه. وقد أوصيتُ الكثير من العملاء في الجوار ممّن يمرون بأوقات صعبة بزيارة وكالة التوظيف الخاصة بك؛ وأعتقد أن طريقتك في إدارة الأشياء منيرة للذهن، ورافعة للمعنويات. أنتِ تهتمين بالمكان الذي تضعين الناس فيه. وقد

تجاوزتِ نداء الواجب حين قدمتِ لي المساعدة في مشكلة التدخين. عندي كومة من الكتب التي لا يزال عليّ أن أقرأها.

قالها، مبتسماً. وكنت أشم الدخان من سترته، لكنني شعرت، على أية حال، بالتقدير لما أبداه من امتنان.

- أنت مُصلحة يا كريستين، لكن إذا أردتِ مساعدة شخصٍ حقاً، أن تكوني صديقة له، فعليك أحياناً أن تنصتي وأن تتركيه يقوم بالعمل بنفسه. احرصي على الوجود من أجله. هذا هو كل شيء.

18

كيف تجعل كل شيء على ما يرام مرة ثانية

كان عليّ أن أتعلم من جلستي مع ليو أن أكفّ عن التدخل. الحقيقة أنّ الرسالة وصلتني واضحة وصريحة، لكنني كنت قد رتبت لقاءً لحلّ ورطة أميليا قبل المقابلة مع ليو. تقدم الطريق صعوداً على دَرَج يعلو محلّ بقالة «أفرو - كاريبي» في شارع «كامدن» باتجاه مكتب ابن عمي المحقّق الخاص، بوبي أوبرين. كان في الثانية والثلاثين وجاء من مقاطعة دونيغال؛ بعدما التحق بالشرطة، وأُرسل إلى ضاحية راقية من ضواحي دبلن لا تشهد الكثير من الأحداث، قرَّر أن يترك عمله. ثم، بناء على نصيحتي - بعد أن ظلّ يزورني في «روز للتوظيف» بعد أن طُرد أو استقال من وظائف كنت قد سكَّنتُه فيها - آثر أن يهيئ نفسه كـ«حارس وحيد»[1]، وأن يحقق في الحوادث المثيرة بنفسه.

ولمّا كنت عاجزة عن مشاركة أميليا في مطاردة عقيمة من أجل

(1) حارس وحيد: الإشارة إلى «الحارس الوحيد» The Lone Ranger وهو شخصية أيقونية ظهرت في عدد من الأعمال الفنية في الولايات المتحدة، ويمثل رجل قانون يهجر وظيفته لكنه يستمر في محاربة الفساد بطريقته (المترجم).

العثور على والديها، راودني أمل أن يوجّهها بوبي إلى الوجهة الصحيحة. كانت الخطّة أن أعرّفهما ببعضهما ثم أغادر؛ سأضع القوة بين يدي أميليا، لن آخذها منها. اجعلي الآخرين يتحكّمون في حياتهم بأنفسهم، اجعلي الآخرين يتحكمون في حياتهم بأنفسهم. هذه هي كلمة الـ«مانترا» الجديدة التي أردّدها بيني وبين نفسي.

عندما وقفتُ أمام مكتب بوبي، تجمّدت أميليا عند أعلى السلم.

- لا أستطيع أن أفعل ذلك.

قلت، وأنا أستدير وأشرع في نزول السلم ثانية:

- لا مشكلة على الإطلاق. لن يلومك أحد.

قالت أميليا وهي تستوقفني:

- هاي. ألن تحاولي تغيير رأيي؟

- لا، لا أريد إجبارك على أي شيء لا تريدينه.

أعلنتُ ذلك، وأنا آمل أن يفهم آدم الرسالة أيضاً.

- إنه وقت عصيب بالنسبة لكِ، وأنا أقدّر هذا. إنها حياتك ولك كامل الحرية فيها. عليك اتخاذ قراراتك بنفسك. لا أريد أن أؤثر عليك بأيّ شكل من الأشكال ولا أن أُسقِط عليك مشكلاتي، لأنّ اعتقادي بأنني أستطيع إصلاحك لن يصلحني.

ضيّق كل من آدم وأميليا أعينهما تجاهي متشكّكين.

سألَت أميليا آدم:

- ماذا حدث لها؟

أجاب، بوجه جامد:

- أظنّ أن رأسها ارتطم بشيء ما. هيا. نحن هنا، فهيا نفعلها.

قالها، مشجّعاً أميليا على التقدّم إلى باب المكتب.

الححثُ:

- لكن فقط إن هي أرادت ذلك.

قلَب آدم عينيه، وحدقت أميليا فيَّ بعينين مفتوحتين على وسعهما.

سأل آدم:

- تريدين العثور على والديك الحقيقيين، أليس كذلك؟

أومأت برأسها.

- إذاً، حاولي مع هذا الحلّ.

قالها، وهو يأخذ بزمام الموقف بما أنني أخرجت نفسي من الموضوع.

- وإذا لم يفلح ذلك، جربي طريقاً آخر. دعي كلّ خياراتك مفتوحة. كوني مستعدة لـ. . . تعرفين.

جال ببصره في الردهة القذرة، ذات الغرافيتي المرسوم على الحوائط، وحاول أن يتنفس وسط نتانة السمك، والرطوبة، ومياه الصرف التي كانت تنتشر في البناية القديمة.

- أي شيء.

ثم طرق باب بوبي.

أجاب بوبي، بصوت بدا فيه القلق:

- مَن بالباب؟

ناديته:

- أنا كريستين.

بدَت الدهشة واضحة جلية في صوته:

- كريستين؟ هل لديك موعد؟

- لا كنت أريد مساعدة منك. معي أصدقاء.

بالرغم من التقدّم الذي حققه آدم، فإن تقلب عقله وهشاشة حالته لا يزالان يجعلانني أخاف أن أتركه بمفرده. في ذلك الصباح بالذات عبرَت سيارة من أمامي، في الحارة الخاطئة لكي تستدير في أحد المنعطفات، وفور أن توقفنا إلى جوارها في الإشارة، قفز آدم من السيّارة وصرخ في المرأة المرتعبة خلف عجلة القيادة، والتي كان معها ثلاثة أطفال في المقعد الخلفي. كان قد تجاهل توسلاتي أن يعود إلى السيارة، وهكذا كان عليّ الانتظار حتى تحوّلت الإشارة إلى الأخضر وفرّت المرأة مسرعة لتنجو بنفسها، والدموع تكاد تسيل من عينيها، لكي يعود إلى السيارة، حيث جلس صامتاً، وهو يطرقع أصابعه مرة بعد مرة. ثم مرت ساعة قبل أن يتحدّث إلي. كان قد تصرّف وكأن الخروج معي في رحلة نوع من العقاب، لكنه لم يكن كذلك، كنت ببساطة خائفة، دائماً خائفة من أن أتركه وحده تحسّباً لأن يثيره أي شيء ويدفعه من فوق الحافة.

سألني بوبي:

- أيّ أصدقاء؟

ها هي تلك الأحاسيس تظهر مجدداً، الخوف الطفيف، الشك، وكأنه كان على وشك ارتكاب شقاوة، أو كان قد ارتكب شقاوة بالفعل ولا يريد أن ينكشف أمره.

- اسمعي، إذا كان الأمر يتعلق بزوجك، فأنا آسف أنني تكلمت معه بهذه الطريقة، طيب؟ لم نكن متفقين أبداً - فالأمر ليس مفاجأة - لكنه تجاوز الحدود كثيراً حين دعاني كذلك.

أغمضت عيني وعددت إلى ثلاثة لدى سماعي ذلك.

سألتُ بصبر نافد:

- هل يمكن أن تفتح الباب من فضلك؟

علا صوت أقفال ومزاليج تُفتح، ثم انفرج الباب في فتحة ضئيلة، بوصتان فحسب، ورأيت السلسلة، وعيناً زرقاء واحدة تحدق فينا. نظرَت العين يساراً ويميناً، تفحصَت آدم وأميليا، ثم الممرّ من خلفنا. ثم بان عليه الرضا، فجذب الباب لكي يحرّر السلسلة ثم فتح الباب ليقودنا إلى الداخل.

قال:

- آسف على ذلك. إنه جزء من وظيفتي، تعرفين. يجب أن أكون حريصاً.

أغلق الباب خلفنا، وأقفل المزاليج وأدار المفتاح في القفل.

- بوبي اوبرين.

ابتسم ابتسامة ساحرة ومدّ يده أولاً إلى آدم، ثم إلى أميليا.

قلت:

- لقد التقيتَ بأميليا من قبل. نحن صديقتان من أيام المدرسة. وهي تحضر كل حفلات العائلة.

تفحصها قائلاً:

- فعلاً؟ أنا متأكد أنني كنت سأتذكر امرأة جميلة مثلك.

تورّد خدا أميليا.

قلبت عينيّ وأنا أرى كيف يحاول أن يسحرها.

- لقد سرقتَ الآيس كريم خاصتها في عيد ميلادي الثامن وألقيتَ به على حائط الجيران.

فكّر في الأمر.

- هذه أنت؟

ضحكت أميليا.

- أنا أبدو مختلفة وأنا لا أولول قائلة إنني أكره الصبيان.

- لم تتغيري لهذه الدرجة.

هكذا غمغم آدم حتى لا يسمعه غيري، فرميته بنظرة.

عانقني بوبي عناقاً دافئاً وهو يقول:

- كيف حالك يا كريستين؟

بعد أن أطلقني من حضنه مضى في طريقه إلى النافذة خلف مكتبه. كانت الستائر الأفقية مغلقة. أزاح إحدى شرائحها بخفّة واختلس نظرة إلى الطريق بالأسفل، ثم عاد إلينا.

- كيف أساعدكم؟

كان يرتدي «تي شيرت» أخضر مكتوب عليها «جنة البيرة»، وبنطلون جينز أزرق ممزقاً. كان شعره أسود ومتجعداً، ينساب على عينيه، وبشرته شاحبة ولحيته خفيفة. كان دائماً يبدو وكأنه على وشك ارتكاب شقاوة، ربما لأنه كان هكذا دائماً، والآن بالخصوص. لاحظت أن أميليا راحت تتفحّصه. وأعجبني ذلك، وكبحت نفسي كي لا أتوسّط بينهما، قائلة لنفسي: دعيهما يتحكمان في الأمر بنفسيهما.

- بوبي، أميليا هي السبب في مجيئنا. لقد اكتشفَت مؤخراً أنّ والديها ليسا والديها الحقيقيين. أميليا، هلّا أكملتِ له؟ وضحي له ماذا اكتشفتِ.

راحت أميليا تتكلم عن محتويات علب الأحذية، بينما نظرتُ أنا من النافذة لأرى ما الذي جعل بوبي مهموماً لهذا الحد. لم يكن هناك أحد. أغلقت الستائر بسرعة وتراجعت. رآني بوبي فرمقني بنظرة واهنة، متوترة. لم أرغب في معرفة ماذا فعل.

لخص بوبي الموضوع قائلاً:

- إذاً باختصار أنت تقولين إنّ كل شيء في هذه العلبة، هذه

المجموعة من الأشياء التي تُركت لك عندما انتقلتِ إلى الأم المتبنية، تقود إلى كينمير؟

قاطعه آدم:

- أنا لا أعتقد ذلك. المرأة التي خرجت بهذا الاستنتاج غير متوازنة بتاتاً.

احتدّت أميليا على آدم كي تُلزمه مكانه:

- تكلّم عن نفسك.

قال بوبي بسرعة، وهو يصفُق يديه:

- إذاً، لنذهب إلى كينمير.

ضيقت عينيَّ وأنا أنظر إليه بتشكك.

سألت أميليا، وقد تفاجأت:

- هل تظنها فكرة جيدة؟ هل تظن أن صديقتي محقة؟

قال بوبي:

- أظن أن صديقتك عبقرية. أقصد، كنت سأعرف بأمر الدانتيللا في لحظة ما، لكنها رأت المسألة فوراً. سأحبّ أن أذهب إلى كيلارني—

قاطعتُه:

- كينمير.

قال وهو يمنح أميليا ابتسامة ساحرة:

- كينمير، عفواً. سأحب أن أذهب إلى كينمير، وأطرح بعض الأسئلة. سوف نعثر على والديك على الفور.

رفعتُ حاجبيَّ.

قال، وقد استشعر مشاعرنا السلبية أنا وآدم فحاول أن يروِّج لنفسه بصورة أفضل:

- سبق وجاءتني الكثير من قضايا التبني. عادة كنا نذهب إلى هيئة التبني وأساعد الناس على اجتياز هذا الإجراء.

ثم أضاف، وقد بدا عليه الصدق الآن:

- أحياناً تكون تلك عملية مرهقة؛ فليس من السهل التفكير في كلّ شيء، وإدارة كل شيء. يمكننا الوصول إلى نتائج بسلوك هذا الطريق أيضاً، لكن أمراً جيداً دائماً أن يتبع المرء أية خيوط يستطيع أن يكتشفها بنفسه.

قالت أميليا:

- لقد تواصلت مع هيئة التبني بالفعل. وأنزلتُ أوراقاً من موقعهم على الإنترنت، لكن...

خفضَت صوتها بالرغم من عدم وجود أي شخص يمكن أن يسمعنا:

- لست واثقة تماماً من أنّ التبني جرى بشكل رسمي. لم أعثر على أية أوراق.

دوَّن بوبي الملاحظة وبدا عليه تفكير عميق:

- نعم... أتفق معك. إذاً، ماذا تقولين؟

مدّ يده إلى أميليا، وهو متحمس لعقد الاتفاق، حتى يستطيع الهروب من غُشّه.

قاطع آدم الساحر كلامهما:

- كم ستتقاضى؟

- مئة وخمسون يورو إذا وجدتهما، إضافة إلى مصروفات السكن. أما المصروفات الأخرى فسأغطيها بنفسي. اتفقنا؟

قالها وهو ينظر إلى يده، التي كانت لا تزال ممدودة.

بدا التردد على وجه أميليا، فأنزل يده وقال بلطف:

- لا أستطيع أن أعد بتحقيق معجزات، لكنني سبق وعثرت على آباء، وجمعتُ شمل عائلات من قبل. قد يكون المكتب غير مجهّز بشكل جيد، لكنني ماهر. وأنا لا أحصل على نقود حتى أحلّ اللغز، ثم أنني أدفع إيجاراً كلّ شهر، تقريباً.

قالها بابتسامة لعوب.

قالت أميليا:

- الأمر لا يتعلق بك يا بوبي. إنه... الموقف. إذا قررت أن أمضي في هذا الطريق، تفهم؟ سيصبح الأمر حقيقياً.

نظرَت إليَّ بحثاً عن مساعدة.

ما الذي يُعتبر تدخلاً؟ في النهاية قلت:

- عليك أن تفعلي ما ترينه صواباً.

ثم أضفت:

- ماذا ستخسرين؟ أنت لم تسافري في عطلة منذ وقت طويل. على الأقل، سوف ترين جزءاً آخر من البلاد.

ابتسمت أميليا في خجل، ثم هزت رأسها وقالت:

- طيب.

وهزّ آدم رأسه يميناً ويساراً.

قالت أميليا، بصوت خفيض ونحن في طريقنا عائدين إلى السيارة:

- أعرف أن هذا جنون. لكنني يجب أن أخرج من دبلن، يجب أن أبتعد عن المكتبة. أحتاج إلى الابتعاد. أحتاج إلى تجميع أفكاري. كلّ شيء انقلب رأساً على عقب، ولم أعد قادرة على التفكير بشكلٍ صحيح.

- وتعتقدين أن الرحلة ستساعدك في ذلك؟

ضحكَت قائلة:

- لا لكنني على الأقل سأستمتع بارتباكي الشديد تجاه المسألة بأكملها. فبوبي شخص مشوّق.

كنت أستمع بنصف وعي، وأحاول في الوقت نفسه أن أسترق السمع إلى الرجلين من خلفنا.

سأل بوبي:

- إذاً، كيف التقيتَ بكريستين؟

- على جسر.

- أي جسر؟

- جسر هابيني.

- هذا رومانسي.

قالها بوبي، وهو يضرب آدم على ظهره وكأنهما صديقان. دسّ آدم يديه أكثر في جيبيه وانتظرني لكي أتوقف عن الكلام حتى نستطيع الرحيل أخيراً.

عدت بانتباهي إلى أميليا.

قالت:

- شكراً على التخفيف عني.

- لهذا خُلق الأصدقاء. لكن هل لي أن أسأل سؤالاً؟ عندما كنا في المخزن، رأيتك تذهبين مباشرة إلى العلبة المكتوب عليها سنة ميلادك. كنت تشكين في الأمر، أليس كذلك؟

- لطالما تساءلت. أحياناً كنت أسأل ماما وبابا أسئلة عن الحمل، عن محل ميلادي، وكانت الإجابات التي يقدّمانها دائماً

غامضة جداً. كما لم يبدُ عليهما أبدا الرغبة في الكلام في الموضوع. لم أرغب في إزعاجهما أو إيلامهما، لذا توقفت في النهاية عن طرح الأسئلة. وتوقفت عن محاولة الحصول على إجابات. لم يكن لدي فكرة عمّا كانا يخبئان. لكنني أعرف أن ماما سبق وحملت أربع مرات قبلي وفقدت كل هؤلاء الأطفال. كانت تقول إنني جئت لها نعمة من الله. لذا فكرتُ أنها كانت تخاف أن تفقدني كما فقدَتهم، لهذا كنت غالية جداً عليها.

- والداك كانا يحبانك كثيراً جداً.

ابتسمَت.

- كنت أشعر بأنني محبوبة. لذلك، فلا بأس. أنا لا أرغب في مقابلة والديَّ الحقيقيين لهذه الدرجة، الأمر فقط... أنني أريد أن أعرف. ساعتها، أظنني سأستطيع أن أمضي بعيداً. لن يزعجني إن كان أمري لا يهمهما. ولست متأكدة الآن ما إن كنت أرغب في أي علاقة معهما. كل ما أريده هو أن أعرف القصة. أشعر أنني أستحق هذه المعرفة.

فكرتُ في الأمر:

- نعم تستحقين. أنت محقة. تعرفين، لو كنت مكانك ولو عرفت أن ماما في مكان ما وجاءتني فرصة العثور عليها، لفعلتُ كلّ ما يلزم. لفعلتُ كل شيء لاستعادتها.

- أعرف أنك كنت لتفعلي ذلك.

قالتها أميليا، وهي تلقي نظرة قلقة على آدم قبل أن تخفي قلقها بابتسامة كانت مشرقة للغاية وسريعة للغاية.

وابتلعتُ ريقي بقوة.

قال آدم وهو على الباب، وهو يراقبني أوضّب حقيبتي:
- هذا سخف.
كل شيء طوال اليوم بدا له سخيفاً. خالٍ من المعنى، مضيعة للوقت، سخف.
سألته، وأنا أحاول ألّا أظهر استنزافي:
- ما هو السخف؟
- الذهاب إلى تيبيراري.
- كيف ستمتنع عن تولي قيادة الشركة إذا لم نذهب إلى الشركة لترتيب الأمور؟
قال بصوت خشن:
- لا يمكننا ترتيب الأمور، إنها وصية جدي. ليست هناك وسيلة لتغييرها. هذه الرحلة ستكون مضيعة للوقت ليس إلا
لم أعرف بالضبط كيف يمكننا ترتيب الأمور، لكن طالما كانت هناك وصية، فهناك طريقة يجب أن يواجه بها آدم مسؤولياته إن عاجلاً أم آجلاً. كانت الفكرة تجعله مستثاراً، متململاً. عاوده المزاج المعتلّ ثانية.
غادر الغرفة، وقال من صالة الجلوس:
- إذاً، فهذه آخر مرة لي هنا.
عندها، فهمتُ الأمر. كانت لديه مشكلة مع الناس الذين يتركونه، وفي أن يترك الناس أيضاً. فسارعتُ بالرد عليه:
- أنت ستمضي في طريقك يا آدم. وهذا أمر طيب.
أومأ برأسه، وهو لا يصدق كلمة ممّا قلت.
شجّعته قائلة:
- الآن، أنا أشعر...

تنهّد وقال:
- الآن أنا أشعر. بأنني عاطفي.
كنت أشعر بذلك أنا أيضاً. ثم رنّ جرس هاتفه.
ناولني الهاتف:
- إنها ماريا.
حدقت في الهاتف، وأنا أريد أن أغلق الخط على الفور، لكنني فكرت في نصيحة ليو، فقلت وأنا أبتلع ريقي:
- ردّ أنت. ادعها إلى حفلتك. إذا أردت.
نظر لي متشككاً.
- هل أنتِ متأكدة؟
أربكتني ردة فعله.
- طبعاً. ألا تريدها أن تكون هناك؟
واصل الهاتف رنينه.
- نعم، ولكن، تعرفين.
تبادلنا نظرة طويلة.
لم أكن متأكدة فيمَ كان يفكر، لكنني كنت أعرف فيمَ كنت أفكر. لا ترد، لا تقع في حبها، اخرج من حبها. أحبني أنا.
كفّ الهاتف عن الرنين، مخلّفاً صمتاً في الغرفة. لم ينظر حتى إلى الهاتف في يده. ابتلع ريقه. وتقدّم خطوة باتجاهي.
رنّ الهاتف ثانية، فتجمّد مكانه.
ثم رد على المكالمة وهو يغادر الغرفة.

عندما كان آدم خارج السيارة مع بات، مضيتُ مترددة إلى مصحة سايمون كونواي. كنت أتحسب لرؤية زوجته، أو طفلتيه، أو

أيّ من أقاربه ممّن يشعرون بأن الهجوم عليّ سيخفف من ألمهم أو يعيد إليهم سايمون، لكن الوجه الوحيد المألوف الذي رأيته - وتراجعتُ خائفة منها فور أن رأيتها - كان وجه أنجيلا، الممرضة التي أدخلتني غرفة سايمون الأسبوع الماضي، ليلة التقيت بآدم. تجمدتُ عندما رأيتها، لكن أنجيلا ابتسمت لي ابتسامة دافئة.

- لن أعضك. الزيارة مسموحة للأسرة فقط، لكن تعالي.

قادتني إلى الغرفة.

- سمعتُ عمّا حدث عندما كنتِ هنا آخر مرة. آسفة لأنني لم أكن في هذه الوردية. أريدك ألّا تقلقي إطلاقاً. لقد كانت غاضبة وبحاجة إلى إلقاء اللوم على أي شخص. أنتِ لست مسؤولة.

- لقد كنتُ هناك، وكنتُ أنا مَن ــــ

قالت بصرامة:

- أنت لست مسؤولة. والبنات قلن لي إنها شعرت بأسف بالغ بعدما غادرتِ. لقد استبدّت بها المشاعر حتى أنهن اضطررن إلى اصطحاب الطفلتين إلى الخارج وتهدئتها.

لم تكن الصورة التي رسمَتها جميلة، لكنها خففت بالفعل من الضغط الذي أشعر به.

- هل تحدثتِ إلى أي شخص بعد؟

سألَت أنجيلا، وفهمتُ أنها تقصد شخصاً محترفاً.

لم أكن قد نسيت النصيحة التي أعطاني ليو إياها بشأن آدم، لكن تلك كانت مشكلة مختلفة تماماً. مع ذلك، فقد ظللتُ أفكر في الأمر وعرفت في النهاية مَن الذي يجب أن أتكلم معه تحديداً.

تركتني وحدي مع سايمون. وكان الصفير والوشيش هي الأصوات الوحيدة في الصمت. جلست إلى جواره.

همست:

- أهلاً هذه أنا. كريستين. كريستين روز، المرأة التي فشلت في إنقاذك من نفسك. أتساءل إن كان يجب على شخص ما أن ينقذك مني.

قلتها، وعيناي تدمعان بينما كانت المشاعر التي أبذل جهدي لكبحها تعود لتفيض بداخلي رغم ذلك.

- لقد ظللتُ أفكر وأعيد التفكير في تلك الليلة، أحاول أن أعرف ما الذي حدث. لا بد وأنني قلت شيئاً خطأً. لا أتذكر. لقد شعرت براحة كبيرة عندما وضعتَ المسدس. أنا آسفة إذا كان أيّ ما قلته جعلك تشعر أنك لست مهماً بما فيه الكفاية، أن حياتك لا تستحق أن تعيشها. لأنها تستحق، وأنت تستحق. فإن كنت تسمعني يا سايمون، فكافح، كافح من أجل حياتك - لو لم يكن من أجلك فمن أجل طفلتيك، فهما بحاجة إليك. سوف تحتاجان إليك في الكثير من الأشياء في حياتهما. لقد نشأتُ أنا من دون أم، لذا فأنا أعرف كيف يكون الأمر حين يكون لديك شبح شخص ما يظلّ معك في كل لحظة من حياتك، تتساءل دائماً كيف كان ليفكر، كيف كان ليتصرّف لو كان موجوداً، وهل كنت ستشعر بالفخر.

صمتُّ، وتركتُ دموعي تنساب، ثم استجمعتُ نفسي.

- على أية حال، بسبب هذا الذنب الذي أشعر به تجاه ما فعلته معك، أوقعت نفسي في ورطة كبيرة. لقد قابلت رجلاً على جسر وعليّ أن أساعده على رؤية جمال الحياة، وأن أقنعه أن الحياة تستحق أن نعيشها، وإلا سأفقده.

مسحت عينيّ الجيّاشتين.

- أحد الأشياء التي عليّ أن أفعلها مساعدته على

فتاته. وإذا لم أعده إلى فتاته سوف يقتل نفسه. هذه هي القواعد. لم يمضِ سوى أسبوع لكن أحياناً، تعرف، تعرف؟ وفي هذا الأسبوع تعلمت بعض الأشياء.

طأطأت رأسي ناظرة إلى أصابعي، وقد تبيَّنت لي الحقيقة واضحة جلية، بنسبة مئة بالمئة.

كنت قد تمنيت أن أشعر بالراحة. وبدلاً من ذلك لم أنل رداً سوى صداعٍ هائل في الرأس، وثقل في القلب، ووشيش جهاز التنفس الصناعي وصفير شاشة القلب. لقد أردت إيماءة تشجيع، أردتُ أن أسمع مَن يقول إنه يفهمني، من يقول لي لا بأس، إن الخطأ ليس خطأي، إنني أستطيع تدبر الأمور. أردت أن أُمنح عُدَّة، أين عدتي؟ كنت بحاجة إلى كتاب جيد يصلح كلّ شيء: «كيف تجعل كل شيء على أفضل وجه ثانية»، دليل إرشادي بسيط، خطوة بخطوة، لجبر القلوب، وإراحة الضمائر، وجعل كلّ الناس ينسون.

ربما لم يكن إدراكي كافياً، لم يكن الاعتراف الصامت كافياً؛ كنت بحاجة إلى أن أقولها بصوت عالٍ. رفعت رأسي، وثبتُّ عينيَّ على سايمون وكأنّ الكلمات التي تخرج من قلبي وتقطر صدقاً ستكون من القوة بما يجعله يفتح عينيه.

- لقد وقعتُ في حب آدم.

19

كيف تنهض من عثرتك وتنفض الغبار عن ملابسك

- هل كل شيء على ما يرام؟

هكذا سألني أجمل رجل في العالم فور دخولي إلى سيارة دِك بازل المصحوبة بسائق خاص.

أومأتُ برأسي.

عبس وجهه وراح يتفحص عيني الدامعتين. وكان عليّ أن أشيح بوجهي.

- كنتِ تبكين.

تنشقتُ ورحت أنظر من النافذة.

سألني بلطف:

- كيف حاله؟

لم يسعني إلّا أن أهز رأسي، وقد فقدتُ الثقة في صوتي.

- هل قالت زوجته لك شيئاً آخر؟ كريستين، أنت تعرفين أنك لا تستحقين ذلك. لم يكن هذا عدلاً

- ماريا قد تعاملني المعاملة نفسها الأسبوع القادم.

قلتها فجأة، وأنا لا أعرف أن الكلمات ستخرج من فمي، بل ولم أدرك حقاً أنها كانت في عقلي.

شغَّل آدم الراديو.

- معذرة؟

- لقد سمعتَني. ماريا، وأسرتك بأكملها، سوف يلومونني. سوف يقولون إنني قضيتُ أسبوعين أتسكع معك بدلاً من أن أجعلك تحصل على المساعدة اللازمة. هل تفكر أبداً فيمَ سيحدث لي إذا مضيتَ في هذا الأمر؟

قال، وقد أزعجته درجة تأثري بذلك:

- لن يلومكِ أحد. لن أجعل أحداً يلومك.

- لن تكون هنا لحمايتي يا آدم، لن تستطيع الدفاع عني. ستكون كلمتي في مقابل كلمتهم. أنت لا تعرف الفوضى التي سوف تخلفها وراءك.

قلتها بغضب، وأنا أخرج الكلمات من فمي بالكاد. والفوضى التي كنتُ أعنيها لا تخص الموقف فحسب، بل الفوضى في نفسي أيضاً.

رن هاتف آدم، وفور أن رأيت النظرة على وجهه عندما أجاب، عرفتُ على الفور. لقد مات والده.

لم يرغب آدم في رؤية جثمان والده في المستشفى، لم يرغب في الانحراف عن خطة الذهاب إلى تيبيراري، وهو المكان الذي كان يلزمه الذهاب إليه الآن بالطبع على أية حالٍ لوضع ترتيبات الجنازة. وهكذا ظللنا في السيارة وكأن شيئاً لم يحدث، رغم أنّ كل

شيء قد حدث بالطبع : لقد فقد والده وأصبح رسمياً على رأس شركة بازل.

سألته :

- هل سمعت أخباراً عن أختك؟

كان هاتفه قد ظلّ في جيبه حيث وضعه بعدما تلقى المكالمة. ولم يكن قد تواصل مع أيّ شخص. وتساءلت ما إذا كان مصدوماً.

- لا

- أنت لم تراجع هاتفك. أليس عليك الاتصال بها؟

- أنا متأكد أن الخبر قد وصلها.

- هل ستحضر الجنازة؟

- أتمنى ذلك.

أراحني ردّه الإيجابي.

- وأتمنى أن تكون الشرطة في انتظارها على مهبط الطائرات، بل إنني ربما أتصل بهم وأنبّههم بنفسي.

لم أكن سعيدة لذلك.

- ربما يعني هذا أن الحفلة لن تقام.

قلتها بخفوت، وأنا أشعر بالسوء لدى محاولتي العثور على الجانب الإيجابي الخفي في موت أحد الأقارب، لكن آدم كان بحاجة إلى هذا الجانب الإيجابي بكل تأكيد.

- هل تمزحين؟ لن يلغوا الحفلة الآن بأي حال من الأحوال - إنها فرصتهم الكبرى لإثبات أننا أقوياء ومستعدون كما نحن دائماً.

- آه. هل هناك شيء تريدني أن أفعله؟

- لا، شكراً.

كان صامتاً وهو يحدق من النافذة، يلتقط كل منظر نمرُّ به،

يحاول التمسك بكونه بعيداً عن المكان المرعب الذي نتّجه إليه، يحاول إبطاء السيارة في طريقها. ورحت أتساءل إن كان يريدني معه أصلاً. لا أقول إنّ ذلك سيؤثر في وجودي هناك؛ إذ كنت سأظلّ معه بغض النظر، والآن خصوصاً، لكن سيكون أسهل إذا عرفت أنه يريدني هناك. وافترضتُ أنه لا يريدني. الأرجح أنه سيفضل البقاء وحيداً مع أفكاره، وأفكاره هي التي كانت تخيفني.

فجأة قال:

- الحقيقة، هل يمكنك قراءة ما سبق وقرأتِه في جنازة والدة أميليا؟

اندهشت. لم يكن قد علَّق على الأمر كثيراً في الجنازة، أكثر من سؤاله إن كنت أنا مَن كتب ذلك. وتأثرتُ بعمق. فقد كان ما قرأته يعني لي العالم بأكمله. نظرت من النافذة، وطرفتُ لأسقط الدموع.

كنا نقود في طريق ريفي، وكان المنظر ثرياً وأخضر، حيوياً، حتى في الصباح الثلجي. كانت أرض جياد، الكثير من المدربين والإسطبلات مع بعض من أفضل الأراضي التي تُرعى فيها السلالات، سواء من جياد السبق أو من جياد الاستعراض، فقد كان قطاعاً مربحاً في تلك المناطق - أقصد بعد صناعة الشوكولاتة. لم يكن بات يهتم بالطريق كثيراً، لم يكن يخفف السرعة قبل الاستدارة في المنعطفات الحادة، وكان ينعطف يساراً ويميناً في طرق تبدو شبيهة للغاية بآخر منعطف دخلناه. شعرتُ بأظافري تنغرس في المقعد الجلدي.

نظرت إلى آدم لأرى إن كان متوتراً مثلي. كان ينظر إليّ. والتقت نظراتنا.

تنحنح، وأشاح بوجهه.

- كنتُ. . . تعرفين أنك بفردة حَلَق واحدة؟

- ماذا؟

تحسستُ شحمة أذني وقلت:

- اللعنة!

بدأتُ أفتش في جسدي بحثاً عن الفردة الضائعة، وأنفض ملابسي بقوة، على أمل أن تسقط. كان يجب أن أعثر عليها. ولمّا لم أعثر عليها نزلت على يدي وركبتي في السيارة.

- انتبهي يا كريستين.

حذّرني آدم، وشعرتُ بيده فوق رأسي وأنا أرتطم بالباب فيما كان بات ينعطف بحدّة عند منعطف آخر.

قلت، وأنا أميل عليه وأدفع قدميه لأفحص الأرض من حوله:

- إنه حَلَق أمي.

أجفل آدم، وكأنه شعر بألمي لفقدانه.

بعدما لم أعثر على شيء. جلست، وقد سخن وجهي واحمرَّ. ولم أرغب في الكلام مع أي شخص لبرهة.

- هل تتذكرينها؟

نادراً ما تكلّمت مع أمي؛ ليس قراراً متعمّداً، لكن لأن أمي لم تكن في حياتي إلّا لوقت قصير ما جعلني لا أعرف عنها الكثير. كنت أحاول استدعاءها من حين إلى آخر لكن لم يكن ثمة الكثير لأتذكره، ومن ثم لم يكن ثمة الكثير لأقوله.

- هذا الحَلَق أحد ذكرياتي القليلة للغاية عنها. كنت جالسة على حافة المغطس. أراقبها وهي ترتدي ملابسها للخروج. كنت أحبّ مشاهدتها وهي تضع زينتها.

أغمضت عينيّ.

- أستطيع أن أراها الآن، تواجه المرآة، وشعرها مشبوك بمشبك وراء عنقها. وكانت تضع هذا الحَلَق - لم تكن تضعه إلّا في الخروجات الخاصة.

تحسَّستُ شحمة أذني.

- غريبة هي الأشياء التي نتذكرها. أعرف من الصور أننا كنا نفعل الكثير سوياً، لكن لا أعرف لماذا أتذكر تلك اللحظة أكثر من أي شيء.

صمتُّ لبرهة، ثم قلت:

- إذاً، لأجيب عن سؤالك: لا هذه هي الطريقة الطويلة في قول لا، أنا لا أتذكّرها حقاً. أعتقد أنّ هذا هو السبب الذي يجعلني أرتدي هذا الحَلَق كل يوم. لم يسبق لي أن انتبهت لذلك حتى هذه اللحظة. عندما يعلق الناس على حلقي، كنت أعرف أن بإمكاني أن أقول: «شكراً، هذا حلق أمي». إنها طريقة لتسريبها إلى داخل حواراتي كل يوم، طريقة تجعلها بشكلٍ ما أكثر حقيقية وجزءاً من حياتي. أشعر بأنها فكرة، مجموعة من قصص أشخاص آخرين، شخص يتغير طوال الوقت في الصور الفوتوغرافية، يبدو مختلفاً في كل صورة، في الأضواء المختلفة، وفي الزوايا المختلفة. كنت أسأل شقيقتيّ طوال الوقت عندما ننظر في الألبوم: هل هذه هي ماما التي تتذكرانها؟ أو هل هذه هي؟ لكنهما كانتا تقولان لا، ثم تصفانها لي بطريقة لا تستطيع أية صورة أن تلتقطها. حتى صورتي الخاصة عنها في مرآتها كانت من قفاها، أذنها اليمنى، ذقنها. أحياناً أتمنى لو تستدير في هذه الذكرى حتى أستطيع أن أراها كاملة؛ وأحياناً أجعلها تفعل ذلك في خيالي. ربما يبدو ذلك غريباً.

قال آدم برقّة:

- ليس غريباً على الإطلاق.

- هل تتذكر أنت والدتك؟

- شذرات منها. أشياء صغيرة. المشكلة هي أنني لا أجد مَن يتكلم عنها. أظنّ أن ذلك يساعد ذاكرة المرء، أن يشاركه الناس قصصاً، لكن بابا لم يتكلم عنها أبداً.

- ألم يكن هناك أي شخص آخر تتكلم معه؟

- كنا نأتي بمربية جديدة كلّ صيف؛ وكان البستاني هو أقرب ما يكون للشخص المعتادين عليه في المنزل، ولم يكن مسموح له بالكلام معنا.

- لماذا؟

- قواعد بابا.

خلّفنا صمتاً طويلاً.

قال:

- سوف تظهر فردة حَلَقك.

تمنيتُ ذلك.

- ماريا قالت إنها ستحضر حفلة عيد ميلادي.

كنت قد نسيتُ أن أسأله. كيف نسيتُ ذلك.

- رائع. عظيم. هذا. هذا عظيم بحق.

نظر إليّ. وعيناه تخترقان روحي.

- أنا سعيد كونك تعتقدين أنّ هذا عظيم بحق.

- طبعاً. إنه أمر.

لم أستطع التفكير في أية كلمة أخرى بخلاف عظيم فتركت الجملة تحتضر.

أخيراً أبطأت السيارة فاعتدلتُ في جلستي، وأنا توّاقة لأن أنال لمحة من المكان الذي نشأ فيه آدم. أعلنَت اللوحات على الأعمدة الضخمة وصولنا إلى «ضيعة أفالون». التزم بات بحدود السرعة هنا وسار متمهّلاً على الطريق، الذي امتدّ لأميال. انزاحت الأشجار لتكشف خضرة مفتوحة رحبة أمام بيت ريفي من طراز تاريخي.

- واو!

لم يبدُ التأثر على آدم.

- هل نشأت هنا؟

- أنا نشأت في مدرسة داخلية. وكنت أقضي الإجازات هنا.

- لا بد وأنه كان أمراً شديد الإثارة بالنسبة إلى فتى شاب، الكثير من الأماكن التي يمكن استكشافها. انظر إلى هذه الأطلال.

- لم يكن مسموحاً لي أن ألعب هناك. وكان المكان موحِشاً. أقرب جيراننا كانوا يسكنون على مسافة بعيدة.

يبدو أنه سمع نبرة الصبي الثري الصغير المسكين في صوته، لأنه لم يسترسل في ذلك.

- هذا هو مستودع الثلج القديم. طالما فكرت أنني سوف أجدّده وأعيش فيه.

قلت:

- إذاً فقد أردت بالفعل أن تعيش هنا.

- في يوم من الأيام.

أشاح بوجهه عني، ونظر من النافذة.

توقفت السيارة أمام الدَرَج العريض الذي يقود إلى الباب الأمامي الضخم. انفتح الباب ورحبت بنا امرأة ذات وجه دافئ.

تذكرتها من قصص آدم: مورين، زوجة بات السائق. ظلت مدبرة المنزل، أو مديرة المنزل كما كان آدم يسميها، على مدار خمس وثلاثين سنة، طوال حياة آدم. ورغم أن آدم لم يعتبرها أبداً وجوداً أمومياً في حياته - فالمربيات كن يُوظفن من أجل رعايته، ومورين، بالرغم من دفئها، لديها أطفالها، بينما تقتصر مسؤوليتها كمستخدَمة على رعاية المنزل - كنت متأكدة أن ثمة خدعة لم ينتبه لها آدم. كنت مرتبكة ولم أستطع أن أفهم كيف كان بإمكانها أن تغض النظر عن طفلين يتيمين تحت السقف نفسه، وشعرتُ على نحوٍ مؤكد أن آدم إذا كان يظن ذلك، لكان هذا تبلُّد حس منه.

- آدم!

احتضنَته بدفء بينما كان هو متصلباً على نحوٍ واضح.

- كم أنا آسفة لخسارتك

- شكراً. هذه كريستين، ستبقى معنا لبضعة أيام.

لم تستطِع مورين إخفاء دهشتها لرؤية امرأة غير ماريا في صحبة آدم، لكنها سرعان ما وارت ذلك خلف ترحابها، مع أنه ما من شيء كان يمكن عمله لإخفاء الارتباك الذي كنت أعرف أنّ كلينا يشعر به عندما حان وقت ترتيبات النوم. كان المنزل يضمّ عشر غرف نوم ولم تعرف مورين إنْ كان عليها اصطحابي لواحدة منها، أم لغرفة آدم. تقدّمتنا متردِّدة، وهي تنظر خلفها بين حين وآخر في محاولة لالتقاط نظرة توجيه من آدم، إشارة تبيِّن لها ما الذي يجب عمله، لكن بالإضافة إلى كونه مثقلاً بحقائبنا، كان تائهاً داخل عقله، جبهته عابسة وهو يحاول أن يفكّ شفرة ما. فكرتُ أنه كان قد غادر الأسبوع الماضي وفي ظنه أنه سيعود مخطوباً، رجلاً يستعدّ لزواج قريب، وعندما انقلبت الأمور فجأة رأساً على عقب عقد النية على

ألّا يعود أبداً. الآن، ها هو هنا، عائداً إلى مكان بدا وأنه يمقته كثيراً.

كنت قد ظللت قلقة على «اتفاقنا» طوال الأسبوع، لكن القلق لم يكن شيئاً بالمقارنة بما شعرتُ به الآن بصحبة آدم. بدا منسلخاً، بارداً، حتى عندما التقت أعيننا وابتسمتُ مشجّعة. تخيلت شعور ماريا حين كانت تحاول مشاركته، التواصل معه، الاقتراب منه، ثم قوبلت بهذا الانسحاب. فكرت في الأمر أولاً كهيكل فارغ لآدم، لكنني بعد ذلك أدركت أنني كنت مخطئة تماماً. لم يكن هيكلاً، كان ممتلئاً لعينه بشخص آخر، مسكوناً بآدمَ يشعر بالغضب والفقد والسخط والكراهية بسبب فقدانه السيطرة على حياته. آدم يشعر بتعاسة عميقة. كان قد فقد أمه في سن صغيرة، لكن حياته ظلّت آمنة بطرق أخرى. لم يكن عليه القلق على وجبته القادمة، وكتبه المدرسية، والألعاب في عيد الميلاد، أو الخوف من أن يُنتزع منه بيته. في حياته، كانت كل تلك الأشياء بديهية. وقد اعتبر أنه من البديهي أن يكون حراً في الانفصال عن حكم والده، والتخطيط لمصيره بنفسه، في وجود أخت كبرى يمكنها إدارة شركة العائلة. ثم تغيَّر كل ذلك. الواجب، ذلك الشيء الذي تجنّبه بكلّ شكل واحتفل بتجنّبه بنجاح كان يمشي على مهل خلفه ثم نقر على كتفه وطلب منه باحترام أن يتبعه من هذا الطريق. لقد انتهت الحفلة، ، ظنه بأنه يمتلك حق تقرير مصيره، بأنه يستطيع بناء حياة مختلفة لنفسه، تبخر، ذاب أمام عينيه مثل بيت من الشمع.

كان في النهاية، وكان لا يحب النهايات، لم يكن يحب الفراق ولا الوداع ولم يكن يحب الرحيل. كان التغيير يتم وفقاً لشروطه عندما يكون مستعداً وبحال طيبة. كانت نظرة عينه، نبرة صوته، وكل

ما يجعل من آدم آدم، قد تغير من لحظةِ وَضَعنا أقدامنا في المنزل، والآن حين أفكر في الأمر، فإنّ ذلك التبدّل قد بدأ في التسلّل لحظة أغلق خط الهاتف سابقاً. جعلني ذلك أشعر بغثيان في معدتي، لأنني أدركت كم كان آدم جاداً جداً حين كان على وشك مغادرة هذا العالم، وعرفت أنه إذا حاول ذلك مرة أخرى، سيحسم الأمر هذه المرة، لن يتوقف حتى يحقق النجاح.

كان أمراً مختلفاً أن تساعد شخصاً يريد المساعدة، وهو ما شعرت أنّ آدم كان مستعداً له في دبلن. أما هنا، في تيبيراري، فقد شعرتُ أنه أغلق الباب بالفعل، وانسلخ عاطفياً عني. قضى معظم اليوم نائماً والستائر مسدَلَة في غرفته الشاسعة مع مدفأة مشتعلة وكنبة أصرّ آدم أنه سينام عليها فيما بعد، لكنه الآن كان في الفراش وكنت أنا جالسة، رافعة ساقيّ على الكرسي بجوار النافذة، في الركن البارز من الغرفة، المُحاط بنافذة تطلّ على بحيرة ديرغ. رحت أستمع إلى أنفاسه وأراقب الساعة، وأنا أعي أننا نضيع الوقت. كنت بحاجة إلى مواجهته ودعمه، لكن لم يكن بوسعي القيام بأيّ من ذلك لأنه كان قد تراجع، انسلخ، وانسحب، وكنت خائفة.

ألقيت نظرة على آدم ثانية؛ كان نائماً بالتأكيد. كانت يداه مطروحتين والكفان إلى أعلى وراءه على السرير، وذراعاه مرفوعتين كما في وضع الاستسلام. وكان شعره الأشقر منسدلاً على أحد جفنيه فمددتُ يدي لإزاحته. لم يستيقظ وظلّ إصبعي على بشرته الناعمة لبرهة أطول قليلاً. لم يكن قد حلق لحيته هذا الصباح وكانت لحيته الخفيفة الشقراء المائلة للبياض، والتي لا تكاد تُرى، تتلألأ في النور. وكانت شفتاه مضمومتين، مزمومتين كما يفعل وهو في حالة تركيز. وجعلني ذلك أبتسم.

ظهرَت مورين عند الباب المفتوح، وطرقت برفق لتلفت الانتباه. فزعتُ وسحبت يديّ وكأنني ضُبطت وأنا أرتكب فعلاً مشيناً. تساءلتُ منذ متى ومورين هنا. ابتسمَت لي بطريقة فهمتُ منها أنها لاحظت رقّتي مع آدم، فاتجهتُ، محرَجَة، نحو الباب.

- آسفة لإزعاجك، لكنني أحضرت البطانيات الإضافية التي طلبها آدم.

كانت للكنبة، فوضعتُها عليها.

لاحظتُ أنّ مورين ترغب في السؤال، لكنها، بدلاً من ذلك، قالت:

- و، بالمناسبة...

نظرَت خلفي إلى جسده النائم.

- كانت هناك مكالمة هاتفية لآدم.

قلت بصوت خفيض:

- لا أظننا يجب أن نزعجه. يمكنك إخباره لاحقاً. أم أنها عاجلة؟

- كانت ماريا.

- أوه.

- حاولَت الاتصال به على هاتفه المحمول، لكنه لم يرد. تريد أن تعرف إن كان يريدها أن تحضر الجنازة. قالت إنهما وقعا في بعض الخلافات وإنها ليست متأكدة إن كان يريدها هنا أم لا لا تريد إزعاجه.

- أوه...

نظرتُ إلى آدم وحاولتُ أن أتبيَّن ما أفعله. آدم الذي كان في دبلن كان سيريدها. أما هذا الـ«آدم» فهو يحتاجها، لكنه ليس آدم

الذي وقعَت ماريا في حبه وتقع في حبه مجدداً. قررتُ أنهما يجب أن يلتقيا بعدما يستعيد لياقته. فماريا، إذا رأته هكذا، أو إذا عاملها كما عاملها من قبل، ستولي الأدبار هاربة مرة أخرى إلى ذراعي شون. كان عليَّ أن أتكلم في الأمر معه لاحقاً لكنني كنت متأكدة أنه سيوافقني.

- أعتقد أنه سيفضّل ألّا تكون هنا، لكن ليس لأنه منزعج منها. من فضلك اجعليها تفهم هذا.

قالت مورين بصوت خفيض:

- طيب، سأخبرها.

ألقت نظرة على آدم ثانية، وكان من الواضح أنها تتساءل بينها وبين نفسها: هل يجب أن أثق في هذه السيدة؟ هل يفضَّل أن أسأله بنفسي؟

عندما نزلت إلى الصالة، هرعت لألحق بها، وأنا أشعر براحة أكبر في التحدث إليها من دون أن يكون آدم على مسمع منا.

اعتصرتُ يديَّ معاً.

- مورين... إننا لسنا... معاً. أنا وآدم. إنه ليس على ما يرام مؤخراً، لديه بعض المشاكل، على المستوى الشخصي.

أومأت مورين برأسها، وكأنها تعرف هذا الأمر جيداً.

- لن يسعده أن أقول أيّ شيء. أنا متأكدة أنك تعرفينه أكثر مني، لكنني أحاول أن... أساعده. ظللتُ أحاول مساعدته طوال الأسبوع. وظننتُ أن الأمور تسير. لا أعرف حالته في الأيام العادية، لكن في الأيام التي تلت لقاءنا الأول، بدا لي... أكثر خفة. هذا الأمر سبَّب له نوعاً من الانتكاس. وإن كنت أعرف أنه ليس ثمة وقت مناسب لفقد شخص ما...

- هل قابلتِ السيد بازل؟

- نعم.

- طيب إذاً، سوف تفهمين عندما أقول، بالرغم من أنني عملت لديه لخمسة وثلاثين عاماً، لم تكن علاقتنا بهذا القرب.

- الأمر نفسه يمكن أن يُقال عن ابنه.

زمّت مورين شفتيها وأومأت برأسها.

- أنا متأكدة أنك لن تسيئي فهمي، لكن آدم..

خفضَت صوتها:

- طالما كان حساساً، وقاسياً على نفسه. لم يكن يستطيع التخلي عن الأشياء بسهولة، حتى أصغر الأشياء. لقد حاولت أن أكون موجودة لمساعدته، لكن آدم كان يفضّل التعامل مع الأمور وحده، بهدوء، والسيد بازل.. طيب، كان السيد بازل.

أوضحتُ لها:

- أنا أفهم. شكراً لك على التوضيح، وأؤكد لك أنني لن أكرِّر ما قلته. أنا فعلياً لم أرفع عينيّ عنه طوال الأسبوع.

- معظم النساء لا يستطعن ذلك.

ابتسمتُ، فتورَّد خدّاي بطريقة فاضحة.

- لأسباب لا أستطيع شرحها، لا أستطيع أن أبعد نظري عنه. وهذا هو سبب وجودي في غرفة النوم، لكنني مضطرة حقاً إلى الذهاب إلى مكان ما الآن وأريد أن أعرف إن كنت تستطيعين إبقاء عينيك عليه لأجلي؟ أنا متأكدة أنّ أمامك الكثير من الأشياء لإنجازها من أجل الغد، لكنني لن أغيب أكثر من ساعة. إذا سمحتِ؟

وضعتُ كرسياً أمام باب غرفة النوم لتجلس عليه مورين حتى لا يفزع حين يستيقظ فيراها مسترخية على الكنبة أمام سريره.

- من فضلك اتصلي بي إذا استيقظ، أو ذهب إلى الحمام، أو أي شيء.

ألقيتُ نظرة قلقة على آدم في الفراش، وأنا أحاول أن أقرر إن كنت سأذهب أم أبقى.

وضعَت مورين يداً دافئة على ذراعي:

- ستكون الأمور على ما يرام.

قلت متوترة:

- طيب.

قالت مورين:

- لقد كانت محقّة.

- مَن؟

- ماريا. سألتني إن كان آدم هنا بصحبة امرأة. امرأة جميلة يبدو وأنها تعتني بأمره.

- فعلاً؟

أومأت مورين برأسها:

- نعم.

- وماذا قلتِ؟

- أخبرتها أنّ شؤون آدم يفضّل أن تناقشها مع آدم نفسه.

ابتسمتُ ابتسامة واهنة:

- أشكرك.

وجدتُ بات في مطبخ الخدم، يلتهم ساندويتش من البيض. كنت مرعوبة من بقائي معه في مكان مغلق وهو يقود السيارة؛ السرعة من جهة، ثم جاءت رائحة البيض لتزيد الطين بلة. حاولت أن أنتظر

بأدب حتى ينتهي، لكن وجود آدم في الطابق العلوي من دوني جعلني أروح وأجيء بتوتر.

- طيب.

قالها بات، وهو يدفع النصف الأخير من الساندويتش كله في فمه، ويزيح الكرسي إلى الخلف، ويضع كوب الشاي وينهض. التقط المفاتيح وتوجّه إلى السيارة.

كانت ماري كيغان، الذراع اليمنى لديك بازل، تعيش على بعد عشرين دقيقة على قطعة أرض بديعة. عندما لم أجد أحداً في البيت، وجهني بات إلى الإسطبلات وعاد إلى الراديو الذي يهدر بأخبار الرياضة في السيارة شديدة الحرارة الممتلئة برائحة البيض. كان محقاً بشأن مكانها. وقفتُ عند السور وراقبتُ المرأة الأنيقة التي تعتلي جواداً وهي تقفز في مضمار قفز الحواجز.

- إنها السيدة ميدوز.

سمعتُ الصوت من خلفي، فاستدرتُ لأرى ماري. كانت ترتدي زياً يليق بالمكان: حذاء ولينغتون أعلى الركبة، وسترة صوفية وفوقها معطف قصير مبطن.

- ظننتها أنت.

ضحكَت.

- أنا؟ طبعاً لا! ليس لدي وقت لأكون بهذه المهارة. أنا لا أنفع إلا في الركض الصباحي ومطاردات الصيد. أحبّ الصيد بحق.

- السيدة ميدوز اسم الفرس أم المرأة؟

ضحكَت:

- الفرس. المرأة اسمها ميستي. إنها لاعبة قفز استعراضي، تُنافس في عروض المحترفين. وأوشكت على الوصول إلى الأولمبياد

آخر مرة، لكن حصانها «ميديسن مان» كسر ساقه في أثناء التدريب. ربما يحالفها الحظ في المرة القادمة.

- المكان هنا رائع. كم حصاناً لديكم؟

- اثنا عشر. ليست كلها ملكنا، لكن ذلك يزيد في المصروفات. مع ذلك فنحن نتوسع، بل إنها تفكر في أن نبدأ في التوليد.

- هل تحلمين بالتفرغ لهذا الأمر؟

- أنا؟ لا لماذا، هل أرسلك بازل لكي يطردني؟

حاولَت أن تقولها كمزحة، لكن الخوف في عينيها كشف عن قلقها.

- لا، العكس هو الصحيح.

بدا الاهتمام على وجه ماري

أكملنا حوارنا في الكوخ الواسع، حيث الدفء المفترض، لكن مع الباب الذي لا ينِي ينفتح وينغلق مع دخول وخروج عمال الإسطبل، لم تكن هناك فرصة كبيرة للاحتفاظ بأيّ دفء داخل المكان. أبقت ماري معطفها ففعلتُ مثلها، وأنا أشرب قدر استطاعتي من الشاي الساخن وأدفئ يدي على الكوب وأنا جالسة على كنبة مليئة بشعر الحيوانات، محاطة بثلاثة كلاب؛ واحد نائم، وواحد يعاني من اضطراب الأماكن المغلقة ظلّ يروح ويجيء في الغرفة يتشمَّم الجدران بحثاً عن مخرج، وآخر جالس في حجر ماريا ظلّ يراقبنا طوال المحادثة بطريقة مربكة من دون أن يطرف له جفن. لم يبدُ وأن ماري لاحظت أياً من ذلك، لا البرد، ولا شعر الكلا ب الذي ظللتُ ألتقطه من الكوب الخاص بي. لم أكن واثقة إن كان ذلك لأنها اعتادت على الأمر أم بسبب العرض الذي قدمتُه لها.

ظهر عليها الارتباك لكن اهتمامها كان واضحاً:

- وأنتِ تعملين على ذلك مع آدم؟

أجبتها، ولم أكن أكذب بالضبط:

- نعم. لم يستطع أن يأتي اليوم لأنّ أمامه الكثير من الترتيبات للجنازة.

فكرتُ فيه في المنزل، راقداً في الظلام ومغطياً رأسه بالأغطية.

سألتني مرتبكة:

- وهو سعيد بذلك؟ بألّا يكون له دور يومي في الشركة؟ بأن أتخذ أنا القرارات؟

- قطعاً. سيكون رئيساً لمجلس الإدارة، لذا يجب أن يوقّع كلّ القرارات بنفسه، لكنني أعتقد أنها أفضل طريقة للمضيّ قُدماً. كلّ مَن تكلمتُ معهم كانوا شديدي الثقة أنك من يجب أن يدير الشركة بالطريقة التي يرغبها السيد بازل. أنت تحبين الشركة.

ابتسمَت.

- كانت أول مكان عملت به بعد تخرجي. كان مقرها وقتها في دبلن، لكنهم انتقلوا بعد ذلك إلى هنا، وكان ذلك أمراً عظيماً بالنسبة إلى المنطقة. وما زال أمراً عظيماً. قضيتُ أول سنواتي أجيب على المكالمات الهاتفية. وتدريجياً شققتُ طريقي إلى أعلى، لكن.

هزّت رأسها، في ارتباك.

- ما المشكلة؟

- السيد بازل الكبير لم يكن ليقبل بهذا. وعائلة السيد بازل لن تقبل بهذا. لافينيا ستفضّل أن تتألم حتى الموت بدلاً من أن تراني في موقعها. آل بازل يفضّلون إبقاء الأمور داخل العائلة.

لم تتكلم بسوء عن أيّ شخص، كانت أكثر احترافية من أن

تفعل ذلك، لكنني كنت أقرأ بين السطور وكان كلامها يتّفق مع ما سبق وقاله آدم عن الشعور بالضغط من ناحية عائلته داخل الشركة كونه هو مَن سيشغَل الوظيفة، لا هم.

أضفتُ:

- طالما ظلّت أسرة عمّه بعيدة.

اتفقَت معي:

- طيب، بالطبع. لن تذهب الشركة إلى نيجل، أليس كذلك؟

سألتني بقلق.

- هذا آخر شيء يريده آدم. ولا أظنّ أنّ هناك ما يجب أن يقلقك بشأن لافينيا.

سألتني ثانية، مرتبكة:

- هل أنت واثقة أنّ آدم سعيد بذلك؟

ماطلتُ:

- هل تسمحين لي أن أسألك، لماذا تشكّين في الأمر؟ ظننتُ أنّ مسألة عدم رغبة آدم في الوظيفة واضحة للجميع.

- أوه، شعرتُ بذلك بالطبع، لكنني ظننتُ أنّ الأمر سيختلف مع موت السيد بازل. ظننتُ أنه سينظر إلى الأمور على نحوٍ مختلف. من الصعب أن تقومي بمَهام وظيفتك والسيد بازل واقف فوق رأسك؛ إنه لا يكاد يعطيك ثانية واحدة للتفكير قبل أن يصرخ فيك لأنك لا تفكرين. ظننتُ أنّ آدم سيريد أن يجعلها شركته..

هزّت كتفيها وتابعت:

- ظننتُ أنّ مشكلته كانت مع أبيه، لا مع الشركة. وقد أثبتَ أنه بارع في الأمر، في الوقت القصير الذي جاء فيه إلى الشركة. كانت لديه بعض الأفكار الجيدة - وصدقيني، يمكننا أن نستفيد من

بعض الدماء الجديدة هناك. سيكون أمراً مشيناً ألّا يشغل المنصب. لكن، كما تقولين، إذا كان ذلك هو ما يريده...

نظرَت إليّ وكأنها لا تصدِّقني.

أربكني كلامها وجعلني أفكر في إعادة حساباتي من جديد.

رنّ جرس هاتفي. كانت مورين.

- لقد استيقظ.

لم أكن بحاجة إلى أن أطلب من بات أن يدوس بقوة على دواسة البنزين، إذ كان بالفعل يقود بسرعة تتجاوز 100 ميل في الساعة على طرق لو كنتُ مكانه لما تجاوزت سرعة الستين عليها. عندما وصلت إلى المنزل، توقعت أن أجد آدم في الخارج أو في الطابق السفلي لكنه كان لا يزال في غرفته، يتكلم مع مورين التي احمرّ وجهها لكي تخرجه.

قال آدم، بصوت بدا فيه نفاد الصبر:

- ادفعي المفاتيح من تحت الباب يا مورين.

قالت متوترة:

- آه، لستُ متأكدة أنها ستدخل.

ثم أمسكت برأسها بين يديها في اضطراب صامت. سمعتني على الدرج فنظرت لي بارتياح. همسَت على نحو محموم:

- أخذ حماماً وكان جائعاً، فجلبت له الغداء وأقفلت عليه الباب. وظلّ يقول إنه يريد الخروج لنزهة.

- ولماذا لم تفتحي له الباب؟

- قلتِ لي ألّا أسمح له بالابتعاد عن نظري.

- كان بإمكانك أن تظلّي وراءه.

وضعت يديها على فمها المفتوح، إذ لم تكن قد فكرت في ذلك. وشعرتُ بأنّ فمي يختلج.

همسَت مورين:

- إنه غاضب جداً.

- لا بأس. سيلقي باللائمة علي.

رفعتُ صوتي:

- لا مشكلة يا آدم أنا هنا. سوف أساعد.

وضعتُ المفتاح في القفل وصلصلت به وكأنني أواجه مشكلة في إدارته. ظلّ آدم يدفع المقبض إلى أعلى وأسفل بصبر نافد.

- آدم، توقف! أنا أحاول أن...

أخيراً استقرّ المفتاح في مكانه وانفتح الباب بقوة. اندهشتُ للقوة المفاجئة حتى أنني لم أجد الوقت لأتحرك. خرج آدم مندفعاً، مثل ثور أطلق سراحه، وكان كتفي هو الهدف مع اندفاعه للمرور بي، لكنه كان شديد الغضب حتى أنه لم يتوقف ليعتذر، وأمسكَت مورين بي وأنا أطير إلى الخلف لبضع أقدام.

- يا إلهي! عزيزتي، هل أنت بخير؟

لم أشعر بالحرقة إلّا لاحقاً حين انشغلت أكثر بأمر آدم الذي اندفع جرياً على الدرج، والدخان ينبعث من أذنيه. فانطلقت ألحق به.

- اريد أن أكون وحدي.

قالها، وهو يندفع خارجاً من المنزل ويتّجه يساراً حيث الدرب الموازي للبحيرة.

كانت ساقاه أطول من ساقيّ كثيراً فاضطررت أن أهرول لكي ألحق به. بضع خطوات سريعة، ثم هرولة لألحق به، ثم بضع

خطوات سريعة، ثم هرولة أخرى. ومع ذعري من أن يكون قد خرج عن السيطرة، ومع هرولتي، كانت أنفاسي قد بدأت تتقطع بالفعل.

قلت، وأنا أعدو قليلاً، ثم أسير، ثم أعدو قليلاً لألحق به:

- أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك.

- ليس الآن، طيب؟

ظللتُ معه، لم أرغب في قول أيّ شيء يضايقه. ظللت إلى جانبه، صامتة وإنما حاضرة. لا أقول إنه كان سيعجز عن فعل أي شيء لأنني معه. كان قوياً، كما أكّد الألم الذي راح ينبض في كتفي. مع ذلك، تماسكت، لم أكن أستطيع التخلي عنه، لم أكن أستطيع تركه وحيداً، لم أكن أستطيع.

صرخ في وجهي:

- كريستين! ابتعدي عني!

كان قد توقف فجأة وفاجأني ذلك. كانت صرخته عالية حتى أنّ صداها تردّد حول البحيرة، وتذبذب رجعها في رأسي، وتأذّت لها أذناي، وجعلت قلبي يضرب داخل صدري. لمعة الغضب في عينيه، في يديه المضمومتين، المهددتين دون قصد، جعلتني ألتقط نفساً وأحبسه. شعرت مثل طفلة صرخ فيها شخص بالغ، هذا الشعور المفاجئ بالهشاشة والحرج. وشعرت أنني وحيدة، وحيدة جداً فجأة. استدار عني وانطلق في طريقه وانهرتُ أنا، ركعت، ويداي تندفعان إلى ركبتي وأنا أشهق لالتقاط الأنفاس وأنا أبكي، وللمرة الأولى لم أحاول أن أوقف بكائي.

تركته يمضي.

20

كيف تقف وتواجه الآخرين

شعرت بهدوء من نوع غريب وأنا أجلس في بيت القوارب وأنظر إلى بحيرة ديرغ. كانت حواف البحيرة قد تجمّدت، وكان البط يسبح، وينقر في البركة، ثم يرفع رأسه على الفور إلى السماء وكأنه هو الآخر لا يحتمل البرودة، أو أنّ جوعه لا يستحق هذه المعاناة. تنشقتُ ثانية بينما كانت أنفي تسيل، وقد توقفتُ عن مسحها إذ كانت قد نملَت تماماً، واحمرت عيناي والتهبتا. كنت متأكدة أنّ دموعي كانت لتتجمد لولا أنها تجري بهذه السرعة. لم أُعنَ بمسح الدموع، التي كانت تنحدر أحياناً إلى شفتي فألعقها، متذوّقة الملح. كان شعوراً من نوع غريب، الانتظار، الإحساس بالعجز عن إيقاف فعلٍ طالما شعرت أنني مسؤولة عنه وحدي في ساعات الصحو والنوم، مع ذلك عندما حانت لحظته أدركت أنني لن أستطيع إيقافه. ليس بشكل مادي. لم أكن أملك سوى الكلمات، لم أكن أملك سوى التفكير، لكنه لم يكن مستعداً للإنصات هذه المرة.

سمعتُ وقع أقدام خلفي فدقّ قلبي. إنهم هم، جاءوا ليخبروني أنهم عثروا عليه. وربما ليلقوا القبض عليّ - هل يمكنهم ذلك؟ ألم يساعده فشلي ويحرّضه؟ حدقتُ إلى الأمام، والبحيرة داكنة وساكنة،

لكنها باردة، وأنفاسي تتقطع في الصمت. بدت انفراجة بين السحب فتطلعت إلى النور وراودتني فكرة متفائلة مفاجئة. كان وقع الأقدام بطيئاً، لم يكن هناك ذعر فيها، لا شيء خطيراً. توقفَت خلفي ثم استمرت لتدور حول بيت القوارب، حتى ظهر آدم إلى جانبي.

جلس إلى جواري. رفعتُ يداً لأمنعه من الاقتراب أكثر. عضضتُ على شفتيَّ لأتفادى نوبة جديدة من البكاء و، إذ شعرت بعجزي عن ذلك، أشحتُ بوجهي بعيداً عنه.

تنحنح آدم لكنه ظلّ صامتاً لبرهة أخرى. كان ذلك هو التصرّف الصحيح؛ فجلوسنا معاً، وكلّ منا في رفقة الآخر، كان بحدّ ذاته أمراً يدفئ الهواء البارد بيننا.

- أنا آسف.

قالها، ومع أنه استغرق وقتاً طويلاً لقولها، شعرتُ بالمفاجأة.

لم أردّ. كنت أعرف أنني يجب أن أسامحه، لكنني لم أسامحه.

- أين ذهبت؟

- لأنفّس عن غضبي قليلاً. أفزعتُ بضع أرانب برية وجعلتُ غزالاً يتبرّز على نفسه.

لم أستطع أن أكبح نفسي، فهربَت مني ضحكة صغيرة.

قال بصوت أكثر رقة:

- هذا أفضل. أكره رؤيتك تبكين.

مدَّ يده ومسح دمعة شاردة عن خدي. أغمضتُ عينيَّ فسقطت دمعة أخرى.

- هاي!

قالها وهو ينزلق على المقعد المستطيل ويضع ذراعه حولي.

قررتُ ألّا أتكلم، إذ كنت عاجزة عن السيطرة على الغصّة في حلقي. بدلاً من ذلك، أسندتُ رأسي إلى كتفه. وضع قُبلة على قمة رأسي.

قال:

- لا أكون على سجيتي أبداً وأنا هنا. أتحول إلى شخص مشوش، غاضب. تعرفين.

خلّف لحظة صمت. لم أملأها. كنت مستعدة لأن أنصت له، لا لأن أساعده على الإفصاح.

- وقد وعدتِني ألّا تخبري أحداً. وهذا أثار غضبي.

رفعتُ رأسي إليه.

- أخبر أحداً بماذا؟

- تعرفين، عن يوم الأحد الماضي.

- لم أخبر أيّ أحد.

نظر إليّ.

- كريستين، لا تكذبي، أرجوك لا تكذبي. ليس أنت. يمكن لبقية العالم أن يكذب عليّ، لكن ليس أنت.

تحركتُ بعيداً عنه:

- أنا لا أكذب. لن أكذب عليك.

وتابعت على الفور، كأنما لأثبت قولي:

- لقد قلتُ لمورين أن تخبر ماريا ألّا تأتي إلى الجنازة، ظننت أنه سيكون أفضل ألا تراك في هذه الحال.

حاول أن يقرأ وجهي.

- لكن ليس هذا ما أتكلم عنه.

- أعرف. لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي لم أخبرك به.

إضافة إلى الشيء الذي كنت على وشك إخبارك به، لكن بعيداً عن هذه الأشياء فقد التزمتُ بكلمتي. لن أخبر أيّ شخص كيف تقابلنا.

عبس وجهه.

- ما هو الشيء الذي كنتِ على وشك إخباري به؟

- سأخبرك لاحقاً.

- أخبريني الآن.

- آدم، مَن تظنني أخبرت؟

قال، وهو يتوتر:

- مورين.

- لم أخبرها.

- لقد حبسَتني داخل الغرفة.

جفلتُ.

- لقد أصيبت بالذعر. قلت لها أن تُبقي عينيها عليك. وأنّ لديك مشكلات شخصية، وأن ـــ

- يا إلهي يا كريستين!

لم يصرخ بصوت عالٍ مثل المرة السابقة، ولم أظنني سأسمع هذه الدرجة من الصوت من أي شخص ثانية، لكن الغيظ كان واضحاً في صوته.

- هذا لا يعني أنني قلت لها يا آدم.

- هذا يعني أنك قلت لها إن ثمة شيئاً ما.

جاء دوري لكي أنفجر.

- هل تظنّ أن هناك شخصاً واحداً يعرفك ولا يدرك أن ثمة شيئاً غير مريح؟ حقاً يا آدم، فكِّر في الأمر. هل تفترض بأمانة أن أحداً لا يلاحظ؟ أن أحداً لا يهتم؟ كنت مضطرة إلى الخروج وكنت

خائفة أن أتركك. وموررين قالت إنها ستُبقي عينيها عليك. لم أفكر أنها سوف تحبسك!

عندما قلت ذلك، بدا لي مضحكاً، فابتسمتُ رغم غضبي.

قال، متفاجئاً:

- الأمر ليس مضحكاً.

وافقته، وزاويتا شفتيّ لا تزالان تختلجان:

- أعرف أنه ليس كذلك.

ثم أضفت:

- طيب، هو مضحك بعض الشيء.

واتسعت ابتسامتي ورفضَت أن تختفي.

غمغم وهو يشيح بوجهه:

- يسعدني أنك تظنين ذلك.

انتظرتُ أن تختفي ضحكتي المتوترة.

- ما هو الشيء الذي كنت على وشك إخباري به؟

- لقد ذهبتُ لرؤية ماري اليوم.

- ماري كيغان؟

أومأت برأسي.

- قدَّمت لها عرضاً. من جانبك. الجميع يتفقون على أنها كانت الذراع اليمنى لوالدك، صح؟

اتفق معي.

- وسألت نفسي إن كان سيحلّ الأمور أن تصبح أنت رئيساً لمجلس الإدارة، وتظلّ مسيطراً بالكامل على الشركة - وهو ما يتفق مع رغبات جدّك قانونياً - لكن مع تنصيب ماري كمديرة إدارية. بهذه الطريقة سوف تُدير هي الأمور بينما تحتفظ أنت بالسيطرة من خلال

توقيعك على أيّ أوراق تتطلب التوقيع. ثم تستطيع التحدث مع رئيسك بشأن استعادة وظيفتك في حرس السواحل. تستطيع أن تكون في مجلس الإدارة وتشغل وظيفة أخرى في الوقت نفسه، أليس كذلك؟ أنا متأكدة أنه سيتفهم الأمر.

- أي أنني سأكون في مجلس إدارة بازل وأحتفظ بوظيفتي.

- مثل «باتمان».

فكّر في الأمر.

- هاي، لا تبالغ في الفرحة.

تفحصتُه، مستغربة. كنت قد حللتُ مشكلاته، مع ذلك ظلّت المعركة موجودة. كان يصارع بعض الاضطراب الداخلي.

- هل تتّفق معي على أنّ هذا يحلّ المشكلة؟

قال، ذاهلاً:

- نعم، تماماً، شكراً لك.

عادة، كلما دفعت أكثر في الاتجاه نفسه دون جدوى، كلما ثبت أنك ترتكب خطأ. بدأت أفكر أنني ربما أدفع في الاتجاه الخطأ. كنت قد قضيت أسبوعاً وأنا أحاول التفكير في طريقة يخرج بها آدم من الوظيفة التي قال إنه يحتقرها، لكن الحلّ لم يكن مناسباً.

اقتحمتُ أفكاره.

- لنلعب لعبة.

قال متذمراً:

- أنتِ وألعابك.

- ماذا تفعل وأنت وحدك ولا أحد ينظر إليك؟ ولا تكن مقرفاً.

سارعتُ بإضافة العبارة الأخيرة عندما استشعرت من منظره فيمَ كان يفكر.

قال:

- طيب إذاً، لا شيء.

ضحكتُ، سعيدة لعودته.

- أقصد، هل تتكلم مع نفسك؟ تغني في الحمام؟ ماذا؟

- إلى أين يقودنا هذا؟

- فقط أجبني.

- هل سينقذ هذا حياتي؟

- سينقذ حياتك بكل تأكيد.

- طيب. نعم، أغني في الحمام، هذا هو كل شيء.

وكنت أعرف أنه يكذب. تنحنحتُ وقلت:

- مثلاً، أنا عندما أشعر بالملل، في غرفة انتظار أو ما شابه، أختار لوناً وأحاول أن أعدّ الأشياء في الغرفة التي لها اللون نفسه، ثم أختار لوناً آخر وأعدّ الأشياء في الغرفة بذاك اللون، واللون صاحب الأشياء الأكثر يفوز.

استدار ليواجهني.

- ولماذا تفعلين ذلك بحق الجحيم؟

ضحكت:

- من يعرف؟ الناس يفكرون في أشياء غريبة طوال الوقت لكنهم لا يعترفون بها. أنا أيضاً لدي هذه العادة أن أمرّر لساني على أسناني وأعدّ كل سنّ وأنا أفعل ذلك. وفي رحلات السيارة، أنصت إلى الناس وهم يتكلمون، تعرف؟

حدجني بنظرة غريبة.

- أو أحاول أن أخرج بأفكار لكتابي.

بدا عليه الاهتمام.

- أي كتاب؟

- الكتاب الذي طالما أردتُ كتابته. الكتاب الذي يجب أن أكتبه يوماً ما.

انتابني الحرج فرفعت ساقيَّ، وأسندت ذقني إليهما.

- أو ربما لن أكتبه. إنه مجرد حلم سخيف يراودني.

- هذا ليس سخيفاً. يجب أن تكتبيه. ماذا ستكتبين؟ أدباً إيروتيكياً؟

ضحكت:

- مثل صديقتك، إيرما؟ لا كتابَ مساعدة ذاتية. لكنني لا أعرف موضوعه تحديداً.

قال مشجعاً:

- عليك أن تفعلي ذلك. ستكونين رائعة في ذلك.

ابتسمت، وتورَّد خداي، وأنا أشعر بالامتنان للتشجيع الذي لم أنله قط من باري، وعرفتُ على الفور أنني سأحاول الكتابة.

قال فجأة:

- أحبّ أن أنظم القوافي.

استدرتُ لأواجهه:

- آه، أخبرني.

قال بخجل:

- ليست الكلمات الصغيرة. لا أصدق أنني أخبرك بذلك، حتى ماريا لا تعرف ذلك.

واحد/ صفر. هكذا فكّرت بطفولية.

- ليس من قبيل «القط ينط»، ولكن كلمات أكثر تعقيداً.

تلفَّت يميناً ويساراً:

- كلمة «منجنيق» تردّد في أذني على الفور كلمة «عماليق».
رميته بنظرة:
- يا إلهي! أنت غريب.
- هاي!
ضحكتُ.
- أنا أمزح معك، هذا ظريف.
- ليس ظريفاً.
- اسمع، العقل السري هو مكان غير ظريف على الإطلاق.
- هل هذه هي الرسالة؟
تطلعتُ إلى البحيرة.
- ماذا عن «لم يحدث ولا مرة أن...»؟ كنت أنا وشقيقتيّ نلعب هذه اللعبة ونحن في السيارة في العطلات.
- يا حسرة على أبيكم المسكين.
- الحقيقة أنني أفكر أننا استطعنا إبقاءه على قيد الحياة. طيب، ابدأ أنت، لم يحدث ولا مرة أن...
- تعرفين، هذا يشبه تقنيات إيلين: «كيف تقع في الحب».
- طيب، ربما أريدك أن تقع في الحب فعلاً.
شعرتُ بعينيه تلفحانني.
أوضحت:
- مع الحياة. أريدك أن تقع في حب الحياة. قل إذن.
لكزته.
- طيب، لم يحدث ولا مرة أن..
فكّر قليلاً في الأمر:
- أن أكلت مصاصة.

انفجرتُ:
- ماذا؟ اشرح.
ضحك.
- لم يكن مسموح لنا أن نأكل المصاصات ونحن صغيرين لأنها خطيرة جداً. كل يوم كانوا يعدّدون لنا المخاطر: سنختنق، سنكسر أسناننا، سنفقد عيناً أو سنتسبب في أن يفقد شخص آخر عيناً. وأخيراً قيل لنا إن بإمكاننا تناول المصاصات، لكن علينا أن نجلس ونأكلها وإلّا سنختنق ونموت. أقصد، لماذا يريد أي طفل ذلك؟ لذا لم آكل مصاصة في حياتي. ويقي هذا الأمر معي إلى الأبد. لا أستطيع حتى تحمُّل مشاهدة أطفال يأكلون مصاصات.
ضحكت.
- دورِك.
- لم يحدث ولا مرة...
كنت أعرف أنني أريد أن أقولها لكنني لم أكن واثقة إن كان عليّ أن أقولها أم لها. ابتلعت ريقي.
- لم يحدث ولا مرة أن. وقعت في الحب.
نظرَ لي مندهشاً.
- لكن زوجك؟
- ظننته كان حباً. لكنني بدأت أفكر أنه لم يكن كذلك.
- لماذا؟
تبادلنا نظرات وقلت له بصمت في رأسي، لأنه لم يكن يشبه هذا، لكنني بدلاً من ذلك قلت:
- لا أعرف. هل تظن أنّ الحب من طرف واحد حبّ حقيقي؟
قال ببطء:

- الإجابة كامنة في السؤال، أليس كذلك؟

- نعم، لكنه ليس متبادلاً، هل يمرّ الشخص بالتجربة الكاملة، الحقيقية؟

فكر في الأمر، فكر في الأمر بحق وانتظرت منه إجابة تعكس كلّ هذا التفكير، لكنه قال ببساطة:

- نعم.

كان من الواضح أنه يفكّر في ماريا، ولو أنني كنت واثقة أنّ ماريا تحبه من كل قلبها، رغم خطتها مع شون.

- كريستين، لماذا تتكلمين عن هذا الأمر؟

لم أكن أعرف فعلاً. لم أستطع أصلاً أن أتذكر كيف وصلنا إلى هذا الموضوع. كنت أحاول صرف انتباهه، وبدلاً من ذلك انتهيت أنا هائمة في أفكاري.

ارتعشت.

- لا أعرف. هيا ندخل قبل أن نتجمّد.

لما كنا في منطقة آدم، طلبت منه أن يريني المكان. أردتُ أن أحسّ بحياته كطفل وكيف كان لها أن تصبح إن هو عاد من دبلن، أردتُ معرفة ما الذي أفزعه إلى هذا الحدّ حتى أنه صار شخصاً مختلفاً هنا. أخذ آدم سيارة من الكراج، الذي كان يضمّ مجموعة من السيارات الكلاسيكية، والسيارات الرياضية، وقاد بنا إلى مصنع بازل على بعد عشرين دقيقة، وهو يشير إلى المعالم والأماكن التي ترتبط بقصص من طفولته.

قال وهو يفكر:

- كان من بين أفكاري ترتيب جولات لزيارة المصنع. نستطيع

أن نجني أرباحاً من وراء ذلك. وقد عرضت الفكرة على بابا، لكنه لم يتحمّس لها كثيراً.

سألته:

- وماذا كانت أفكارك الأخرى.

كانت ماري قد ذكرت أن لديه أفكاراً جيدة، وهو ما أثار دهشتي. كان قد أعطاني انطباعاً أنه غير معنيّ على الإطلاق بهذا الـ«بيزنس»، لكن عندما أتيت إلى هنا تفتحت عيناي على حقيقة أنه معنيٌّ، فقط كان والده قد قَفَله مرة بعد مرة.

- حديقة للمغامرات.

- حقاً؟ مثل عالم ديزني؟

- ليس لهذه الدرجة، ولكن ربما حديقة للحيوانات الأليفة، وملاعب، ومطعم، هذا النوع من الأشياء. إنهم يفعلون ذلك في أماكن أخرى. أعرف ذلك، وفكّرت أنه سيكون أمراً جيداً للمنطقة بأكملها.

- وماذا قال والدك؟

اكفهرّ وجهه ولم يردّ. شغّل الإشارات الضوئية وهو يدخل بالسيارة إلى المصنع في المكان المخصّص لسيارة السيد بازل - والذي أصبح الآن مخصّصاً لآدم، لكن كانت ثمة سيارة متوقفة هناك بالفعل.

- ما هذا بحقّ الجحيم؟

- سيارة مَن هذه؟

- ليست عندي أية فكرة.

أوقف السيارة في مكان آخر ومضينا في طريقنا إلى الداخل، وعلى وجه آدم تعبير قلق وكأنما ثِقل العالم قد نزل عليه مرة ثانية،

وعليه هو فقط. راودني شعور أنني لن أحظى بجولتي عندما رأيت ما كان يحدث في المكتب. كان ثمة اجتماع يجري. طاولة كاملة مشغولة برجال يرتدون البدلات، ولا وجود لماري، وثمة امرأة غريبة ترتدي بدلة محاطة بالمرافقين. نظرت المرأة من شباك غرفة الاجتماعات، ورأت آدم فاستأذنت في الخروج من الغرفة. تابعتها كلّ الرؤوس، ثم استدار المجتمعون وهمسوا لبعضهم البعض في الآذان قبل عودتها.

- آه، آدم، لطيف منك أن تنضم إلينا.

قال، وهو مصدوم:

- لافينيا. ماذا تفعلين هنا؟

لم يتعانقا، لم يكن هناك دفء.

- قالت لي العصفورة إنّ بابا مات. ألم تسمع؟

حدق فيها بغضب.

قالت بثبات:

- أنا أدير الشركة يا آدم، ماذا تظنّني أفعل!

- أنت تعيشين في بوسطن. لا يمكنك إدارة الشركة.

- سنعود. موريس وافق على مواجهة العواقب، وهو يتعاون مع الشرطة، أو على الأقل سيفعل ذلك. لدينا بضعة أمور علينا حسمها أولاً

ابتسمَت بشفتين مطبقتين، ابتسامة لم تصل إلى عينيها.

اتهمها قائلاً:

- تقصدين أنك أقنعته بتحمّل العواقب؟

نظرت إليّ.

- هل هذه فتاة جديدة أم أن ماريا غيرت أحمر الشفاه الذي تستخدمه أخيراً؟

تجاهل سؤالها:

- ماذا تظنين نفسك فاعلة يا لافينيا؟

- الجميع يعرفون أن بابا أرادني أن أتولى القيادة، فها أنا أتولاها. أنا أطيع رغباته وحسب. والله يعرف أنك لن تفعل ذلك.

- لقد ترك الوظيفة لي.

- آدم، دعك من الدراما. لقد عدت الآن وكل شيء سيكون تحت السيطرة، بإمكانك إذاً أن تمضي إلى دبلن وتتابع حياتك. الجميع يعرفون أنك لا تريد أيّ صلة بهذه الشركة.

نظرَ إليها ببرود.

- في ذلك أنتِ مخطئة.

وشعرتُ بالاتجاه يتغير، وفي تلك اللحظة سكن كل شيء في محله وعرفتُ تلك المرة أنني على الطريق.

في تلك الليلة رقدنا في غرفة النوم نفسها، أنا على السرير الكبير، وآدم على الكنبة عند قدمي. كنت أكتم نفسي وأنا أنصت إلى أنفاسه، التي كانت ثابتة ومنتظمة. أصغيت وكلي أمل، أمل أنه سيظلّ يتنفس طويلاً، أن قلبه سيظلّ يخفق. كنت وكأنما اتلذّذ بصوته حياً. أصبح هذا الصوت مريحاً لدرجة أنني استسلمت بدوري وبدأت أتنفس بسهولة. لم أكن واثقة مَن منّا راح في النوم أولاً، لكن صوت أنفاسه بالقرب مني حملني برفق إلى نوم هانئ للمرة الأولى منذ وقت طويل جداً.

21

كيف تحفر حفرة إلى الجانب الآخر من العالم

- لقد ذهب أخونا إلى مستقره لينعم بسلام المسيح. فليستقبله الرب على طاولة أطفال الرب في السماء. وإيماناً وأملاً في الحياة الأبدية، دعونا نساعده بصلواتنا.

كان الحضور واقفين في مدافن بازل في تريغلاس - «تير دها غلاس»، بمعنى أرض النهرين - في الشاطئ الشمالي الشرقي حيث يصبّ نهر شانون في بحيرة ديرغ. كانت الدنيا كلها قد جاءت لجنازة دِك بازل؛ ليس لكونه رجلاً واسع الشعبية، لا، كانوا يعرفون أن ذلك ليس صحيحاً، ولكن للخير الذي جلبه للمجتمع، للمجتمعات، للبلاد. فبوجود مصنع يوظّف أكثر من ثمانمئة شخص، صارت الكثير من الأسر تتساءل قلقة على وظائفها ووظائف أولادها الآن بعد وفاة السيد بازل. كانت مئات الأسر تعيش على الرواتب التي يدفعها بازل. ربما كان رجلاً وقحاً، ومغروراً، وعدوانياً، ولا يفكر كثيراً في الصداقة، لكنه كان رجلاً مخلصاً، وطنياً، وُلد وتربّى في «نورث تيبيراري». ومع أنه كان يسافر حول العالم في طائرته الخاصة، كان يعود دائماً إلى المكان الذي أحبَّه ويفعل كل ما بوسعه لمساعدة ناسه وقراه وبلداته. ووسط الركود الاقتصادي، ومع زيادة نفقات

الصناعة، والعمال، والطاقة، أصرَّ على مواصلة الإنتاج في هذا المكان الذي يحبه، حين كان بإمكانه توفير النفقات بالانتقال إلى ما وراء البحار. الآن كان مستقبل المصنع على المحك. كان لذلك بازل أسبابه الشخصية للاحتفاظ بشركته بالقرب منه، وصار السكان يخشون أنّ مَن سيأتي بعده، أياً مَن كان، لن يشعر بالولاء نفسه للمنطقة، خاصة إذا تولى القيادة أحد ابنيه، لافينيا وآدم، اللذين كانا يقفان بجوار القبر، وقد بدا البرود على كليهما - وواحد منهما فقط من أثر برودة الطقس الشديدة. طفلاه اللذان رحلا عن «نورث تيبيراري» في أول فرصة؛ واحدة شغلت صفحات المجتمع بترتيب حفلات خيرية وولائم جذابة، وهي ترتدي فساتين من أشهر التصميمات، والآخر رحل بعيداً عن أعين الناس، ينقذ آخرين في حرس السواحل الأيرلندي. واحد طيب، والأخرى أنانية. كانوا يتمنّون آدم، لكنهم كانوا يعرفون أنّ لافينيا هي العقل العملي، رغم الاتهامات بتورّطها في عملية نصب. الآن سرت شائعة أن طفليها قد التحقا بمدرسة داخلية قريبة، وهو ما يصبّ الزيت على النار. ثم كان هناك ابن عمهما نيجل، المختبئ بين البدلات السوداء بجوار القبر، والذي، فور توليه قيادة شركة بارثولوميو، أغلق المصنع الأيرلندي ونقل الإنتاج إلى الصين. كان الجميع يأملون، إذا أصبحت له يد في الأمر واندمجت الشركتان، كما ترجّح الشائعات، ألا يغلق مصنع تيبيراري بدوره. كانوا يضعون أنظارهم عليه. كانوا يراقبون وجوه الجميع، باحثين عن إشارات عمّا سيأتي، حتى جاءت اللحظة التي يحني فيها الحضور رؤوسهم لإتمام الدفن. كان التغيير على الأبواب، كلهم عرفوا ذلك وكانوا يهيئون أنفسهم. كان الأمر وشيكاً ومحتوماً.

شعرتُ بالارتباك، وأنا أقف بين لافينيا وآدم عند القبر. كانت لافينيا تضع نظارة سوداء بعدستين كبيرتين وترتدي معطفاً أسود بدا وكأنه يعود إلى العصر الفيكتوري. وكان شعرها الأشقر مصبوغاً ومصففاً على أكمل وجه، وجبهتها خالية من التجاعيد بصورة غير طبيعية، وشفتاها مكتنزتين بلطف ومحقونتين حديثاً. وبدا زوجها أكبر منها كثيراً. كانا في السن نفسه، لكن المشكلات الأخيرة وخطر السجن المحدق كان قد خلّف آثاره عليه، فصار يبدو مسناً، بشعر رمادي ووجه شاحب. ووقف الطفلان بجانبه، في العاشرة والثامنة، ووجهاهما لا ينبئان عن كثير حزن على جدهما المحبوب، إذ كان الرجل غير موجود بالنسبة لهما.

من بعيد استمرت الكاميرات في الطقطقة، كليك كليك كليك. كان مصورو الـ«باباراتزي» من مطاردي المشاهير، ومصورو الصحف، يتنافسون على أفضل صورة لرجل الأعمال سيئ السمعة الذي عاد إلى أيرلندا لدفن حميّه. كان أمثال لافينيا يخيفونني. باردة، خاضعة لحسابات المصالح، متسرّة عاطفياً، لا تُهزم، كانوا مثل صراصير موهبتهم في قدرتهم على البقاء، حتى إذا تطلب ذلك تدمير خصومهم في هذه الأثناء، حتى إذا كان هؤلاء الخصوم هم الأقرب لهم والأعز إليهم. تفكيرهم غير طبيعي، «حبهم» غير طبيعي. والآن بعد أن رأيتها على الطبيعة، أصبحتُ أشارك آدم قناعته بأن شقيقته متورطة في عملية النصب، لكنها استطاعت بطريقة ما إقناع زوجها بأن يقرّ بالخطأ ويبرئها هي. كانت حركة محسوبة ليس لها علاقة بالذنب والتوبة ولها كل علاقة بالحظر القانوني المفروض على نصيب لافينيا من الميراث حتى تعمل لحساب الشركة لمدّة عشر سنوات.

كنت قد قرأت مقطوعتي كما طلب مني آدم وعندما انتهى القداس رفعت لافينيا ذقنها ونظرت لي بازدراء.

- قراءة جميلة. مؤثرة جداً.

قالتها هازئة، كما لو أن فكرة تأثرها بأي شيء بخلاف أمر قضائي قد رفِّهت عنها.

لم تكن الجنازة، واليوم بأكمله، أكثر من مصدر ارتباك لي. كان بعض الحضور قد تجاهلوني بوقاحة، بينما قدّم لي آخرون مواساتهم على فقدٍ لم أشعر به. كانت نساء عجائز بوجوه متعاطفة ممصوصة قد ضَمَمْنَ يدي وعصرنها في محاولة لنقل تفهمهن لألمي، بينما كان الألم الوحيد الذي شعرت به هو ألم أصابعي ومفاصلها بفعل قبضاتهم الحديدية.

وفيما كان النعش يوارى الثرى شعرتُ بتحول في ثقل جسد آدم، شعرتُ بكتفه يهتز، ويده ترتفع إلى وجهه. عرفت أنه كان يريد تلك اللحظة لنفسه لكنني لم أستطع أن أكبح نفسي، مددتُ يدي وأمسكتُ بيده الحرة. نظر إليَّ مندهشاً فأدركتُ أنّ عينيه جافتان تماماً. كان يبتسم ملء فمه، ويده تحاول أن تغطي ابتسامته. نظرتُ إليه مصدومة، وعيناي تتسعان، أنبّهه أن يتوقف. سيراه الناس وستُصوب الكاميرات ناحيته، لكن معرفة ذلك جعلتني أضحك بدوري. أضحك فيما كان نعش والده يوارى الثرى ويهال عليه التراب. لا بد وأن تلك كانت أكثر لحظة غير لائقة في حياتي بأكملها، لكن ذلك جعلني أعاني أكثر في كبت ضحكتي.

- ما الذي حدث؟

سألتُه فور أن بدأ الجمع يتفرّق وأصبحنا أحراراً في شقّ طريقنا عبر المعزِّين إلى السيارة. لم يكن هناك «ليموزين» للعائلة؛ إذ لم

تكن ثمة نية لدى لافينيا وآدم أن يتشاركا في سيارة. كصاحبة المُصاب، استقلت لافينيا السيارة الأمامية مع موريس والطفلين، بينما ركبت أنا وآدم مع بات، الصامت كعادته، سيارة الوالد، التي أصبحت سيارة آدم الآن رسمياً، وإن كانت لافينيا قد أعلنت نيتها للطعن في ذلك.

- أنا آسف، كانت فقط فكرة مرَّت برأسي.

ابتسم ثانية، وضحكة تفور تحت السطح.

- لن أتظاهر بالحزن يا كريستين. أقصد، أنا حزين حقاً أنّ والدي قد توفي. إنه يوم حزين، وأمر حزين، لكنني لن أهيم على وجهي، وأتصرف وكأن عالمي قد انهار. ولن أعتذر على ذلك. صدّقي أو لا تصدقي، بإمكانك أن تكوني إنساناً طبيعياً جداً بعد وفاة شخص عزيز.

فوجئت بإظهار القوة ذلك.

- أخبرني إذن، ما الذي وجدته مضحكاً لهذه الدرجة وهم يوارون جثمان أبيك الثرى إلى الأبد؟

عضّ على شفته، وهز رأسه، وابتسامة تتكون على وجهه ثانية.

- كنت أحاول أن أتذكّره. كنت أحاول أن أستدعي شيئاً مؤثراً، لحظة جمعتنا معاً. إنه أمر جلل، أن تشاهدي والدك وهو يوارى الثرى، كنت أحاول أن أشعر بالفقد، أن أكرّمه. فكرت أن استدعاء ذكرى لائقة سيكون أمراً مناسباً للحظة، أمراً محترَماً.

ضحك ثانية.

- لكن كلّ ما استطعت التفكير فيه كان المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها معاً. المرة الأخيرة التي رأيته فيها، تعرفين، في المستشفى.

- بالطبع أتذكر، فقد كنت هناك.

- لكنك لا تعرفين. بعدما أطلَق الأمن سراحي واصطحبوا الجميع إلى خارج الغرفة، تكلمنا أنا وهو. كنت أريد أن أتأكد من أنه يعرف أنني لم أفعل ما اتّهمني به نيجل. كان مهماً بالنسبة لي أن يعرف ذلك.

أومأتُ برأسي. ابتسم.

- لم يصدّقني، وقال...

بدأ يضحك ثانية فلم أستطع أن أمنع نفسي من مشاركته.

- قال «أنا لا أحب هذه العاهرة. على الإطلاق. ولا أدنى درجة».

كان ينطق الكلمات بالكاد، إذ كان يضحك بقوة شديدة. وعلا صوته وهو يدفع كلماته الأخيرة:

- ثم غادرتُ.

توقفتُ عن الضحك، إذ لم أعُد أرى الأمر مضحكاً.

- عمَّن كان يتكلم؟

استطاع أن يتوقف عن الضحك لوهلة لكي يُجبر الكلمات على الخروج من فمه، لكنه سرعان ما انهار ثانية في نوبة هيستيرية:

- أنتِ.

استغرق الأمر برهة لكي أفهم الجانب المضحك، وكلما بقيت من دون أن أضحك، كلما ازداد هو ضحكاً، كلما ازداد هياجه، وكلما أصبحت ضحكته مُعدية أكثر بالنسبة لي. اضطرّ بات إلى الدوران حول الضيعة لعشر دقائق حتى يستطيع آدم أن يتمالك نفسه قبل أن ينضم إلى المعزين، وفي ذلك الوقت كانت عيناه قد التهبتا من الضحك وبدا كما لو أنه كان يبكي.

قلت، وأنا أمسح عينيّ ونحن نقترب من درج القصر:

- أنا لا أفهم حقيقة ما المضحك جداً في هذا الأمر.

كنت أسمع دمدمة المحادثات المكتومة المهذبة في الداخل. وكان الأمر وكأن «نورث تيبيراري» بأكملها قد جاءت، وكان موفد رئيس الوزراء حاضراً؛ كان والدي محقاً بشأن علاقات آل بازل.

توقف آدم على الدَرَج ورمقني بنظرة، نظرة خاصة جعلت معدتي تضطرب. بدا وأنه على وشك قول شيء ما، لكن الباب انفتح على وسعه واستقبلتنا مورين بنظرة مذعورة.

- آدم، رجال الشرطة في غرفة الاستقبال.

قال آدم إنه كان يسميها «غرفة الأخبار السيئة» عندما كان صبياً، وقد التصق الاسم في رأسه. فالغرفة ذات الجدران المغطاة بالخشب كانت بهو البيت الأصلي، قبل أن يتوسع المبنى ثلاثة آلاف مرة في جميع الاتجاهات. كانت الغرفة التي عرفَت فيه أمه أنها مصابة بالسرطان، وكانت الغرفة التي ماتت فيها، وبينما كان المعزّون مجتمعون في الغرفة بمناسبة موت دِك بازل، كانت الغرفة التي اعتقلت فيها الشرطة موريس مورفي، زوج لافينيا، قبل أن تصطحبه إلى سيارة الدورية وتقوده إلى مركز الشرطة لاستجوابه، وكانت الغرفة التي ستعرف فيها الأسرة لاحقاً أنه قد ووجه بأحد عشر اتهاماً بالسرقة وثمانية عشر اتهاماً بالنصب بمبلغ إجمالي قدره خمسة عشر مليون يورو. ولم تُضف الملايين الخمسة الباقية إلى الحسبة إذ كان السيد بازل قد رفض توجيه أية اتهامات، وقد مات الآن ودُفن، وصمتَ إلى الأبد.

22

كيف تفض منازعات الوصية والميراث بثماني طرق بسيطة

- لا أفهم سبب وجودها هنا.

قالتها لافينيا، بعنقها الممدود وذقنها المرفوعة وكأنها تضع دعامة غير مرئية تمنعها من اتخاذ وضعية الإنسان العادي.

تململتُ في الكنبة الجلدية. كنت أتفق تماماً مع لافينيا؛ أنا أيضاً لم أكن أفهم سبب وجودي هناك. شعرت أنه من غير اللائق أن أوجد في شأن خاص مثل هذا - قراءة وصية دِك بازل - لكن آدم كان قد أصرّ على حضوري وأنا سايرته حتى وأنا لا أعرف السبب. كل ما كنت أعرفه أنه كان قلقاً أن يشعر برغبة لا تقاوم في القفز من النافذة أو طعن نفسه بفتاحة الخطابات أو إصابة نفسه بقضيب المدفأة الذي يعود إلى القرن الثامن عشر إذا لم يعجبه ما يسمعه عند قراءة الوصية. كنت لا أزال غير متأكدة ما الذي أراد سماعه بالضبط؛ وأظنه هو الآخر لم يكن متأكداً. لكنني افترضت، على أية حال، أنّ أسوأ ما يمكن أن يقع لآدم هو أن ينتهي كرئيس لمجلس إدارة شركة بازل، وهو السبب الذي جعلني أفكر في طرق لإعفائه من هذا الواجب، لكن فور ظهور لافينيا في الصورة، أعلن فجأة أنه يريد

الوظيفة. الآن، كان كلّ همه أن تبتعد لافينيا عن الشركة. وكأنه أدرك، لحظة ظهورها، أنه مهتم بالأمر. لم تكن المسألة مجرّد واجب، أو رغبة في الارتفاع إلى مستوى المسؤولية وفعل ما يجب فعله، كان الأمر أعمق من ذلك. كانت شركة بازل في قلبه. كانت جزءاً من تكوينه مثل لحمه وعظامه. ولم يدرك هذا الأمر إلّا عندما هُدِّد بفقدها.

همستُ لآدم:

- الأفضل أن أغادر.

- ستبقين.

قالها بحسم، من دون أن يزعج نفسه بخفض صوته. واستدارت لنا كلّ الرؤوس.

جلسنا جميعاً متململين: أنا وآدم على كنبة جلد بنية، وعلى الجانب الآخر لافينيا وموريس، الذي استطاع محاموه إخراجه بكفالة قبل نحو ساعة واحدة. بدا وأنه على حافة الإصابة بجلطة في الشريان التاجي؛ كانت عيناه حمراوين وملتهبتين، ووجهه متهدِّلاً من الإرهاق، وبشرته جافة ومليئة بالبقع.

كان سبب التوتر الذي سيطر على الجميع هو أنّ آدم كان يعتقد قبل ذلك، وقيل له، أن الوظيفة ستذهب إليه، لكن الآن مع عودة لافينيا، الشقيقة الكبرى، أصبح لها الأولوية. كما أن لا أحد كان يعرف ماذا قد تكون فعلت لتأمين مستقبلها ووالدها على فراش الموت. وهكذا، أصبح آدم الآن يريد الوظيفة ولافينيا تريدها أكثر من أيّ وقت مضى.

تنحنح المحامي، آرثر ماي. كان رجلاً في السبعين من عمره بشعر رمادي طويل ممرّج، مصقول ومدسوس وراء أذنيه، وبلحية

شبيهة بلحية الفرسان الثلاثة في صورتهم المميزة. كان قد زامل دِك بازل في المدرسة الداخلية، وكان أحد القلائل الذين يثق فيهم. سادت لحظة صمت راحَ فيها يجيل ببصره ليتأكد من انتباه الجميع، ثم بدأ يقرأ الوصية بصوت واضح، حاد، وسلطوي أظهر للجميع أنه رجل ليس من السهل أن تعارضه. عندما وصل إلى الجزء حيث، تماشياً مع رغبات ريتشارد بازل والتزاماً بوصية الراحل بارثولوميو بازل ورغبته الأخيرة، يكلَّف آدم ريتشارد بارثولوميو بازل بتولي قيادة شركة بازل ويصبح رئيساً لمجلس إداراتها، قفزت لافينيا ناهضة من على الكنبة وصرخت. ليس بكلمات محدّدة، وإنما بنحيب مشؤوم، وكأنها امرأة اتُّهِمت بممارسة السحر ورُبطت إلى عصا الحرق.

ثم غمغمت، وقد تماسكت فجأة من جديد:

- مستحيل! آرثر، كيف هذا!

استدارت وأشارت بإصبع اتهام إلى آدم.

- لقد خدعته! لقد خدعت رجلاً يُحتضر.

قال آدم ببرود:

- لا يا لافينيا، هذا ما حاولتِ أنت فعله.

كان هادئاً إلى أقصى درجة. لم يَسَعني أن أصدّق ذلك؛ فها هو، في سلام تام مع القرار والدور الذي سيلعبه، بعد أن كان قبل نحو أسبوع قد هدَّد بالقفز من فوق جسر.

- هذه العاهرة لها صلة بالأمر!

أشارت بإظفرها المطلي تجاهي. دقّ قلبي بعنف لدى تحوي فجأة إلى مركز الانتباه في فوضى عائلية أخرى.

- دعيها وشأنها يا لافينيا. لا صلة لها بالموضوع.

- لطالما كنت هكذا يا آدم - تسير وراء فرج أي امرأة ترافقها. باربارا، ماريا، والآن هذه المرأة. طيب، لقد رأيت ترتيبات غرفة النوم اللطيفة وأستطيع أن أفترض ما الذي يجري.

ضيَّقت عينيها وهي تنظر إلي، فانكمشتُ في مكاني.

- ماذا، ألن تنام معك إلّا بعد الزواج؟ إنها تريد أموالك يا آدم. أموالنا - ولن تحصل عليها لا تظني أنك قادرة على خداعي أيتها العاهرة الصغيرة.

- لافينيا!

انفجر آدم في هذا الصوت الغاضب المرعب. انتفض ناهضاً من على الكنبة وكأنه يريد أن يقطع رأس أخته ويلتهمه. وعلى الفور سكتت لافينيا.

- السبب الذي جعل أبي يترك الشركة لي هو أنك سرقت منه خمسة ملايين. تتذكرين؟

- لا تكن طفلاً!

قالتها وهي تشيح بوجهها، غير قادرة على النظر في عينيه.

- لقد أعطاها لنا لكي نستثمرها.

- آه، الآن أعطاها لنا؟ لقد كان على موريس المسكين أن يواجه العواقب بمفرده، أليس كذلك يا موريس؟

إذا كان موريس قد بدا من قبل كرجل محطم، فقد بات الآن أقرب إلى الانهيار التام.

واصل آدم:

- صحيح يا لافينيا. الوالد أعطاكِ النقود لاستثمارها - في الفيلا الخاصة بك في نيس، في توسيع بيتك، في كلّ فساتين السهرة

الأنيقة التي اشتريتها لكي تظهري في المجلات وتجمعي الأموال من أجل أعمال خيرية أصبحتُ أشكّ في وجودها أصلاً.

قال موريس بهدوء، وهو يهز رأسه وينظر إلى الأرض وكأنه يقرأ الكلمات من على السجادة.

- لم تكن الأمور كذلك. لم تكن الأمور كذلك على الإطلاق.

الأرجح أنه ظلّ يكرر هذه العبارة بلا توقف منذ قبضت عليه الشرطة من أجل استجوابه. رفع عينيه إلى المحامي، وصوته لا يزال مقهوراً بدرجة تدعو للقلق:

- ماذا عن الطفلين يا آرثر؟ هل ذكرهما في الوصية؟

تنحنح آرثر، ووضع نظارته، سعيداً بالعودة إلى الموضوع.

- بورشيا وفِن يحصلان على ميراثهما وقدره مائتان وخمسين ألفاً لكلّ منهما في عيدَي ميلاديهما الثامن عشر.

انتصبت أذنا لافينيا.

- وماذا عني؟ ابنته؟

كانت قد خسرت الجائزة الكبرى المتمثلة في إدارة الشركة، ولكن ماذا خلف الباب رقم اثنان؟ ربما لا يزال بإمكانها أن تنقذ نفسها؟

أجابها آرثر:

- ترك لكِ بيت العطلات في كيري.

حتى آدم فوجئ بذلك. فمن التعبير الذي علا وجهه بدا عليه التردّد بين أن يجد ذلك مسلياً أو أن يشعر بالذنب لأخته التي أرادت وأرادت الكثير وفي النهاية وقعت في حبائل مخاوفها وفقدت ئل شيء.

صرخت:

- البيت حفرة أوساخ. حتى الفأر لن يقضي عطلة هناك، ناهيك عن الحياة في هذه المزبلة.

نظر آرثر إليها وكأنه قد رأى كلّ ذلك قبل أن يحدث وتعب من هذا التكلف.

- وماذا عن هذا البيت؟

قال:

- تُرك لآدم.

ردّت بعصبية:

- هذا عار لعين. وصية جدي واضحة للغاية: في حال موت بابا، تذهب الشركة لي أنا.

خلع آرثر ماي نظارته ببطء.

- إذا سمحتِ لي أن أشرح... جدك قال إنه بعد موت والدك تذهب الشركة إلى أكبر الأبناء سناً، وهذا بالفعل يعني أنتِ يا لافينيا. لكن كان هناك شرط، ربما لم تعلمي به، يقول إنه إذا أُدين أكبر الأبناء سناً في جناية أو جريمة، أو أعلن إفلاسه، تذهب الشركة إلى الأخ التالي.

انفتح فمها على وسعه.

تابع آرثر، وهو يحدجها بنظرة طويلة من عينيه الزرقاوين الراقصتين، ما جعلني أفكر أنه يستمتع بالأمر.

- وأظن، بعيداً عن الاتهامات الجنائية وأي خطوات أخرى قد تلي ذلك، أنكِ أعلنتِ إفلاسك.

قفز موريس على قدميه، وقد دبّت فيه الحماسة فجأة.

- يا إلهي يا لافينيا. لقد قلتِ إن ذلك سيكون جيداً. قلتِ إنّ

لديك خطة. إن ذلك سينجح. ولا أرى أيّ نجاح لعين، فهل ترين أنت؟

كان واضحاً من ردة فعل لافينيا أن ذلك كان سلوكاً نادراً من جانبه.

قالت، بصوت هادئ محسوب:

- طيب يا عزيزي. أفهم ذلك. لقد تفاجأتُ أنا أيضاً. بابا أعطاني كلمته، لكنني أعتقد الآن أنه نصب لي شركاً. قال لي أن أعود إلى البلاد. دعنا نذهب إلى مكان ما لنتكلم عن هذا الأمر، فالناس يسمعوننا.

- لقد قضيت اليوم كله، اليوم كله، أتعرض للمضايقة والاستجواب مرة بعد مرة ـــ

قاطعته بعصبية:

- طيب يا حبيبي.

- هل تعرفين العقوبة التي قد أنالها حسبما أخبروني؟

- إنهم يحاولون أن يخيفو ـــ

ارتعش صوته:

- عشر سنوات. متوسط العقوبة عشر سنوات. عشر سنوات!

صرخ في وجهها، وكأنه رأى أنها لن تفهم أهمية ما يقوله لها

- أعرف يا عزيزي.

- على جريمة لم أرتكبها بمفردي ـــ

ابتسمَت بعصبية، ومدّت يدها إلى ذراعه في محاولة لاصطحا به إلى خارج الغرفة.

- طيب يا عزيزي، طيب. واضح أن بابا حاول أن يضحك ضحكته الأخيرة.

ارتعش صوتها وهي تقول ذلك، ثم أضافت وقد استعادت تماسكها تماماً:

- لكن لا بأس، أنا أيضاً أمتلك حسّ الدعابة وستكون الضحكة الأخيرة لي أنا. سأطعن في هذه الوصية.

قال آدم:

- ليس أمامك أي أساس تستندين إليه. اتركي الأمر يا لافينيا.

كنت بالكاد أعرف الرجل الذي سبق ورأيته يرتعش فوق الجسر، الرجل الذي ظلّ صامتاً في وجود والده، الذي كان قد تراجع إلى قوقعته فور أنّا اجتزنا البوابات إلى بيته. كذلك لافينيا، فيما يظهر، لأنها راحت تنظر إليه وكأنه ممسوس، لكن ذلك لم يمنعها من توجيه إهانة أخيرة قاضية:

- أنت لا تعرف أساسيات إدارة الأعمال. أنت تطير بالمروحيات، بحق السماء. أنت قاصر تماماً وعاجز عاطفياً عن التعامل مع ضغوط إدارة العمل. سوف تخرب الشركة يا آدم.

حاولت أن تثبت عينيها في عينيه، لكن ذلك لم ينجح. في النهاية انطلقت خارجة من الغرفة وموريس في ذيلها، وقد أنهكت قواه، وراح يتبعها مثل ظلّ.

قال آدم:

- آسف على ذلك يا آرثر.

نهض آدم وبدأ يوضب حقيبته:

- لا تهتم يا صديقي القديم.

ثم اعترف، وفي عينيه بريق شقاوة:

- لقد استمتعتُ بذلك.

رنّ هاتف آدم. علا وجهه تعبير قلق وهو ينظر إلى الشاشة، فاستأذن ومضى نحو زاوية الغرفة ليستقبل المكالمة.

مال آرثر عليّ وقال بصوت خفيض:

- أنا لا أعرف ما الذي تفعلينه مع هذا الرجل، لكن لا تتوقفي - منذ وقت طويل لم أرَ أحداً يتكلم مع لافينيا بهذه الطريقة، ولا أتذكر أنني رأيت هذا الشاب بهذا الهدوء وهذه الثقة بالنفس. وهذا يليق به.

ابتسمتُ، وقد شعرت بالفخر بآدم وبما صار عليه، في أقل من أسبوعين. ولكن في الوقت نفسه كان لا يزال أمامه طريق طويل - ولم أكن أفكر فقط في شركة بازل والضغوط التي سوف تجلبها. لم تكن مشكلات آدم من النوع الذي يختفي بين ليلة وضحاها، ولا في أسبوعين. كنت آمل فقط أن يكون في مكان أفضل الآن، ومعه الأدوات التي تساعده، وإلا أكون قد فشلت.

قال آدم، وهو يغلق الخط:

- آرثر، يبدو أنك ستنشغل لبرهة. كان هذا نيجل. يبدو أنّ لافينيا عقدت معه صفقة بالفعل لدمج بارثولوميو مع بازل وبيع البضاعة كلها إلى السيد مو.

سأل آرثر، مندهشاً:

- شركة الآيس كريم؟

أومأ آدم برأسه.

- كانوا يعملون على مسودة التفاصيل وكانوا مستعدين لإعلان الأمر فور أن تحصل لافينيا على حقّ الإدارة.

فكر آرثر في الأمر، ثم أطلق ضحكة.

- المؤكد أنّ والدك ضحك عليها. وكان سعيداً جداً بهذا أيضاً.

ثم أصبح أكثر جدية.

- لقد تصرفَت من دون أية سلطة على الإطلاق. لافينيا ليس لها دور في شركة بازل، لن يصمد الأمر... إلّا، طبعاً، إن كنت ترغب في ذلك؟

هزّ آدم رأسه. وابتسم آرثر.

- نيجل سيغضب كثيراً.

- أنا معتاد على إغضاب آل بازل.

- الأغلب أنك لن تهتم بسماع ذلك يا آدم، لكن والدك كان سيفخر بك. لم يكن ليخبرك بالطبع، فقد كان سيفضل الموت بدلاً من ذلك - وقد مات بالفعل، لكن خذها مني، يا صبي، كان سيفخر بك. لقد أخبرني بأنك لا تريد الشركة، ولكن ـــ

رفع يده ليوقف آدم عن شرح موقفه.

- أشعر أنك يجب أن تعرف أننا عملنا بجدّ على مدار الأشهر الأخيرة، من أجل صياغة هذه الوصية. كان من المؤكد أنه يريدك أنت على دفة القيادة.

أومأ آدم برأسه في امتنان.

- سوف تفتقده يا آرثر. أصدقاء منذ كم سنة؟

ابتسم آرثر بحزن:

- خمس وستون سنة.

ثم أضاف ضاحكاً:

- مَن أحاول أن أخدع؟ سأكون الوحيد الذي يفتقد هذا الوغد العجوز.

نظرتُ إلى آدم، يداه في جَيْبَي بدلته الأنيقة، واقفاً بجوار المدفأة القديمة في القصر، وفوق رفّ المدفأة صورة لجده، الشبه بينهما مذهل. كان لذيذاً. التقت عينانا فبدأ قلبي يدق. انقلبت معدتي وتلوَّت، لم أستطع أن أرفع عيني عنه وتمنّيت ألّا يستطيع قراءة مشاعري.

- سألتِني ماذا كنت أفعل هنا، وأنا صبي، عندما أكون وحيداً.

أومأت برأسي، سعيدة أنه هو مَن تكلم أولاً، وغير واثقة في قدرتي على قول أي شيء.

ألقى نظرة على ساعة يده.

- إنها الظهيرة. أمامنا أربع ساعات أخرى من النور ثم يمكن أن نتحرك عائدين إلى دبلن. هل يناسبك ذلك؟

أومأت برأسي. كلما طالت فترة احتفاظي به لنفسي، كان ذلك أفضل.

في أربع ساعات، أخذت فكرة عن حياته في «أفالون مانور» وكيف كانت. خرجنا إلى البحيرة شبه المتجمّدة في مركب، وأكلنا وجبة كانت مورين قد أعدّتها لنا: سندويتشات خيار وعصير برتقال طازج، لأن هذا ما كان يتناوله. ثم استقللنا عربة غولف قادها بنا حول الضيعة بمساحتها البالغة ألفا فدان. ثم لعبنا الرماية على الأقراص الخزفية، وحاولنا مع الرماية بالقوس والسهم، وأراني أين كان يذهب لصيد السمك. لكن الوقت الأطول قضيناه جالسين في بيت القوارب، متلحفين بالبطانيات، نشرب ويسكي ساخن من «بَطْحَتين»، ونشاهد الشمس وهي تغرق في البحيرة.

تنهد، تنهيدة متعبة ثقيلة.

نظرتُ إليه.

- هل سأتمكن من فعل ذلك؟

دار عقلي وسط تشكيلة من الكلمات والعبارات من كتب التفكير الإيجابي الخاصة بي، لكنني في النهاية أوقفت نفسي، واخترت أن أكون بسيطة:

- نعم.

- كلّ شيء ممكن معك، أليس كذلك؟

- معظم الأشياء ممكنة.

ثم أضفتُ موجّهة الكلام لنفسي أكثر:

- لكن ليس كل شيء.

- مثل ماذا؟

مثلي أنا وأنت.

23

كيف تهيئ نفسك للوداع

بدأ ظلام أواخر الأصيل ينزل وبعد سويعات سحرية، وإذ شعرت أنّ العالم ليس به إلا نحن الاثنان، ارتطمت بصخرة الواقع. كان الوقت قد حان للعودة إلى دبلن. قاد بات السيارة وسافرنا في صمت مريح. كانت هناك المحاولات العَرَضية للكلام، لكن في كل مرة نغوص في الصمت مجدداً كانت معدتي تتلوى. كلما اقتربنا من دبلن، كلما اقترب عيد ميلاده، وسرعان ما سيحين أوان الوداع. أسبوعان مفعمان بالمشاعر، انتهيا قبل أن ننتبه. الأسبوعان الأكثر قوة في حياتي، في الواقع، انتهيا هكذا. بالطبع يمكننا أن نتقابل ثانية، لكن الأمور لن تعود نفسها أبداً، لن تصبح أبدا بهذه الحميمية، وهذه القوة. وكان المفترض أن أشعر بالسعادة. كان المفترض أن أحتفل: عندما التقيته، كان يريد إنهاء حياته، والآن كان يبدو وأنه على الدرب السليم للعثور على طريقه. إذا كنت أهتم لأمره، فآخر ما كان يجب أن أرغب فيه هو أن يظلّ محتاجاً لي كما كان ساعتها.

انحرف بات عن الطريق السريع وتوجّه إلى وسط المدينة.

سألتُ، وأنا أعتدل في جلستي:

- إلى أين نذهب؟

أوضح آدم:

- حجزتُ غرفة في فندق موريسون. إنه قريب من «سيتي هول». ظننت أن ذلك سيكون أسهل.

شعرتُ بصدري يضيق وبذعر خفيف يستقر. كنا نفترق، كلّ في طريق. أنفاس عميقة. أنفاس عميقة. دخولاً وخروجاً. دخولاً وخروجاً. ربما أنا التي كنت أعاني من قلق الفراق لا هو.

- لكن وقتنا لم يحن بعد. ما زال أمامنا يوم آخر. إذا تصوّرت يا آدم أنك ستتخلص مني قبل إنهاء الأمر، فأنت مخطئ. سوف أنام على كنبتك.

ابتسم.

- أنا بخير.

وقد بدا بخير.

- طيب، ربما تكون محقاً، في هذه اللحظة، لكن كلينا يعرف كيف يمكن أن يتغير هذا الأمر في لحظة. ثم أن أمامك عملٌ أكثر ممّا تستطيع إنجازه وحدك. هذه هي البداية فقط، تعرف. وسوف تحتاج حقاً إلى الموافقة على زيارة معالج نفسي.

- أنا موافق.

قالها ببساطة. وبدا أنه يتسلى.

- الأمر ليس مضحكاً يا آدم. فمجيء ماريا إلى الحفل لا يعني أي شيء مؤكّد، ليس بعد. أنا مصرّة على البقاء معك حتى نهاية اتفاقنا.

ابتسم قائلاً:

- حجزت لنا غرفتين متصلتين. وشكراً على التذكِرة.

سكتُّ لبرهة، وقد شعرت بالحرج.

- آه. لم أكن أحاول أن أصيبك بالذعر، كنت فقط، تعرف، أحاول أن أهيئك لما قد يحدث.

ومرة أخرى أدهشني أنني أنا كنت من يحتاج إلى تهيئة.

عندما وصلنا إلى فندق موريسون، اصطحبنا الحاجب مباشرة إلى الطابق الأخير، حيث كان آدم قد حجز جناحاً يضم غرفتَي نوم.

قال الحاجب بفخر:

- المنظر الذي طلبته يا سيدي.

اتجهتُ إلى النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف ونظرتُ عبرها. كانت غرفتنا تطلّ على نهر ليفي، وأسفل نافذتنا مباشرة كان جسر هابيني، يسطع بجلال، وقد أضيء في هذه الليلة المظلمة بإضاءة خضراء سفلية، إضافة إلى مصابيحه الزخرفية الثلاثة التي تسطع على سطح الماء. نظرت إلى آدم، وأجراس إنذار تدقّ في رأسي، لكنني حاولتُ ألآ أستجيب لها.

سألني آدم:

- سعيدة؟

قلت بشقاوة:

- غرفتانا ليستا متصلتين.

ضحك:

- لا يبدو أنهما منفصلتين، يفصل بينهما مساحة لتناول الطعام، ومطبخ، وغرفة جلوس.

نظر إليّ، متسلياً:

- فكرتُ أنها ستعجبك.

كانت أكثر غرفة فاخرة دخلتها في حياتي، أنا التي لم أدخل سوى غرفتين شديدتي الأناقة، والاثنتان بفضل آدم.

أومأتُ برأسي:

- إنها رائعة.

باستثناء المنظر التي تطلّ عليه.

كان الوقت قد تأخر لدى وصولنا إلى الفندق ولم يكن أيّ منا يريد أن يفعل شيئاً سوى طلب خدمة الغرفة ومشاهدة التلفزيون على شاشة البلازما الهائلة، والجلوس على الكنبة الهائلة. كنت مرتاحة أكثر بوجود آدم جالساً لا يفعل شيئاً أكثر ممّا ارتحت في أي وقت مع باري. كانت الأمور بيننا سلسلة. وفوق ذلك كانت لديّ رغبة شديدة جداً، شديدة جداً جداً، أن أنام مع آدم. لم تكن تراودني إلّا رغبة ضعيفة لفعل ذلك مع باري. في البداية وجدتُ هذا التردّد حلواً، لكن مع مرور الوقت بدأ الأمر يحبطني؛ كنت أريد يدين ثابتتين، رجوليتين، واثقتين على جسدي وكنت أنزعج من درجة عدم الرضا التي أشعر بها بعد اللقاء، وهو يلهث بجانبي، مقطّع الأنفاس، بينما أنا لم أبدأ حتى. بالطبع كانت الأمور مختلفة في البداية، لكن سرعان ما أصبحنا مستقرين بشكل زائد عن الحدّ في روتيننا وحياتنا اليومية. ولم يكن قد مرّ على زواجنا عام حتى. ولم أستطع أن أتخيل كيف كان سيصبح حالنا بعد ثلاثين عاماً.

بينما آدم... الوجود في صحبة آدم كان يجعلني أشعر بأنني حية. كان آدم يسكرني بتأثيره. برغم الكنبة الهائلة، جلسنا متقاربين في المنتصف. كنت مثل تلميذة مفتونة. شعرت بجسدي يتجمّد وبرأسي تدور. إنه قريب مني! عندما احتكّ مرفقانا، اشتعلتُ شوقاً. لم أستطع التركيز على الفيلم. كنت سعيدة جداً، وخفيفة جداً،

وجسدي حار يطق شرراً في تلك اللحظة بحيث لا أستطيع التركيز. كذلك كنت واعية جداً بقربه مني، قدماه الحافيتان على كرسي الأقدام الذي نتشاركه، جسده مفتول العضلات في سروال رياضي و«تي شيرت»، مستلقياً إلى جواري، مسترخياً و، آه، جذاباً للغاية في الوقت نفسه.

كنت خائفة أن أبعد عينيّ عن التلفزيون، خائفة أن أنظر له تحسباً لأن يكون إحساسي ملحوظاً، لأن يكون واضحاً، لأن يُدرك أنّ المرأة التي وثق فيها لتساعده على الخروج من أعماق يأسه كانت تحلم خلسة بأن تخلع عنه بنطاله وأن تأخذه ها هنا على الكنبة. اختلست نظرة إليه من زاوية عيني: كان يحدّق في التلفزيون، مستغرقاً بالكامل، ويده تتحرك بصورة آلية من زبدية الفشار إلى فمه. ألقيت نظرة سريعة، ورأيت حبات الفشار وهي تسقط بين شفتيه المكتنزتين. ابتلعتُ ريقي. وارتشفتُ رشفة أخرى من مشروبي.

- سأذهب لآخذ حماماً.

قالها فجأة، وهو يضع الزبدية على مسند الأقدام. ثم غادر الغرفة. بدت الكنبة الهائلة أكبر حجماً الآن وقد صرتُ عليها وحدي، وشعرت بأنني بلهاء. أمسكتُ برأسي بين يدي، وضربت برأسي مراراً على ركبتي المرفوعتين وحاولت أن أذكّر نفسي أن الرجل الذي لدي هوس به كان قد تعهد بالانتحار إذا لم يستعد فتاته بحلول عيد ميلاده. فتاته. كان عيد ميلاده غداً. وآخر شيء يفكر فيه هو أن يمارس الجنس معي.

كنت بحاجة إلى العودة إلى دوري. كنت قد حدتُ عن الطريق على نحوٍ خطير. وضعتُ كأس الشمبانيا، وأنا أشعر فجأة بالحرج، وكأنني الفتاة الوحيدة في الحفلة لأن الحفلة انتهت ولم أدرك ذلك

إلّا الآن. اعتدلت في جلستي، وخداي يلتهبان حرجاً من الأفكار التي كنت أفكر فيها، من مقدار أنانيتي - ناهيك عن مدى خطورة ذلك، وآدم في حالته العقلية تلك.

مشيتُ على أطراف أصابعي، واتّجهت إلى غرفته وضغطت أذني على الباب. توقعت أن أسمع النشيج المعتاد، لكن كلّ ما سمعته كان الماء وهو يتساقط بصوت غير منتظم بينما يتحرّك جسده أسفل التيار المتدفّق فيتناثر في مختلف الاتجاهات. لا دموع. ابتسمت. كان مستعداً. وكنت أريد ألّا تُفسد ماريا الأمور عليه. مشيت بخفّة على السجادة الفاخرة إلى غرفتي، وخلعت ملابسي استعداداً للنوم، وطلبت رقم أميليا. كنت قد انغمست تماماً في حياتي على مدار الأيام الماضية حتى أنني لم أفكر حتى في مهاتفتها والاطمئنان عنها. رنّ الهاتف وأخيراً جاء صوت أميليا متقطّع الأنفاس.

- ماذا كنت تفعلين؟ تشاركين في ماراثون؟

قلتها مازحة بوهن، محاولة أن أقوّي نفسي من أجلها.

قهقهَت:

- لا، آسفة، أنا كنت، آه. آسفة. هل أنت بخير؟ أقصد، كيف حالك.

قطبتُ جبيني، وأنصتُّ بتركيز إلى الخلفية.

- هالو؟

سألتني ثانية. وسمعتُ همساً.

- مَن معك؟

- أنا؟

ابتسمتُ.

- نعم، أنت.

- بوبي. تعرفين. يساعدني في الـ ، البحث.

سمعتُ شخرة في الخلفية.

- هل أنت في كينمير؟

- لا تخلينا عن الفكرة في الوقت الحالي، يمكن أن تعتبري أننا خرجنا عن الخط نوعاً ما، تعرفين.

قهقهَت ثانية.

- كريستين، تعرفين أنني لا أستطيع الكلام الآن.

ضحكتُ:

- نعم، أفهم. أردتُ أن أطمئن أنك بخير، هذا كل شيء.

اصبح صوت أميليا أوضح وهي تقول:

- تعرفين، الشيء الغريب هو أنني بخير. أنا بخير وبأفضل حال.

- عظيم.

- ماذا عنك؟ أعرف أنّ غداً الـ حفلة عيد الميلاد. كيف آدم؟ كيف تسير الأمور؟

رددت عليها، وسمعتُ الرعشة في صوتي:

- آه، على ما يرام. ساكلمك غداً. سأتركك الآن لتعودي إلى ما كنت فيه.

أغلقت الخط وامسكتُ رأسي بين يدي. عندما رفعتُ رأسي رأيت آدم على الباب. الباب الذي كنت أتركه مفتوحاً طوال الوقت لأسمع أصواته طوال الليل. كان مبللاً يتقاطر منه الماء، والفوطة ملفوفة حول وسطه. وكان الماء يتقاطر من أنفه وذقنه وكأنه هرع بالخروج من الحمام من دون تجفيف نفسه جيداً. جففهما بشرود،

ودفع شعره إلى الخلف، فارداً إياه بيديه. وبينما كان يفعل ذلك، برزت عضلات جسده أكثر. رحتُ أحدّق بلا خجل، وقد شعرتُ أن ظهوره المفاجئ على بابي نصف عار يعطيني الحق.

حاولت التفكير في شيء أقوله. هل أنت بخير؟ أو أية خدمة؟ لا، هذا أشبه بعبارات الباعة في المتاجر. وهكذا لم أقل شيئاً. وقفتُ في ملابسي الداخلية، أنظر إليه وأتلقى نظراته. ثم فجأة، وبلا تمهيد، للمرة الأولى منذ أسبوعين تجاوز العتبة، من عالمه إلى عالمي، وكان في غرفتي وكان يتقدم مني، وكان وجهي في يديه وكان ينظر إليّ من أعلى ومياه الحمام تتقاطر من شعره على بشرتي، وكانت شفتاه على شفتي وأمسك بي، طويلاً وجميلاً، واحتكاك رقيق من شفتيه على شفتي لوقت طال وطال. كنت خائفة أن يسحبهما، أن يقرّر أنّ كل ذلك خطأ، لكنه فرّق شفتيّ بشفته السفلية ودفع لسانه داخل فمي. وأخيراً، بعدما صرت أعتقد أنه لن ينسحب، رفعتُ يدي إلى جسده واقتربت منه. شعرتُ بدوار، كان كل شيء يدور بداخلي مثل رسول مذعور يحاول أن ينقل خبراً. ذبتُ حرفياً وعدتُ للحياة في الوقت نفسه، وضع غريب. قدته إلى الفراش، وبينما كنا مستلقيين أنهى قبلتنا وفتح عينيه. ابتسم لي، فابتسمت له، وأكملنا.

أكملنا مرتين أخريين.

بينما كان آدم نائماً إلى جواري، وذراعه ملتفة حول جسدي، ورأسي تصعد وتهبط على صدره، شعرتُ بالرضا والنعاس. كان شيء في دقات قلبه، في أنفاسه، في كونه حياً، قد ساعدني على الاسترخاء في معظم الليالي التي تشاركنا فيها الغرفة نفسها. كان ثمة

نصيحة واحدة لم يذكرها كتاب كيف تهدئ عقلك وتحصل على بعض النوم: أن تقعي في حب رجل جميل وتنصتي إلى دقات قلبه. ساعدني على الاسترخاء حتى جرفني النوم.

عندما أغمضت عينيّ رأيتني في المجمع السكني مع المحقق ماغواير، لكن في تلك المرة كانت بناية متهدمة في «أفالون مانور» في تيبيراري. كان ثمة شريط أصفر من ذلك الذي يحيط بمواقع الجريمة يلتف حول البناية وكان سايمون على السطح. كان المحقق ماغواير يرتّب سلماً لكي أصعد عليه، لكنني اعترضتُ وقلت إنني لا أستطيع الصعود لأنني أرتدي فستاناً والريح قوية. مع ذلك فقد صعدتُ في النهاية، وفستاني يتطاير حول وسطي والجميع بالأسفل يضحكون. كنت قد نسيت أن أرتدي لباساً داخلياً لأنني انتهيت لتوي من ممارسة الجنس مع آدم، وهو ما قلته لهم. كانت ماريا هناك واتفقوا جميعاً على أنني يجب أن أُعتقل للفعل الفاضح. الجميع اتفقوا، حتى ليو أرنولد، الذي كان واقفاً بجوار ماريا. وأخبرهم المحقق ماغواير جميعاً أنه سيعتقلني، ولكن عليّ أولاً أن أنقذ سايمون. ويبدأ ينادي علي وأنا على السلم، ويفاوضني حول اتفاق: إذا أنقذت سايمون، لن يعتقلني. لكنه كان يضحك وهو يقول ذلك، هازئاً مني. مع ذلك وافقتُ وعقدنا الاتفاق. صعدتُ وصعدت على السلم، من دون أن أصل إلى أي مكان، وكان الجميع يضحكون من تحتي فيما استمرت تنورتي تتماوَج ليرى الجميع. فجأة بدأ السلم يميل إلى الخلف، بعيداً عن البيت. تطلّعت إلى أعلى فرأيت سايمون على حافة السطح؛ كان يبكي، وينظر إليّ النظرة نفسها التي كانت على وجهه تلك الليلة. كنت أرى اللوم في وجهه، أنه سيموت إذا لم أصل إليه. وكان ماغواير وماريا وليو يجأرون بالضحك. كان السلم

خرّاً، يترنح، يصل إلى سايمون ثم يغيّر رأيه فيرجع إلى الوراء ثانية، ولم يكن بيدي شيء أفعله لوقفه. ثم ظهر آدم هناك، وهو في حرج شديد مني ومن فشلي الواضح، متمنياً لو أنه لم يقابلني أبداً. كان يُخبر الجميع بذلك، وكان ذلك آخر ما سمعته قبل أن يبدأ السلم في الانحناء إلى الخلف تماماً وأبدأ أنا في السقوط إلى الخلف باتجاه الأرض.

استيقظتُ فزعة. نظرتُ إلى الساعة فرأيت أنني لم أنَم إلّا لعشرين دقيقة.

غمغم آدم:

- بخير؟

- مممم.

كانت ذراعاه ملتفتين حولي بإحكام، وصدره يعلو ويهبط، وجرَفني النوم ثانية. عدتُ إلى البناية، البناية الحقيقية هذه المرة، وإن كانت مؤثثة بالكامل والناس يعيشون فيها، كل شقة تضج بأصوات الحياة، كما كان يفترض أن تكون. وكان سايمون واقفاً أمامي وفي يده ثمرة موز، كان قد أخذها من زبدية فاكهة على منضدة المطبخ. وكان يقول لي إنها مسدس.

شرعتُ أتكلم، لكنني تكلّمت بسرعة شديدة حتى أن كلماتي أضغمت معاً، ولم يكن لها معنى. لكنه فهمها بشكل ما. عندما انتهيت كلامي الهرائي، وضع المسدس على المنضدة. تنفستُ الصعداء. نظرت حولي بحثاً عن المحقق ماغواير، لكن أحداً لم يكن هناك، فانتظرتُ الشرطة؛ كنت قد أتممت المهمة، انتهيت، أقنعته بترك المسدس! لكن أحداً لم يأتِ. أين الجميع؟ كنت مرتاحة للغاية لكنني كنت قلقة في الوقت نفسه، وكان قلبي يدق بوحشية في

صدري. كان يبدو عليه الضياع، الإرهاق من الموقف. وعرفت أنني يجب أن أقول شيئاً، أن أملأ الصمت.

- الآن تستطيع العودة إلى دارك يا سايمون، إلى دار ابنتيك.

عرفتُ فور أن نطقت بأنّ ذلك كان خطأ. كان قد ظلّ يخبرني طوال الوقت أن شقته هي داره، أنهم قد حاولوا أخذ داره منه، وأنّ كل ما كان يريده هو العودة إلى أسرته، إلى داره الذي وفّره لهم، الدار التي اشتراها مع زوجته، الدار التي خطط للمعيشة فيها مع طفلتيه - أول دار لهم معاً كأسرة. فجأة صارت الغرفة فارغة، صارت رمادية وخالية من الحياة، وأدركت أننا كنّا نقف في داره. كنت قد قلتُ العبارة الخطأ. رفع رأسه إليّ، وعرفت على الفور أنني ارتكبت خطأ.

تناول ثمرة الموز، التي كانت قد تحوّلت إلى مسدس.

- هذه هي داري.

ثم ضغط الزناد.

استيقظت، وكلماته ترنّ في أذني. كان قلبي يضرب في صدري، ولم يعُد آدم تحتي، كان بجانبي في الفراش، والساعة الرابعة. جلستُ، مضطربة ومتعرقة من الحلم، الذعر والرعب يتلويان في جسدي لذكرى ما قد حدث. مددتُ يدي إلى المفكرة بجوار السرير وكتبتُ: **اضطررت إلى الخروج. سأشرح لك. أراك قريباً.**

فكرت في إضافة حرف x كقبلة، لكنني تراجعت. لم أكن أريد أن أبدو متملقة جداً، متمادية جداً. في ذلك الوقت كنت قد أضعتُ ما يكفي من الوقت ولم يتبقّ أمامي وقت طويل للتفكير في الأمر أكثر

من ذلك. سأعود قبل أن يستيقظ، كما أتمنى. نهضت من الفراش، ورميت على نفسي بعض الملابس، وسرعان ما كنت في استقبال الفندق في انتظار تاكسي. بعد عشرين دقيقة كنت في المستشفى.

اندفعتُ إلى العنبر، ومن النظرة على وجهي عرف الأمن أنّ عليهم السماح لي بالدخول. لحسن الحظ، كانت أنجيلا في الخدمة.

- كريستين، ما الأمر؟

قلت، والدموع تتكون في عيني:

- إنه خطأي.

- إنه ليس خطؤك، قلت لك ذلك.

- يجب أن أخبره. لقد تذكرت. يجب أن أعتذر له.

حاولتُ أن أمرّ من جانبها، لكنها أوقفتني.

- لن تذهبي إلى أي مكان حتى تهدأي، هل تسمعين؟

كان صوتها صارماً. خرجَت ممرضة من غرفة التمريض لترى إذا كان كل شيء على ما يرام، ولما لم أكن راغبة في لفت الانتباه، أجبرتُ نفسي فوراً على الهدوء.

جلست بجوار سرير سايمون، وأنا أتململ. كان جهاز الإنعاش قد رُفع عنه وأنا في تيبيراري، لكنه كان لا يزال في العناية المركزة. كان يتنفس من دون مساعدة وإن لم يفتح عينيه أو يستعد وعيه بشكل كامل بعد. ارتعَشت أصابعي بينما كانت الكلمات التي نطقت بها ليلة أطلق النار على نفسه - والتي كنت قد نسيتها، أخفيتها بشكلٍ ما من عقلي - تعود لتتردّد حول رأسي، توبّخني، تلومني، تشير لي بإصبع الاتهام.

- سايمون، أنا هنا لكي أعتذر. لقد تذكرتُ ما قلته. الأرجح أنك لم تنسَها أبداً، وأردتُ أن تصرخ فيَّ بالكلمات، لكنني أعرف الآن.

تنشقتُ.

- كنتَ قد وضعتَ المسدس. وتركتني أستدعي الشرطة. كنتَ تبدو مختلفاً، وقد زال الهم، ثم شعرتُ أنا بزوال الهم تماماً، بسعادة بالغة أنني منعتك من إطلاق النار على نفسك، لكنني لم أعرف ماذا أفعل. الأرجح أن الأمر لم يستغرق أكثر من خمس ثوانٍ، لكنني شعرت بها زمناً طويلاً. كنت خائفة أن تتناول المسدس ثانية.

عصرتُ عيني، فسالت الدموع على خدي ووضعت نفسي في الغرفة حيث كنت قبل أكثر من شهر. وكررت:

- «خيراً فعلت. الشرطة في الطريق. سيأخذونك إلى دارك، إلى زوجتك وطفلتيك». وفجأة بدوتَ مختلفاً. كان ذلك بسبب ما قلتُه، أليس كذلك؟ الدار. قلت العودة إلى الدار، لكنك ظللت تشرح لي طوال الوقت أن تلك هي دارك، الدار التي أُجبرتَ على الخروج منها. لقد أنصتُّ إليك فعلاً يا سايمون، وكنت أفهم تماماً. إنها... زلّة لسان، في النهاية. لقد ارتكبتُ خطأ، وأنا آسفة.

أردتُ أن أمسك يده لكنني شعرت أن أيّ تواصل جسدي سيكون تدخلاً. لم أكن صديقة، ولم أكن قريبة، كنت المرأة التي فشلَت في إنقاذه من نفسه.

- سيكون من الخطأ، من الأنانية، أن أفترض أنك فعلت ما فعلت لسبب ما، أنّ ما فعلته بنفسك ربما تسبب في خيرٍ ما، لكنني عندما فقدتك أصبحت حريصة جداً على ألّا أرتكب الخطأ نفسه ثانية

حتى أنني تجاوزت الحدود، وظللت أتجاوز الحدود كثيراً، في مساعي لإنقاذ حياة رجل آخر. ولو لم أكن قد فشلت معك، ربما ما كنت لأنجح معه. أريدك أن تعرف ذلك.

فكرتُ في آدم والليلة التي تشاركناها سوياً وابتسمت ابتسامة صغيرة.

جلستُ معه في صمت طويل. وفجأة علا صفير من الجهاز بجانب سريره. تجمدتُ أولاً ثم قفزت على قدمي. في اللحظة نفسها جاءت أنجيلا مسرعة إلى الغرفة، وقفزَت للقيام بعملها.

قلتُ مذعورة:

- كنت أكلمه فحسب. ماذا فعلتُ؟

- لم تفعلي شيئاً.

قالتها بسرعة. ثم اندفعت خارجة من الباب، وأطلقت سلسلة من الأوامر لممرضة أخرى في الخدمة، ثم نظرت إليّ.

- لم تفعلي شيئاً. كفي عن لوم نفسك. أنا سعيدة أنك كنت معه. الآن اذهبي.

بدأت الغرفة تضجّ بالحركة، فغادرتُ.

تلك الليلة، أُعلنت وفاة سايمون كونواي.

24

كيف تتمرغ في يأسك بطريقة واحدة سهلة

وصلت إلى جناح فندق موريسون في الخامسة والنصف صباحاً. منهكة ومستنفدة تماماً. أردتُ أن أعود إلى الفراش بجوار جسد آدم القوي الدافئ، أن أشعر بالأمان، أن أجعله يشحنني من جديد بالحب والفرح، بالإيمان والخير. هذا ما كنت أتوقع أن أفعله، لكن عندما دخلت إلى الجناح، وجدته مستيقظاً.

منظره جعلني أبتسم وجعل قلبي يقفز فرحاً، إذ كانت رؤيته دواء شافياً لي، لكنني بعدها رأيت النظرة على وجهه وأنا أدخل الغرفة، فاختفت ابتسامتي. دقّت أجراس الإنذار. كنت أعرف الندم عندما أراه. إذ ظللتُ أنظر إليه في المرآة كلّ يوم منذ تزوجت باري. جهزت نفسي، وقويت قلبي، وشيدت جداراً حول نفسي استعداداً للهجوم. لقد انتصَبَت دفاعات ملكة الثلوج.

قال:

- كنتِ تبكين؟

نظرتُ إلى انعكاس صورتي في مرآة البهو فوجدتني مبعثرة. كانت الملابس التي ارتديتها غير منسجمة، وشعري لم يمشط، ولم أكن أضع أية زينة، وكان أنفي أحمر، وبشرتي مبقَّعة. لم أبدُ في

هيئة تسمح لي بالفوز به. كنت على وشك إخباره بأمر سايمون عندما بدأ الأمر.

بدأ بنظرة فعرفتُ، عرفت حتى قبل أن ينطق بالكلمات، وشعرت فوراً بأنني شخص قذر استغلّ رجلاً مريضاً، وأردت أن تنتهي اللحظة حالاً حتى أستطيع أن أحمل حقيبتي وأعود إلى كلونتارف مكلّلة بالعار. ألم أتعلم شيئاً من خبرتي مع سايمون كونواي؟ ماذا فعلت بآدم؟ بدا مبعثراً؛ هل أبطلتُ أثر كل شُغله الطيب على نفسه، وجعلته مرتبكاً ومتقززاً من نفسه، مشوّشاً بما يكفي لأن ينطلق مباشرة إلى الجسر أسفل نافذتنا؟ كيف لي أن أتركه الآن؟ في هذه الحالة؟ حتى عندما يطلب مني المغادرة؟

بدأ يقول:

- الأمر ليس.. لم يكن علينا أن... لم يكن عليَّ أن.

ثم قال أخيراً:

- أنا أتحمل المسؤولية كلها. آنا آسف يا كريستين. لم يكن عليَّ أن.. أجيء إليك ليلة أمس.

ابتلعتُ ريقي، وصوتي مبحوح، وكأنني قد سافرت سفراً طويلاً:

- لا، أنا الملومة. لديك ماريا، وحفلة كبيرة، ويوم كبير وأخبار مثيرة تشاركها مع العالم حول وظيفتك، فلا تقلق إذاً.

ساعدته لكي يقول الكلمات:

- لننسَ ما حدث، وأرجوك.

وضعتُ يدي على صدري وتهدّج صوتي:

- سامحني. أنا آسفة من أعماق قلبي على كوني شديدة الـ...

الأذى؟ التطلب؟ الأنانية التي دفعتني للسعي نحو احتياجاتي أنا حين كان عليّ أن أفكر في احتياجاته هو؟ من أين أبدأ؟

بدا عليه الحزن.

قلت:

- كان ذلك خطأ.

حاولت أن أتماسك، ولكن كيف؟ كنت أشعر بالارتباك. همستُ، وأنا أمضي بسرعة إلى غرفة النوم:

- آسفة. لا أريد أن أتركك تحسّباً لأن.

قال:

- أنا بخير.

كان مستنفداً، منهكاً، لكنني صدّقته. وجودي هناك لن يفيد في شيء الآن. كان عليّ أن أجازف بتركه وحيداً.

سألني:

- سأراك لاحقاً؟ في الحفلة؟

تجمدتُ.

- هل ما زلت تريدني أن آتي؟

- طبعاً.

- آدم، لست مضطراً إلى ـــ

- أريدك أن تكوني هناك.

قالها بصرامة، فأومأتُ برأسي، وأنا آمل أن تكمل ماريا الصورة حتى لا يحتاج إلى وجودي كما يظن.

وخيراً فعلتُ أن تماسكت حتى وصلت إلى شقتي قبل أن أنفجر في البكاء.

اختبأت في الفراش في شقتي، تجاهلتُ الهاتف، والباب، والدنيا، وظللت أغطي رأسي باللحاف وأتمنى لو أستطيع الرجوع عمّا فعلت. لكن المشكلة أنه لم يكن بمقدوري أن أتمنى ذلك بحق، لأن ليلة أمس كانت جميلة جداً، غير معقولة، شيئاً لم أعرفه من قبل، أكثر من مجرد جنس رائع. كان آدم رقيقاً ومحباً، لكنني شعرتُ بِصِلَة، كان واثقاً ومتيقناً وكأنه يعرف أن ذلك هو الشيء الصائب. لم يكن ثمة تردّد، لا قبلات أو لمسات متلعثمة. ولم أشعر في أية مرحلة بأي رفيف من الشك، كانت نظرة واحدة في عينيه، قبلة واحدة منه، كافية لأعرف أن ذلك صواب وأكثر شيء طبيعي في العالم. لم يكن الأمر يشبه لقاءات الليلة الواحدة التي عرفتها، كان رقيقاً، لقد مارسنا الحب، وكأنّ تاريخنا معاً قد جعل لقاءنا يعني شيئاً بحق، وكأن وعوداً صامتة قد قُطعت من أجل المستقبل. أو ربما كان آدم ماهراً إلى هذه الدرجة فحسب وكنت أنا حمقاء تماماً.

ظللت أتجاهل الهاتف والباب، لكن ذلك لم يعنِ أن أحداً كلّف نفسه الاتصال بي. عرفت ذلك لأنني كنت أختلس النظر. كنت قد أخذت الهاتف معي تحت اللحاف وبرغم تجاهلي الواعي له فقد ظللتُ ألقي نظرة عليه لأرى مَن كنت أتجاهل. لا أحد. لكنه كان صباح السبت ومعظم الناس في الفراش أو يستمتعون بوقت أسري ولن يتعبوا نفسهم بإرسال رسالة. حتى آدم. كانت المرة الأولى خلال أسبوعين التي لا أكون فيها معه، واشتقتُ إليه بصورة رهيبة، وشعرتُ بفجوة في حياتي.

رن جرس الباب.

فقفز قلبي طرباً لفكرة أن يكون آدم على الباب، في يديه قلب،

أو الأفضل، قلبه على وسادة زنبق، يقدمه لي. لكنني في أعماقي كنت أعرف أنّ مَن بالباب لن يكون آدم.

رن الجرس ثانية، وفكرت أن ذلك أمر غير معتاد. لم يكن أحد يعرف أنني أعيش هنا، باستثناء الأسرة والأصدقاء المقربين. ومعظم أصدقائي كانوا مشغولين بأسرهم الصغيرة الجديدة أو يعانون من صداع السُكر في الفراش. إلا إذا كانت أميليا. كنت أعرف أنها لاحظت حزني الليلة الماضية عبر الهاتف ولم أكن لأفاجأ إن جاءت وفي يديها كوبا قهوة، وكيس مملوء بالكعكات الصغيرة، لترفع من معنوياتي. كانت تفعل ذلك في الماضي. رن جرس الباب مجدداً، وإذ بثَّت فكرة القهوة الدفء في أوصالي، رميت الأغطية عني، ولم أهتم لمظهري، وجرجرت قدميَّ نحو الباب. فتحت الباب، متوقعة أن أرى الكتف الذي سأبكي عليه، لكن بدلاً من ذلك رأيت وجه باري.

بدا متفاجئاً لرؤيتي أكثر من تفاجئي لرؤيته، مع أنه هو الذي رن الجرس أربع مرات.

قال، وهو ينظر إليَّ من أعلى لأسفل:

- لم أظن أنك ستكونين هنا.

أحكمت سترتي حول جسدي.

- إذاً لماذا ظللت ترن الجرس؟

هزّ كتفيه.

- لا أعرف. لقد قطعتُ كل هذا الطريق.

نظر إليَّ من أعلى لأسفل ثانية، وواضح عليه أنه لم يعجب بمظهري.

- تبدين في أسوأ حال.

- لأنني في أسوأ حال.

قال بطفولية:

- طيب، هذا هو ما تحصلين عليه.

قلّبت عيني:

- ماذا في الصندوق؟

- بعض أشيائك.

بدا لي عذراً مثيراً للشفقة لكي يأتي ويزعجني. شواحن لهواتف رميتها منذ وقت طويل، سماعات أذن، حافظات أسطوانات ملمجة فارغة.

- أعرف أنك ستريدين هذا.

قالها، وهو يزيح الخردة عن السطح ويكشف صندوق مجوهرات أمي.

انفجرتُ في البكاء على الفور، ويداي تنطلقان إلى وجهي. أخذ على حين غرة، ولم يعرف ماذا يفعل. في السابق كانت راحتي مهمته، وكانت مهمتي أن أتركه يريحني، أن أريده أن يريحني، لكننا وقفنا هناك كغريبين - باستثناء أن الغريبين سوف يكونان أكثر طيبة، وأنا أبكي وهو يتفرج عليَّ.

- أشكرك.

تنشقتُ، في محاولة لأن أتمالك نفسي. تناولت الصندوق منه فوقف مكانه، مرتبكاً، لا يعرف ماذا يفعل بيديه المتململتين، ولم يكن ثمة حاجز يمكنه الاختفاء وراءه، فدس يديه في جيبه.

شرع يقول:

- أردتُ أيضاً أن أقول ـــ

قلتُ بوهن:

- لا يا باري، أرجوك لا، فأنا لا أظنني قادرة على تحمل المزيد ممّا ستقول. أنا آسفة، تعرف. أنا آسفة حقاً، أكثر أسفاً ممّا يمكن أن تتخيل، على أنني سبّبت لك ألماً. ما فعلتُه كان رهيباً، لكنني لم أستطع أن أجبر نفسي على حبك كما تستحق أن تُحب. لم نكن مناسبين أحدنا للآخر يا باري. لا أعرف طريقة أخرى أقول بها إنني آسفة، لا أعرف ماذا كان يمكنني أن أفعل بخلاف ما فعلت. أن أبقى؟ لنعيش نحن الاثنين في تعاسة كاملة؟ يا إلهي.

مسحت عينيَّ الملتهبتين بقوة.

- أعرف أنني الملومة هنا يا باري، وأنا آسفة. أنا آسفة، طيب؟

ابتلع ريقه، وظلّ صامتاً لبرهة وهيأت نفسي لاستقبال شيء آخر من الأشياء الأكثر إيلاماً التي قد يقولها لي. لكنه غمغم:

- أردتُ أن أقول إنني آسف.

فاجأني قوله.

قلت والغضب يفور بداخلي، حتى وأنا أحاول كبته:

- علامَ تحديداً؟ على تحطيم سيارة جولي؟ على تنظيف حسابنا المشترك تماماً؟ أم على إهانة أصدقائي؟ لأنني أعرف أنني تسبّبت لك في الألم يا باري، لكنني لم أجرجر أناساً آخرين إلى الأمر.

أشاح بوجهه. وبدا أنّ شعوره بالأسف قد غادره. قال غاضباً:

- لا، ليس على ذلك. أنا لست آسفاً على أيٍّ من ذلك.

لم أستطع أن أصدق وقاحته. تمالك نفسه وقال:

- أنا آسف على الرسالة الصوتية. ما كان يجب أن أقول ما قلته. كان ذلك خطأ.

دقّ قلبي بعنف، لا يمكن أن يكون يقصد سوى رسالة واحدة، تلك التي لم أسمعها، تلك التي سمعها آدم ومسحها.

- أيها يا باري؟ هناك رسائل بشعة كثيرة.

ابتلع ريقه.

- الرسالة الخاصة بأمك، طيب؟ لم يكن عليّ أن أقول ذلك. أردت أن أؤلمك بأعمق طريقة ممكنة. أعرف أن ذلك هو أكبر مخاوفك، لذلك...

خلّفَ صمتاً وحاولتُ أن أتبيّن الأمر. بعد وقفة مرتبكة فهمتُ وأدركت أنني كنت أعرف طوال الوقت. أحياناً تستطيع أن تعرف شيئاً ولا تعرفه في الوقت نفسه.

قلت، وصوتي يرتعش:

- قلت إنني سأقتل نفسي مثلما فعلَت ماما.

كان يملك من الأدب ما دفعه إلى إظهار الخجل.

- أردتُ أن أؤلمك.

- طيب، كان ذلك لينجح.

قلتها بحزن، وأنا أفكر في آدم وهو يستمع إلى الرسالة. إذاً فقد عرف أن أمي قد قتلت نفسها، أنني في أكثر لحظاتي عمقاً وإظلاماً عندما كان الجميع يخبرونني كيف أشبه أمي كنت أرتعب خوفاً أن يكون الشبه بيننا زائداً عن الحدّ. كان سراً شاركته مع زوجي وعاد ليطاردني حتى في وقت بتّ أعرف فيه أنني لا أشبه أمي بتلك الطريقة. كانت أمي قد عانت من اكتئاب حادّ لمعظم حياتها. دخلَت وخرجَت من العيادات والعلاجات منذ كانت مراهقة. وأخيراً، بعدما لم تعد قادرة على هزيمة العفاريت في رأسها، قتلت نفسها عندما

كنت في الرابعة من عمري. كانت مفكرة، قلقة، شاعرة. ومن بين كل الأفكار والقصائد التي كتبتها على مدار حياتها وهي تحاول أن تكتشف رأسها الملغزة، كانت ثمة قطعة واحدة تشبثتُ بها وجعلتُها ملكي: تلك التي قرأتُها في جنازتَي والدة أميليا ووالد آدم.

كنت أعرف دائماً، حتى وأنا طفلة، كيف غادرَت أمي العالم. وحين بلغتُ سن المراهقة، كان الناس يخبرونني دائماً كم كنت أشبهها، وكان ذلك يخيفني. أصبحتُ أرتعب من عبارة «كم تشبهين أمك». ثم، عندما أصبحت ناضجة عرفت أشياء عن نفسي، وأدركت أنني لست أمي، أنني أستطيع اختيار خيارات مختلفة عن تلك التي اختارتها أمي.

- إذاً...

قالها باري وهو يتراجع.

لم أعرف ماذا أقول بعد ذلك. صعد الدَرَج إلى الطابق الأرضي وبدأتُ أغلق الباب.

سمعته يقول فجأة:

- لقد كنتِ محقّة بشأننا. لم تكن علاقتنا مثيرة أو رومانسية، لم نكن نخرج كثيراً والأرجح أننا ما كنّا سنفعل. لم نكن نضحك مثل جولي وجاك، ولا نسافر حول العالم مثل سارة ولوك. والأرجح أننا لم نكن لننجب أربعة أطفال مثل لوسي وجون.

رفع يديه عالياً.

- لا أعرف يا كريستين، فقد كنت أحب حياتنا. وآسف أنك لم تحبيها.

تهدّج صوته، فصمَت لبرهة. فتحتُ الباب قليلاً لأراه.

- لقد ظللت طوال الشهر الماضي أتمنى لك التعاسة، أتمنى أن

تسقطي في أعماق الجحيم. والآن أراك على هذه الصورة - لا أستطيع أن أشعر بذلك بعد. أنت تبدين أسوأ حالاً مني.

هزّ رأسه.

- إن كنت هجرتيني لأنكِ تصورتِ أن ذلك سيكون خطوة إلى الأمام، فلا بد وأننا كنا أسوأ ممّا تصورتُ. أنا مشفق عليك.

أثار ذلك ثائرتي ثانية. خرج إلى الطريق. أغلقت الباب وعدت إلى الفراش لأختبئ من العالم.

مرت بضع ساعات لم أتحرك فيها. كنت جائعة لكنني كنت أعرف أن ليس هناك ما يؤكل في الشقة ولم يكن بمقدوري مواجهة الخروج إلى المتاجر، وأنا أبدو بهذا الشكل ولديّ هذه المشاعر.

بدأ هاتفي يرن فألقيت نظرة على الشاشة لأرى من أتجاهل. المحقق ماغواير. سأتجاهله بالتأكيد. توقف الجرس ثم بدأ ثانية. حدقت في السقف، وقلبي يدقّ بعنف. لم يعد إلى إيقاعه العادي إلا عندما توقف الرنين. انتظرت انتهاءه وقفلتُ الجرس.

رن الجرس ثانية.

زمجرت:

- اترك رسالة.

خرجت من السرير، وشعرت بدوخة لدى وقوفي. ثم فكرت في آدم فأصابني الذعر. ربما يكون قد فعل شيئاً. قفزت إلى الهاتف وضغطت الزر لطلب المكالمة الأخيرة.

صاح قائلاً:

- ماغواير.

- أنا كريستين. هل آدم بخير؟

- آدم؟

- رجل الجسر.

- لماذا، هل فقدتِه؟

نوعاً ما. لكنني تنهدت راحة لكونه لم يتعرّض لأذى.

- اسمعي، أنا بحاجة إليك في مستشفى كروملِن الآن. هل يمكنك الحضور؟

- كروملِن؟

ماطلتُ. كانت مستشفى للأطفال.

ردّ بحدّة:

- نعم، كروملن. هل يمكنك الحضور؟ الآن؟

- لماذا؟

- لأنني أطلب منك ذلك.

كنت مرتبكة جداً.

- لا أستطيع، أنا،... لا أستطيع الآن.

بحثتُ عن كذبة لكنني لم أستطع أن أجبر نفسي على الكذب.

- أنا لست بخير اليوم.

- طيب، أخرجي من هذه الحالة، لأن ثمة شخص هنا حالته أسوأ بكثير.

- ما الأمر؟ أنا لست مضطرة إلى الذهاب إلى أي ـــ

قال، فيما أصبح يشبه النشيج:

- يا إلهي يا كريستين. أنا أحتاج حضورك بأقصى سرعة.

- هل أنت بخير؟

قال:

- فقط تعالي. أرجوكِ.

25

كيف تطلب المساعدة
من دون أن تريق ماء وجهك

كان المحقق ماغواير بانتظاري عند مدخل المستشفى الرئيس. فور أن رآني، فعل ما كان يفعله كلّ مرة أقابله فيها، إذ استدار ومضى. فهمتُ الإشارة وتبعته. «رولت لكي ألحق به، وحين فعلت ذلك رحت أبحث حولي عن شريكه لم أره. الحقيقة لم يكن هناك دعم من أي نوع. استدرت حول الزاوية فلم أرَ المحقق ماغواير. انطلقَت صافرة جعلتني أجري ناحية المصعد المفتوح مثل الكلب الذي كان يظنني إياه فيما يبدو. لحقتُ به ولحظتها رأيت كم بدا مظهره رهيباً فاضطربَت معدتي، وأنا أفكر في أسوأ سيناريو ممكن. ابتلعت ريقي، وأنا أحاول السيطرة على نفسي؛ لم أكن قادرة على كل هذا، ليس بعدما خسرت آدم مباشرة، بعدما أخفقت مع آدم هذا الإخفاق المدهش، بعدما أُجبرت على التعامل مع باري. كنت بحاجة إلى يوم بمفردي، لكن يبدو أن لا أحد مستعداً ليقدم لي هذا المعروف الصغير. كنت بحاجة إلى أن أتمرّغ؛ التمرغ يمكن أن يحقّق الكثير. ربما يمكن أن يكون هذا موضوع كتابي. «كيف تتمرغ في بأسك بخمس طرق بسيطة» لكريستين روز.

قلت له:

- تبدو بشعاً.

قال، بنبرة تخلو من خبثه المعتاد:

- وأنت أيضاً لستِ مفعمة بالحيوية.

كان يتكلم ويتحرك بصورة آلية، دون حضور حقيقي. كان ثمة شيء خطأ بكل تأكيد. خطأ أكبر من المعتاد.

سألت:

- من ساري؟

قال، بصوت أجوف، فارغ:

- ابنتي. لقد حاولت الانتحار.

انفتح فمي وخرج هو من المصعد ثم انعطف حول الزاوية. كان عليّ أن أخرج من صدمتي قبل أن ينغلق الباب وينزل المصعد. تبعته.

ابتلعت ريقي.

- أوه، يا حضرة المحقق، أنا آسفة جداً لذلك، أنا آسفة حقاً.. لكن هل تسمح لي أن أسأل، لماذا أحضرتني إلى هنا؟

- أريدك أن تتكلمي معها لأجل خاطري.

- ماذا؟ انتظر!

وصلتُ إليه أخيراً وجذبته من ذراعه وأوقفته في طريقه.

- تريدني أن أفعل ماذا؟

قال، كاشفاً عن عينين محمرتين كالدم:

- تتكلمي معها. ثمة أناس هنا، لكنها ترفض الكلام معهم. ترفض أن تنطق بكلمتين. فكرتُ بك. لا تسأليني لماذا، أقصد أنا لا

أعرفك، لكن يبدو لي أن لديك طريقة في هذه الأمور، وأنا قريب جداً منها، ولا أستطيع.

هزّ رأسه، وعيناه تدمعان:

- حضرة المحقق ــــ

قاطعني:

- إيدِن.

قلتُ برقة، وقد أثّرت فيّ لفتته:

- إيدِن. أنا غير قادرة. أنا لم أساعد سايمون كونواي، ومع آدم أنا...

لم أرغب في الدخول في تفاصيل ما جرى مع آدم.

قال:

- لقد استطعتِ إقناع سايمون بالاتصال بنا. كان ذلك جيداً. وأقنعتِ آدم بازل بألّا يقفز من فوق الجسر، وقد طلبَتْك بعد ذلك. لقد رأيتك معه، في مركز الشرطة - إنه يحترمك، ثم أنني أعرف بما حدث مع أمك.

نكستُ راسي.

- أوه.

- أنتِ تعرفين هذه الأمور. فقط تكلمي معها، أرجوك.

تبعته في العنبر، سلسلة من الممرات والمنعطفات المربكة حتى قادني أخيراً إلى داخل الغرفة. من بين اثني عشر سريراً في الغرفة، كان واحد فقط محاطاً بستائر مغلقة تماماً.

أزحت الستارة ببطء فأصبحتُ وجهاً لوجه أمامَ زوجة ماغواير، جودي. رأيتُ هالات حمراء حول عينيها وهي تمسك بيد الفتاة في

السرير. نظرت إلى الفتاة: شعرها كثيف وكستنائي مثل أبيها، وعيناها زرقاوان صافيتان وصريحتان مثل أمها.

قلت برقة:

- كريستين.

كان رسغ الفتاة الأيسر ملفوفاً بضمادات سميكة ومطروحاً على السرير، وكانت أمها تمسك يدها اليمنى بقوة.

- من أنتِ؟

سألتني جودي، وهي تنهض ببطء على قدميها ولكن من دون أن تفلت يد ابنتها.

قلت:

- إيدِن طلب مني الحضور.

أومأت برأسها ونظرت إلى ابنتها. رأيت وجه المحقق ماغواير يتجعد في لحظة قبل أن يستدير ويخرج، وكأنه محرجٌ من إظهار عواطفه.

اقترحتُ على جودي:

- لماذا لا تذهبين لتناول فنجان من القهوة؟ كارولين، هل تمانعين أن أجلس معك قليلاً؟

نظرَت إليَّ كارولين بتشكّك، وكانت جودي لا تزال متعلقة بيدها.

- أعتقد أن أمك تستحق استراحة. أراهن أنها هنا منذ وقت طويل.

أومأت لها كارولين برأسها وساعدتُ أنا جودي على إفلات يدها. فور أن خرجَت، سحبتُ الستارة لأغلقها وجلستُ بجوار كارولين.

- اسمي كريستين. وأعرف والدك.

تفحّصتني كارولين بإرهاق:

- هل تعملين هنا؟

- لا

- إذاً، لست مضطرة للكلام معكِ.

- لا، لستِ مضطرة.

سكتت وهي تفكر في الأمر.

- إنهم لا يكفون عن إرسال أناس ليتكلموا معي. يسألونني لماذا، لماذا، لماذا. تركوا لي بعض النشرات. إنها مقرفة. ومليئة بالتلميحات.

- أشياء مثل ماذا؟

- مثل، هل لمسكِ أبوكِ - أشياء من هذا القبيل. أقصد، لم يقولوها صراحة، لكنني فهمت أنهم يتساءلون. ثم أعطوني كل هذه النشرات. أنا أعرف هذه التمثيلية جيداً.

- لن أسألك في أي شيء من هذا القبيل، صدقيني. أنا لست طبيبة، ولست معالجة. أريد أن نتكلم، هذا هو كل شيء. يبدو لي أنك مررتِ بوقت عصيب حقاً وأريد أن أنصت إليك، من دون إطلاق أحكام.

- هل أنت شرطية؟

- لا

رمقتني الفتاة بنظرة جانبية، ثم أخذت تعبث بملاءات السرير بيدها السليمة. بينما ظلت اليد الأخرى مرتخية لا تتحرك.

- لماذا إذاً طلب منك والدي أن تأتي؟

- لأنه يعرف أن أمي قتلت نفسها عندما كنت صغيرة.

نظرت إليّ عندها، وأعطتني كامل انتباهها.

- قتلت نفسها عندما كنت في الرابعة. وهكذا فأنا أفهم الوضع، الحياة مع شخص يشعر مثلما تشعرين.

نظرَت إلى ضماداتها.

- آه. أنا آسفة.

- أنا أفهم لماذا لا تريدين الكلام مع والديك. إنه أمر محرج، أليس كذلك؟ ما زلت أشعر بالحرج من والدي حتى الآن، مع أنني بلغت الثالثة والثلاثين.

ابتسمَت كارولين بوَهَن.

- لكن هذا هو السبب الذي قد يجعلك تريدين الكلام معي. فأنا لن أطلق أحكاماً عليك، ولن أقول لك إنه ما كان عليك فعل هذا أو ذاك، فقط سأصغي إليك. أحياناً يساعد المرء أن يتكلم، أن يقول أشياء بصوتٍ عال. وإذا كنت لا تعرفين إلى مَن تتوجهين أو مع من تتكلمين، يمكنك أن تطلبي مني وسأفعل ما بوسعي لمساعدتك. هناك دائماً شخص يمكن التوجّه إليه يا كارولين. ويمكننا أن نبقي الأمور بيننا فقط - وبهذه الطريقة لن تقلقي من أن أخبر أي شخص لا تريدين له أن يعرف.

تغضّن وجه كارولين وشرعت تبكي. حاولَت الاختباء وراء رسغها السليم، تاركة الآخر مطروحاً على الفراش وكأنه قد نُسي، وكأنه قد مات في تلك المحاولة. اهتزّ كتفاها وهي تتعذّب بنشيجها.

اعترفَت قائلة:

- لم أكن أظن أن هناك أحد.

قلتُ برقة، وأنا أعطيها منديلاً ورقياً:

- الآن تعرفين. هناك دائماً شخص يمكن أن يسمعك ويساعدك. دائماً.

مسحَتِ عينيها، وتمالكت نفسها، وبدا أنها تفكر في أمور ما.

قالت:

- لقد قطعتُ رسغي.

رفعَت يدها عالياً وأرتني ضماداتها وكأنني لم ألاحظها من قبل.

- أظنك تعتقدين أنني شخص مجنون.

تفحصتني. فهززتُ رأسي نفياً.

- دخلتُ إلى الإنترنت وعرفت كيفية إتمام الأمر. استخدمتُ الموسى الخاص بي، لكن الأمر كان صعباً جداً. استغرق وقتاً طويلاً جداً حتى يقطع الجلد. وآلمني. ولم أكن أحسّ بشيء، حتى وأنا أنزف. كنت راقدة هناك على الفراش، في انتظار الموت، لكن شيئاً لم يحدث. فقط كان الجرح يؤلمني. وكان عليّ أن أعود إلى الإنترنت وأرى ما الخطأ الذي ارتكبته. وأخيراً نزلت السلم حيث ماما وأريتها ما فعلت لأنني كنت خائفة.

واصلَت البكاء.

- راحت ماما تصرخ فيّ: «ماذا فعلتِ؟ ماذا فعلتِ؟» وأقسم أنني أردت أن أصعد إلى غرفتي وأفعلها ثانية حتى أموت ولا أضطر إلى رؤية نظراتها. شعرتُ بأنني مسخ. بابا لا يتوقف عن سؤالي لماذا. لم يسبق لي أن رأيته بهذا الغضب. وكأنه يريد أن يقتلني.

- إنه لا يريد أن يقتلك يا كارولين. إنه مصدوم خائف وكلّ ما يريده هو حمايتك. والداك يريدان إصلاح الأمور. يريدان أن يفهما حتى يتمكّنا من المساعدة.

بدأت تنشج ثانية:

- سيقتلانني. هل هذا ما شعرتِ به؟ هل كرهتِ أمك؟

- لا

قلتها ملطّفة، والدموع تتكون في عينيّ وأنا أتذكر بصورة غائمة بابا وهو يعود إلى البيت من المستشفى، ونظرة فرح زائفة في عينيه وكأنهما كانا في عطلة، وماما راقدة على كرسي من كراسي الشاطئ في الحديقة الخلفية، بكامل ملابسها تحت المطر المنهمر لأنها أرادت أن «تشعر بشيء ما». حتى عندما كانت في غرفتها معي كنت أشعر بأنها غير موجودة على الإطلاق. كنت أحبها، وكل ما أردته هو أن أجلس معها، أن أكون معها. كنت أمسك يدها وأتساءل إن كانت تلاحظ وجودي أصلاً.

- لم أكرهها أبداً، ولا للحظة واحدة.

خلّفتُ صمتاً.

- لماذا ترين الأمرِ غير محتمل؟ ما الذي حدث؟

- لا أستطيع أن أخبرك. على أية حال، سيكتشفون قريباً. أنا مندهشة أنهم لم يعرفوا حتى الآن. في المدرسة الجميع يعرفون، الجميع ينظرون إليّ، يضحكون مني، يقولون لي أشياء. حتى صديقاتي. ليس لدي أحد - لا أحد يساعدني، لا أحد يتكلم معي. ولا حتى آيسلينغ.

تهدّج صوتها، واكتسى وجهها كله بالحيرة والشعور بالخيانة.

- آيسلينغ صديقتك؟

- كانت. كانت أفضل صديقاتي. منذ كنا في الخامسة. لم تعُد تنظر لي أصلاً. لشهر كامل. في البداية كان كل الآخرين لكنها ظلّت صديقتي، لكن بعدها ساءت الأمور: بدءوا يتركون أشياء في

خزانتي، أشياء فظيعة، وظلوا يقولون أشياء على فيسبوك، ينشرون الأكاذيب. ثم بدءوا يجرجرون آيسلينغ هي الأخرى، يقولون أشياء عنها هي الأخرى. لامتني على ما يحدث لها ثم قطعت علاقتها بي. أقصد، كيف فعلَت ذلك؟

خمنتُ:

- شيء حدث وعرفه الجميع؟

أومأت برأسها، والدموع تنسال على وجهها.

- على الإنترنت؟

أومأت برأسها ثانية. ثم بانت عليها الدهشة.

- هل تعرفين؟

- لا لستِ أول شخص يحدث معه هذا يا كارولين. هل كنت... في وضعٍ فاضح؟

قالت، ووجهها يحمر:

- لقد قال لي إن الأمر سيظلّ بيننا فقط. وصدّقته. ثم أرسل صديق لي رسالة يقول فيها إن الأمر أصبح على فيسبوك، ثم بدأ الجميع يتصلون بي. بعضهم كان يضحك من الأمر، وبعضهم كان غاضباً بحق، يسميني عاهرة وكل شيء - ناس كنت أظنهم أصدقائي. دخلت إلى الإنترنت لأرى وأقسم أنني شعرت بالغثيان. حتى أنا لا أريد أن أراني وأنا أفعل ذلك، ناهيك عن الغرباء. كان من المفترض أن يكون أمراً نضحك عليه، بيننا. لم أظن أنه سيعرضه على الجميع. فكرتُ أن أحد أصدقائه ربما أمسك بهاتفه وفعل ذلك، أو تمّ السطو على حسابه، لكن...

- ماذا قال؟

- كان يتمنع عن الكلام معي، بل وعن النظر إلي. ثم أمسكت به يوماً، وكلمته عن شعوري، كيف أنني لا أستطيع الاستمرار أكثر من ذلك، فنظر لي وضحك. لقد ضحك. لم يستطع أن يفهم سبب غضبي لهذا الحدّ. قال إنني يجب أن أكون سعيدة. إن الكثير من المشاهير أصبحوا مشهورين بسبب أمر كهذا والآن هم من أصحاب الملايين. أقصد، إننا نعيش في كرومِلِن اللعينة! إلى أي حدّ سنصبح مشاهير؟ وأين الملايين بعد ذلك؟

بدأت تبكي من جديد.

- هل كنتما تمارسان الجنس يا كارولين؟

شعرَت بحرج شديد للسؤال واحتاجت إلى بعض الوقت لكي تخبرني: شاركته لحظات حميمة جداً، وهما في حفل منزلي ذات ليلة، وقد شرب كلاهما كثيراً. كانت فكرته أن يصور بالفيديو هذه اللحظات. كان قد بدأ في تصويرها بالفعل قبل أن تسنح لها فرصة الاعتراض، وعندما رأت الكاميرا موجّهة إليها لم تتوقف، لم ترغب في أن تبدو جبانة.

- متى حدث ذلك؟

سألتها، والغضب يفور بداخلي. إذا كنت أنا أشعر هكذا فيمكنني أن أتخيل ردة فعل المحقق ماغواير. سوف يجعل من حياة الصبي صاحب الهاتف المزود بكاميرا جحيماً، ولكن بعد أن يفعل ذلك يجب على الصبي أن يعتبر نفسه محظوظاً إذا تركه ماغواير على قيد الحياة. لم أحسد كارولين، كونها مراهقة في أيامنا هذه؛ لقد تغيرت النظرة إلى مسائل مثل الثقة والحميمية والجنس تغيراً تاماً منذ كنت في سنها، ما ترك الصبيان والبنات يتجولون في حقل ألغام.

- قبل نحو شهرين، لكنه نشر الفيديو قبل ثلاثة أسابيع. حاولتُ

تجاهل الأمر. حاولت المواظبة على الذهاب إلى المدرسة، ألّا أرفع رأسي في مواجهة أحد، أن أتجاهلهم جميعاً، لكنني ظللت أتلقى رسائل من أشخاص. انظري.

ناولتني هاتفها فتصفحتُ رسائل من يفترض كونهم أصدقائها، ومعظمها خبيث على نحو كريه حتى أنني لم أكد أصدق ما أقرأه.

فهمت لماذا شعرت كارولين بأن ليس لديها مكان تلجأ إليه. فأصدقاؤها أداروا لها ظهورهم؛ والفتى الذي كانت تحلم به ضحك عليها، وجعلها هُزأة؛ صارت تُعيَّر يومياً في العالم الصغير المسمى بالشبكة الاجتماعية - عالم لا يستطيع أحد الهروب منه، حيث تنتشر الشائعات مثل البكتيريا قبل أن تتاح الفرصة لأيّ شخص أن يكذّبها. والفتاة المسكينة كانت محرجة جداً وخائفة جداً أن تلجأ إلى والديها، خائفة أن «يقتلاها». وهكذا قررت أن تفعلها بنفسها، أن تنهي الحرج، الألم، الوحدة. حلّ دائم لمشكلة مؤقتة. لن يدوم هذا الألم إلى الأبد؛ سوف تحمل ندوب خبرتها وسوف تتذكرها لبقية حياتها، ولا شك أنها ستؤثر في كل قرار تتخذه من هذه اللحظة فصاعداً. ولكن حيث يكون الألم، يمكن أن يأتي التعافي؛ وحيث تكون الوحدة، يمكن أن تتكون العلاقات؛ وحيث يكون الرفض، يمكن أن يظهر حب جديد. كانت لحظة. واللحظات تتغير. سيكون عليها أن تمرّ بهذه اللحظة حتى تصل إلى التالية.

سألتني، وصوتها ضئيل، وجسدها نحيل وطفولي في سريرها:

- هل ستخبريهما؟ من فضلك؟

افترقنا، وقد وعدتني كارولين بالبقاء على اتصال معي أو مع الأرقام الواردة في النشرات التي أعطتها لها المستشفى إذا احتاجت شخصاً تتكلم معه. مضيتُ إلى الممرّ حيث كانت جودي تجلس في

ما يشبه الغيبوبة على كرسي بلاستيكي وحيث كان المحقق ماغواير يروح ويجيء كحيوان في قفص.

- أخبرينا.

هكذا صاح فور أن اقتربتُ منه.

قلت بصرامة:

- لا لن أخبرك بأيّ شيء إلّا بعد أن تعلمني.

بدا وأنه على وشك أن يفترسني.

- سيكون عليك أن تسيطر على نفسك. كارولين خائفة جداً من ردة فعلك - الآن هي تشعر بالانعزال والخوف من الرفض من جانبك. تريد أن تساعدها؟ أجّل حكمك عليها وامنحها الدعم الذي تحتاجه منك.

وضعت جودي يدها على ذراعه.

- إيدِن. أنصت لها.

- إنها تعرف بالفعل أنها ارتكبت خطأ؛ فلا تلقي عليها المحاضرات. لا تجعلها تبدو حمقاء. ليس الآن، ليس وهي هشّة إلى هذه الدرجة.

أومأت جودي برأسها مؤكِّدة، وهي تنظر من خلالي إلى زوجها، وكأنها تغرس التفهّم داخل عقله.

- إنها بحاجة إلى حبك ودعمك غير المشروطَين. بحاجة إلى أن تخبرها أنك لست غاضباً، أنك لا تشعر بالعار، ولا التقزّز. أنك تحبها. أنك موجود من أجلها.

غمغم بشيء ما بدا وكأنه تهديد.

- أنا جادة يا إيدن. أنت لا تتعامل الآن مع أحد مجرميك.

كارولين ابنتك. وحان الوقت أن تتخلى عن الترهيب، أن تترك الاستجواب والدماغ الصلبة كالثور وأن تنصت لما تريد أن تقوله.

ثم أخبرته بما أخبرتني به.

ظلّ منصتاً طوال الوقت. وشحبت أصابع جودي وهي تعصر ذراعه وأنا أتكلم. غرزت أظافرها فيه عندما بدا أنه على وشك الاندفاع - إمّا إلى ابنته أو للعثور على الصبي الذي فعل بها ذلك - لكنه بقي وبقيتُ معه حتى غادره الغضب الأحمر الذي رأيته في عينيه وحلّ محله قلق أبوي وقلب مفعم بالحب. ثم راقبتُه وهو يمضي بعيداً عني، يده في يد جودي، كلّ منهما يسند الآخر وهما يقتربان من ابنتهما.

مرهقةً، غادرتُ المستشفى لكي أعود إلى بيتي وأستعد لحفلة عيد ميلاد آدم. برغم زعم آدم أنه قد أصبح بخير، فالحقّ أنه بالكاد وضع قدمه على أول طريق التعافي. كنت آمل أن تظهر ماريا وتحبّه. لأنها إن لم تفعل، فقد أفقد إلى الأبد الرجل الذي أحببته.

26

كيف تنظر بإيجابية إلى معضلة بلا حل

عندما وصلتُ إلى «سيتي هول»، متأخراً، كان آدم واقفاً عند المدخل يرحّب بضيوفه. كان متألقاً في بدلة رسمية وقد خطف أنفاسي فور أن خرجتُ من التاكسي. فقط عندما صاح سائق التاكسي فيَّ أن أقفل الباب لأنني كنت أجعل كلّ الحرارة تتسرب إلى الخارج، أدركتُ أنني متجمّدة في مكاني، متسمّرة من المنظر.

بخلاف شقيقتيّ، اللتين كانتا قد وصلتا بالفعل وكانتا قد أنفقتا الكثير على فستانين جديدين من أجل حفلة الملابس الرسمية هذه، كنت أنا قد نفرتُ من دولاب ملابسي بألوانه المتعددة، واخترت فستاناً يلائم مزاجي: فستاني الأسود الطويل الذي أثق به، والذي يصل من أعلى حتى الرقبة لكنه مفتوح من أسفل حتى الفخذ وعاري الظهر. وبينما كنت أحاول تغطية الفخذ العاري المكشوف، أدركت أن آدم لم يعُد يرحب بالضيوف وإنما كان قد استدار ليراقب دخلتي غير المحتشمة والفاضحة تماماً. سحبت ساقي الثانية من السيارة، وعدّلت لفاعي المصنوع من الفرو الصناعي وصعدت الدَرَج، وعينا آدم عليَّ طوال الطريق. شعرت بأنّ كل جزء مني عار ومكشوف كما كنت أشعر وأنا على السلم في حلمي، حتى وأنا أرتدي لباساً تحتياً

هذه المرة. كان ذلك كل ما استطعته لإخفاء مذلتي وكسرة قلبي. وعجزت عن النظر في عينيه.

غمغم قائلاً:

- تبدين جميلة.

لم يكن ماهراً جداً في الارتباك. كان هادئاً، متماسكاً، مراقباً، مسيطراً. كان ذلك هو آدم الأيام القليلة الماضية، آدم الذي لم أكن معتادة على التعامل معه.

قلت:

- آه، شكراً. لم يكن لدي وقت طويل للاستعداد. باري أجرى مكالمات هاتفية صباحاً، وشخص آخر احتاج مساعدتي، ولا أعرف إن كنتَ سمعتَ، ولكن سايمون كونواي، الرجل الذي... تعرف، طيب، لقد توفي ليلة أمس. هذا هو المكان الذي ذهبت إليه ذاك الصباح عندما غادرت الغرفة، القصد أنه كان واحداً من تلك الأيام.

كنت لا أزال أشعر بالأسى على نفسي، فامتلأت عيناي بالدموع واشحتُ بنظري.

سألني، في قلق:

- انتظري، ماذا؟

- تريدني أن أعيد أيّ جزء؟

بدا وجهه شاحباً على الفور:

- سايمون توفي هذا الصباح؟ لذلك غادرتِ؟

اومات براسي.

- طيب، لقد غادرتُ لأنني تذكرت شيئاً كنت قد قلته له. لكنني ذهبت إليه ثم توقف قلبه.

سرت قشعريرة في جسدي. لم يكن يوماً طيباً، فقد بدأ بالموت، وكنت أتمنى ألّا ينتهي هذه النهاية.

بدا آدم مصدوماً بالخبر، مهتماً بسايمون وأحزانه أكثر بكثير ممّا توقعت.

- إذاً، هل هي هنا؟

استغرق لحظة ليدرك تغيّر الموضوع، والتغير في لغتي الجسدية، ثم تعامل مع الأمر جيداً، بالطريقة التي فهم أنني كنت أريدها.

- لا ليس بعد.

قلت متفاجئة:

- أوه. ظننتها ستحضر عند السابعة.

- وأنا أيضاً.

قالها وهو ينظر إلى الباب ثانية، في قلق.

كانت الثامنة مساء.

راودني إحساس قوي بالراحة، تبعه على الفور إحساس بالخوف فيما قفزت معضلتي أمام عيني ثانية. إن لم تنجح الأمور مع ماريا لن يسقط آدم بين ذراعي، وإنما، على الأرجح، من فوق أقرب جسر أو أعلى بناية. كنت بحاجة إلى أن تأتي ماريا وتخبره أنها تحبه وإلّا لن أستطيع حتى أن أحبه من بعيد. فجأة، بدت التضحية من أجله لا التضحية به أمراً حيوياً، مكافأة، جائزة. كانت هذه وجهة النظر التي أحتاج إليها.

استجمعتُ نفسي ونظرت في عينيه:

- اسمع يا آدم، إذا لم تأتِ الليلة أريدك أن تفكر في خطة

مواجهة الأزمات. أنا أعرف أننا عقدنا اتفاقاً، لكنني أريدك أن تعرف أنني غير موافِقة عليه. لا أريدك أن.

ابتلعتُ ريقي.

- تقتل نفسك. فكّر في كل الأشياء التي ناقشناها. تتذكّر الخطة؟ لقد استطعنا البقاء على مدار الأسبوعين الماضيين، أليس كذلك؟ استخدم الأدوات التي أعطيتها لك. وإذا ساءت الأمور الليلة لأي سبب من الأسباب - لا أقول أنها ستسوء.

هكذا صححتُ بسرعة.

- لكن إذا ساءت، فتذكّر ما علمتك إياه.

- عيد ميلاد سعيد!

سمعت صوتاً أنثوياً من خلفي. وحين كان عليّ أن أشعر بالفرحة، اكتسحني هذا الإحساس بالهزيمة مجدداً.

كانت عينا آدم لا تزالان عليَّ.

انضمَّت ماريا إلينا.

- آسفة، هل أزعجكما؟

قلتُ، وأنا أطرف لأسقط دموعي:

- لا، أنا سعيدة جداً لأنك جئت.

وأضفتُ، هامسة:

- إنه ملك يديك.

سألني بابا عندما انضممتُ إليهم:

- هل حُلَّت كل المسائل؟

لم أستطع الإجابة إلا بإيماءة من رأسي؛ لم أستطع الوثوق في نفسي لأتكلم بينما كانت عيناي ممتلئتين بالدموع.

قالت بريندا بتعاطف، وهي تحيطني بذراعيها:
- آه، أنا أفهمك. أنت واقعة في حبه، أليس كذلك؟ هاكِ.
سحبت كأس شمبانيا من صينية عابرة.
- اسكري، هذا سيخدِّر الألم.
ارتشفتُ الفقاعات، وأنا أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً.
قالت أدريان:
- بمناسبة كسرة القلب، لقد انفصلنا أنا وغراهام.
لم تحظَ بردة الفعل التي حظيتُ أنا بها من الأسرة.
قال بابا محبَطاً:
- لم يحضّر الكعكات المصنوعة من الجبن. لماذا لم يحضر الكعكات المصنوعة من الجبن؟
هززت كتفيّ.
تابع، متحيراً:
- مع أنها لذيذة جداً.
أضافت أدريان بسخط:
- أعرف أنكم لا تهتمون، لكن ثمة شيء لم يكن على ما يرام بيننا.
- قضيب، ربما؟
قالها بابا، فلم أستطع منع نفسي من الضحك.
غمز إليّ وهو يقول:
- آه، ها هي فتاتي الصغيرة! أخبريني، أين هي فتاته الغشاشة التي بذلتِ كل هذا الجهد لكي تجمعي بينهما ثانية، حتى أستطيع أن أرميها بنظرات أبوية غاضبة؟
تنهدتُ:

- آه، لا تفعل يا بابا. إنهما مثاليين معاً، خلقا ليكونا سوياً. أقصد، لقد كان الرجل على وشك أن يلقي بنفسه من فوق الجسر إن لم يستَعِذْها. أيّ رومانسية؟

قالت أدريان، وهي لا تزال منزعجة من تجاهل إعلانها:

- ليس رومانسياً على الإطلاق.

قالت بريندا:

- إنقاذه من القفز من فوق الجسر أكثر رومانسية بكثير.

وقال بابا:

- أنت محظوظة لإنقاذه.

ثم صمت الجميع.

كان قد مرّ ما يقرب من ثلاثين سنة منذ انتحار أمنا، منذ دخل بابا ليجدها على أرض الحمام مع زجاجة أقراص فارغة بجانب جسدها. اعترف لنا أنه لم يحاول انقاذها، وهو الاعتراف الذي تفهّمناه بدرجات مختلفة. بريندا تفهمت. أدريان فهمت وجهة نظره لكنها تمنت لو أنه كان قد استدعى الإسعاف في وقت أسرع، وأنا لم أتكلم معه لشهور. كنت في التاسعة عشرة وفي الجامعة عندما أخبرني. ولما كنت أظن أن بإمكاني إنقاذ الجميع أو على الأقل محاولة إنقاذ الجميع، فقد قلت له إنني لن أسامحه أبداً. كان الأمر صعباً على بابا في ذلك الوقت، لأنه كان قد أنقذ زوجته ستّ مرات بالفعل. وضعها على جهاز إنعاش القلب والرئتين مرتين، وسحبها من البانيو، وفعل أموراً أخرى لا يعرفها إلا الله، وهرع بها إلى المستشفى مرات عديدة جداً حتى أنه لم يجد في نفسه القدرة على مواصلة المحاولة، على إقناعها بالبقاء.

قلت فجأة:

- تعرف ماذا يا بابا. أظن أنك أنقذتها فعلاً. لم تكن ترغب في البقاء هنا.

تأثر كثيراً بهذا حتى أنه اضطر لأن يشيح بوجهه ليتمالك نفسه. قلت، وأنا أراقب ماريا تدخل القاعة أمام آدم:

- ها هي.

قالت بريندا:

- أوه، لا أعرف هل أصافح يده أم ألعق وجهه.

قلت:

- من فضلك صافحي يده.

قالت أدريان:

- هل هذه هي؟ ذات الشفتين الحمراوين؟

قال لها بابا:

- تريدين لعق وجهها، أليس كذلك؟

ضحكت أدريان.

تنهدتُ:

- كنت أعرف. قلت لكم إنها جميلة.

قالت بريندا:

- على طريقة الساحرة الشريرة في أفلام الكرتون.

شقّ آدم وماريا طريقهما في القاعة، وماريا ترحب بالناس بدفء، وقد بدا واضحاً أنها تعرف معظم الضيوف منذ أيام كانت فيها مع آدم. وضعتُ كأس الشامبانيا وخطفتُ الكأس من يدي بريندا.

- هيه!

احتجّت، ثم استسلمَت.

ثم سمعنا قرعاً على كأس، ونظر الجميع لرجل على المنصة راح يحاول إسكات الحشد.

توجه بالشكر لبعض الضيوف المرموقين على الحضور - وزير التجارة، لا رئيس الوزراء كما كان بابا يأمل - وفي كلّ مرة كان يسمي شخصاً مهماً كان التأثر يظهر على وجه بابا. تكلم عن الوفاة الحزينة للسيد ريتشارد بازل، الذي سيُفتقد كثيراً - يبدو أنه لم يكن يعرفه جيداً - ثم أعلن آدم رئيساً جديداً لمجلس إدارة شركة بازل لصناعة الحلوى. تعالى هتاف كبير من الحشد وتوجّه آدم إلى المنصة.

صعد الدرج واتخذ مكانه، وهو يبدو مثل نجم سينمائي.

قال وهو يطالع الحشد:

- صديقة لي ساعدتني على صياغة كلمة الليلة.

ابتسمَت ماريا له بفخر من جانب القاعة فشعرتُ بغصّة في حلقي.

- لست ماهراً كثيراً في الكلام عن مشاعري. والأمسيات مثل هذه ليست الأسهل لأنها مفعمة بالمشاعر. لكنني أشعر الآن... بالشرف لحضوركم جميعاً اليوم. لقد سمعت كلاماً بأن هذه بداية جديدة لبازل، لكنني آمل أن تكون استمراراً لنجاحها، ربما بداية لنمو جديد للشركة. أشعر الآن... بالارتقاء والدعم بسبب كل تلك الكلمات الطيبة التي قالها كل هؤلاء الناس عن والدي، وإن كان من الواضح، برغم نواياكم الطيبة، أنكم جميعاً كاذبون.

نالت عبارته الأخيرة ضحكاً من الحشد.

- والدي كان يتّسم بصفات كثيرة، لكن أبرزها أنه كان جيداً في عمله.

أومأت بعض الرؤوس. ورأيت آرثر ماي، المحامي، بين الحشد.

- لقد وضع قلبه وروحه في هذه الشركة. الحقيقة أعتقد أنه أعطاها إلى حدٍّ لم يبقَ لديه سوى القليل جداً لبقيتنا.

ضحكوا مجدداً.

- أشعر الآن... بالفخر أنه سمّاني خليفة له، أنه أحسّ بأنني قادر على لعب هذا الدور. أعرف أنني ومجلس الإدارة والرائعة ماري كيغان، المديرة الإدارية الجديدة، متّحدون في أهدافنا من أجل الشركة. أشعر الآن... بالجاهزية. ربما كانت خبرتي قصيرة ومهمتي غير مألوفة، لكن لدي في والدي وجدّي مثالاً أحتذيه بيقين وثقة وأنا أسير على تقاليد بازل وفي الوقت نفسه أتطلع إلى المستقبل. وأخيراً، فأنا مدين بعظيم الفضل لهؤلاء الذين رتبوا هذه الأمسية والذين بذلوا الجهد لكي يوصلوني إلى هنا.

استقرت عيناه عليَّ. كان ثمة صمت ملحوظ. تنحنح.

- شكراً لكم من كل قلبي.

مع انطلاق الجميع بالتصفيق، مضيتُ وسط الحشد، مسرعة. لم أستطع الخروج من القاعة بالسرعة الكافية. لم أستطع أن أحظى بهواء كافٍ. عدوت نازلة وصلة دَرَج، ممتنة لأجد الحمامات خاوية في أثناء إلقاء الكلمات، فأغلقتُ على نفسي أحد المراحيض، وانفجرتُ في البكاء.

كريستين؟

كان صوت بريندا. تجمدتُ. كانت المراحيض قد امتلأت بسرعة عقب انتهاء الكلمات وكان ثمة طابور في الخارج. كنت أنتظر أن تهدأ

عيناي المنتفختان قبل أن أجازف بفتح الباب والخروج أمام كلّ مَن هناك بوجه لطّخته الدموع. كانت المشكلة أنني ظللت هناك وقتاً طويلاً حتى أنني أصبحت موضوعاً للنقاش لدى الطابور بالخارج.

نادت أدريان:

- كريستين؟ كريستين، هل أنت هنا؟

قالت إحداهن:

- يبدو أن هذا المرحاض خارج الخدمة.

شعرتُ بحرجٍ بالغ، فتناولت هاتفي وبدأت أكتب رسالة بسرعة محمومة لشقيقتيّ لكي تتركاني وشأني، لكنهما شرعتا تطرقان الباب، فارتبكتُ، وتوقفت عن الرسالة المسعورة.

سألَت أدريان، وهي وراء الباب مباشرة:

- كريستين، هل آدم بالداخل معك؟

- آدم؟! بالطبع لا.

أجبتها باندفاع وفضحتُ نفسي، وسمعت امرأة في الصف تقول:

- لا بدّ أنّ حلوى الـ «فول أو فو» هي السبب.

أسرعَت بريندا بالقول:

- إنه مفقود. هل سمعتِ ذلك؟ لقد أحضروا الكعكة لكنه غير موجود.

وأضافت أدريان:

- إنه ليس مع ماريا، إذا كان هذا ما تفكرين فيه.

كان هذا بالضبط ما أفكر فيه.

- سألناها عن مكانه بينما كانت تغادر. وقالت ليست لديها فكرة.

خفضت أدريان صوتها ولا بد أنها اقتربت من الباب لأنّ الصوت بدا فوقي مباشرة:

- لم يرجعا لبعضهما يا كريستين.

كان صوتها خفيضاً ومتعجّلاً.

فجأة راحت الدماء تنبض في أذني ولم أعُد أستطيع سماع أي شيء آخر ولم أستطع الصبر لكي أخرج من هناك. فتحت الباب وفجأة لم أعُد مهتمّة بأمر العشرين امرأة اللائي كنّ يحدقن فيّ أو بحقيقة أن أحداً لن يدخل إلى مرحاضي بعدما قضيت فيه كل هذا الوقت. كل ما استطعتُ رؤيته كان وجهَي بريندا وأدريان القلقَين - وجهان لم يسبق لهما وأن أظهرا القلق أبداً، ليس أمام شقيقتهما الصغيرة التي كانت تعيش في قلقٍ طوال الوقت؛ بدلاً من ذلك كانتا دائماً تحافظان على بديهة حاضرة مرحة كان المقصود بها أن ترفّه عني تحسباً، حاشا لله، أن أكون مثل أمي في نهاية الأمر. لكنهما كانتا الآن تنظران إليّ، جادتين، قلقتين، مذعورتين.

- هل تعرفين مكانه؟

سألتني بريندا فأنهكت عقلي، باحثة، أفتش في أرشيف محادثاتنا عن إشارة إلى المكان الذي قد يكون فيه.

تلعثمتُ، وأنا أحاول التفكير بشكل سليم.

- لا، لا أعرف. لا أصدق أن ماريا فعلت ذلك به.

قلتها بغضب. مرّتان الآن تكسر قلبه - ألا ترى كم هو رائع؟

- كان يجب أن أبقى معه، كيف كنت أفكر؟

- طيب، لا تقلقي من ذلك الآن، ركزي فقط أين يمكن أن يكون. فكري بقوة.

فكرت في غرفة الفندق العلوية، الليلة التي قضيناها معاً، ليلته

الأخيرة. المنظر المطلّ على جسر هايبني. تجمدتُ. لقد كان يخطط لذلك طوال الوقت.

قالت أدريان.

- إنها تعرف.

وحثّتني بريندا:

- اذهبي يا كريستين.

رفعتُ ذيل فستاني وجريت. لم يكن الجري بحذاء بكعب عالٍ بالمهمة اليسيرة، لكنني أيضاً لم أكُن لأحتمل قطعة زجاج في قدمي الحافية. ولا القفز في السيارة مع بات، الذي كان يوقف السيارة بالخارج. كنت بحاجة إلى الاتجاه يميناً في شارع البرلمان لكي أصل إلى الجسر، وكان شارعاً ذا اتجاه واحد. بات سيُبعدني عن الجسر لكي يقترب منه. لم يكن أمامنا وقت لذلك. جريت في طقس ثلجي، وأنا متعلقة بشال الفراء الصناعي بيد ورافعة ثوبي بالأخرى. جريت في شارع البرلمان ثم يميناً في رصيف ميناء ولينغتون، وأنا أجذب النظرات والتعليقات من محتفلي ليلة السبت. رأيت الجسر من بعيد لكنني لم أرَ أحداً فوقه. ظللتُ أجري، والبرد يحرق منخريَّ وأنا أتنفس منهما، وصدري يحترق وأنا أشهق الهواء. ومع الاقتراب من الجسر، رأيته. بالضبط في المكان نفسه حيث التقينا قبل أسبوعين، شبح يرتدي السواد، يقف أسفل الوهج البرتقالي للمصابيح الثلاثة، والمصابيح الخضراء تكسوه هو والجسر بضوء مخيف. ورغم التعب، حفرتُ عميقاً بداخلي بحثاً عن المزيد من الطاقة، وانطلقتُ إلى الجسر. وصعدت الدَرَج.

- آدم!

صرختُ فاستدار ليواجهني، وقد بوغِت.

- لا تفعل ذلك، أرجوك!

نظر إليَّ، وعلى وجهه قلق، وحزن، واندهاش.

- لن ألمسك. لن أقترب منك، طيب؟

واصل الناس السير على الجسر، غير متأكدين ماذا عليهم أن يفعلوا، ثم شكلوا دائرة واسعة حول آدم، خائفين، وكأنه لغم أرضي.

كنت أبكي. كنت قد بدأت البكاء في وقت ما أثناء انطلاقي إلى الجسر والآن كنت أقف أمامه، باردة، مرتعشة، مقطوعة الأنفاس، حطامٌ نوّاح.

لم ينبس بكلمة.

- أعرف أن الأمور لم تنجح مع ماريا...

حاولتُ التقاط أنفاسي.

- وأنا آسفة لذلك، أنا آسفة جداً جداً. أعرف أنك تحبها وأعرف أنك تشعر وكأنك لا تمتلك شيئاً الآن. هذا غير صحيح. لديك شركة بازل ولديك قاعة مليئة بالناس المتحمسين لذلك. ولديك...

أنهكتُ عقلي.

- الكثير جداً جداً. صحتك، أصدقاؤك...

ابتلعتُ ريقي.

- ولديك أنا.

رفعتُ يدي إلى أعلى، بصورة مثيرة للشفقة.

- أعرف أنني لستُ مَن تريد، لكنني سأكون على الطرف الآخر من الهاتف في أيّ وقت. أقسم أنني سأفعل أي شيء لكي أساعدك، لكي أجعلك سعيداً. الحقيقة أنني...

سحبتُ نفساً عميقاً.

- أحتاج إليك. عندما التقينا أول مرة ووعدتكَ بأن أريك جمال الحياة، لم أكن أعرف ماذا أفعل بأيّ حال. فاشتريت كتاباً!

ضحكتُ، مشفقة على نفسي.

- لكنك لا تستطيع مطاردة السعادة. الفرحة تحدث بشكل تلقائي - إنها ليست تركيبة ثابتة سابقة التجهيز يمكنك اتّباعها، لكنني لم أكن أعرف ذلك، لم أكن أعرف ماذا أفعل. أظنني كنت قد توقفت عن رؤية جمال الحياة منذ فترة، من دون حتى أن أدرك ذلك. ووجودي معك. لقد ساعدتني أن أرى كم هي جميلة الحياة، كم هي ممتعة. لقد كنتَ كتابي الإرشادي الأصيل نحو السعادة، المفصَّل بحسب الطلب على نحو رائع. لقد أفهمتني أنّ الأشياء البسيطة هي كلّ ما تريد طالما تفعلها مع شخص يريد أن يكون معك. كان من المفترض أن أعلّمك وأن أصغي إليك، لكن في النهاية أنت الذي أراني الطريق. وأنا أعرف أن ذلك ليس ما تريد أن تسمعه، لكنك ساعدتني على الوقوع في الحب. الحب الحقيقي. ليس مع الحياة فقط.

ابتلعتُ ريقي.

- ولكن معك. أظن أنني طالما اخترت الحلول الآمنة. طالما حاولتُ إصلاح الأشياء لأجل جميع من حولي وطالما بقيت مع أناس... آمنين.

فكرتُ في باري وعلاقتنا. كنت قد اخترت شخصاً عرفت أنني لن أشهد معه دراما، لا مفاجآت، لا شيء يمكن أن ينكسر فأضطر لإصلاحه. لم أسمح لنفسي بالوقوع في الحب حقاً. إلى أن قابلت آدم، الذي لم يجلب شيئاً سوى الدراما والمفاجأة في كلّ يوم قضيته معه.

- لا يهمني إن كان حبي متبادلاً أم لا، لأن وجودي معك ومجرد التفكير في ذلك يجعلني سعيدة. ما أحاول قوله هو إنك محبوب لأنني أنا أحبك يا آدم. أرجوك، لا تفعل ذلك. لا تقفز لأنني أنا أحتاج إليك.

كانت عينا آدم مليئتان بالدموع. وكان زوجان ممّن تلكأوا ليسمعوا الحوار واقفين يتناغيان ويداهما متشابكتان، الواضح أنه فاتهما الجزء الذي كان يهدّد فيه آدم بالقفز من فوق الجسر.

شعرت أنني مثيرة للشفقة جداً، منهكة بعد اعترافاتي. كنت مستنفدة وأكاد أتجمّد من البرد. وكان فتح قلبي على وسعه هو كلّ ما بإمكاني فعله لإنقاذه. وهكذا انتظرتُ، آملة، متمنية، داعية، ألّا يسمع كلماتي وحسب وإنما يحسّها، أن تستطيع بطريقة ما اختراق هذا الجزء من عقله الذي كان يتلاعب به ويجعله يفكر أن شيئاً لم يعد يستحق. لقد سبق وفشلت مع سايمون، ولا أستطيع أن أفشل، ولن أفشل، مع آدم.

قال:

- انظري إليّ.

لم أستطع ذلك. لم أرغب في سماع مبرراته أو كلمات وداعه. بدأتُ أبكي أكثر وأكثر.

- انظري إليه.

هكذا حثّتني المرأة، فرفعتُ رأسي.

كان آدم مبتسماً، وارتبكت. لم يكن الأمر مضحكاً، لماذا يجده مضحكاً؟ وكان الزوجان يضحكان أيضاً، وكأن ثمة نكتة لم يشركوني فيها. شعرت برغبة في أن ألطمهم وأن أقول لهم: «أنتم لا تفهمون - ثمة حياة على المحك هنا!».

قال، والابتسامة لا تزال على وجهه:

- على أيّ جانب من الجسر أقف؟

- ماذا؟

عبستُ، وأنا أجيل نظري بينه وبين الزوجين.

- عمّ تتحدث؟

هل هذا مجازٌ من نوع ما؟ هل يفترض أن يعني شيئاً؟ كان لا يزال يبتسم لي، وهو هادئ تماماً، وكأنه كان يفكر بعقلانية وأنا أعرف أنه لا يفكر هكذا. فكرت باليوم الذي رأيته فيه لأول مرة على الجسر، كان يقف على الجانب الآخر، قدماه على الحافة الخارجية، على وشك القفز. نظرت إليه الآن، قدماه على الأرض، ليس معلقاً فوق الجسر، ليس متشبثاً بالجانب الخطأ من السور. كان واقفاً على الجسر يتطلع إلى المنظر، وهو ما يعني أنه لم يكن على وشك القفز!

همست:

- آه، اللعنة!

ضحك، ومدّ ذراعيه ناحيتي وقال:

- تعالي هنا.

أمسكتُ رأسي بيدي في حرج بالغ، وأنا ألعن شقيقتيّ، وألعنه، وألعن نفسي. لقد اعترفتُ له بمكنون روحي. تراجعتُ خطوات إلى الخلف وأنا في غاية الحرج.

- اللعنة. آسفة، ظننتُ أنك، لقد قالت لي شقيقتاي، افترضتُ، على نحو خطأ أن...

تقدّم باتجاهي، ومدّ ذراعيه ليمنعني من الابتعاد. كان طويلاً حتى أنه كان مضطراً للنظر إليّ من أعلى.

- لقد أخبرتُ ماريا أنّ علاقتنا لن تنجح.

انفتح فمي.

- ماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟

بدا أنه يتسلى بردّة فعلي.

- لأنني أردتُ ذلك. لقد آلمتني، ولا أريد أن أعود إلى هناك. أفهم أنني لم أعاملها كما ينبغي العام الماضي، لكنني اعتذرتُ عن ذلك. وقد اعترفَت هي أنها تأثرت بكلّ ما قد فعلتُه لاستمادتها، لكن ما تشعر بالحنين إليه حقاً كان نحن القديمين، وكيف كنا في البداية. أعتقد أنني كنت كذلك أيضاً. لكنني الآن أعرف أننا لا نستطيع أن نكون ذلك الثنائي كما كنا - لقد تغيَّر الكثير، ومضت الحياة. لقد انتهينا، لا طريق للعودة. لا أريد أن أعود إلى الخلف.

ارتجفتُ، وأنا لا أزا ، مصدومة، فشدّني تجاهه.

- ماريا قالت لي «هل ىذا بسبب تلك الفتاة؟»، فأدركتُ أن ذلك كان جزءاً كبيراً من الأمر.

- أية فتاة؟

سألته، وأنا أشعر أنني لم أعُد أفهم شيئاً.

ضحك آدم.

- آدم، الأمر ليس مضحكاً. ليس لدي فكرة عمّا يدور. قبل دقيقة فكرت أنك على وشك القفز لأنك خسرت ماريا، والآن تقول لي إنك لم تكن ستقفز، وإنك لا تريد ماريا بسبب فتاة أخرى لم يسبق لك وأن أخبرتني أي شيء عنها. وأنا قلت لك أشياء.

تأوهتُ، وأنا أريح رأسي على صدره، شاعرة بحرج ىديد ممّا قلته.

سألني برقة:

- هل كنت تعنين هذه الأشياء؟
انكمشتُ.
- بالطبع أعنيها. لم أكن لأقولها لو لم أكن أعنيها. لكن يا آدم، عليك أن تفهم لماذا قلتها. الظروف ـــ
قاطع كلامي المشتّت:
- أنتِ الفتاة.
أوقفني ذلك عن الكلام.
- الفتاة التي كانت ماريا تتكلم عنها. لقد أدركتُ أنني لا أحب ماريا. وجودي معها من عدمه لن يحدّد ما إذا كنت سأحيا أم أموت. مشكلتي كانت، أنني كنت غير سعيد مع نفسي. وقد جعلتِني أشبه نفسي ثانية. لقد ساعدتِني على أن أحيا حياتي ثانية. وسواء نلتُكِ أم لم أنلكِ، لن يعني ذلك أنني سأقفز، أو أنهي حياتي. أريد أن أكون سعيداً بنفسي. كلّ تلك الأشياء التي فعلناها من أجل ماريا، استمتعتُ بها لأنني فعلتها معك. لقد استمتعتُ معك. ربما كانت هي القصد، لكنك أنت السبب. وبينما كنت تحاولين أن تجعلي ماريا تقع في حبي، وتجعليني أقع في حب الحياة، وقعتُ في حبك.
كانت يداه على وجهي، وجهي المشدوه. ضحك بعصبية:
- يمكنك التوقف عن النظر إلي بهذه الطريقة الآن.
همست:
- آسفة.
قال مفسراً لي:
- عندما استيقظتُ هذا الصباح ووجدتُك رحلتِ، ظننت أنك غيّرت رأيك.

- لا، أنا ـــ

- ثم عندما عدتِ إلى الغرفة وأنت تبكين، ظننتكُ ستخبرينني بأنك نادمة.

- لا، أنا ـــ

- وعندما أخبرتِني عن سايمون بدا الأمر مفهوماً. لقد فهمتُ خطأً. كنت أريد أن أقولها لك قبل أن تقوليها لي. فكرتُ أن ذلك سيكون أسهل عليك.

- أنت مجنون.

قلتها بلطف، وقد سُمح لي بالكلام أخيراً، فابتسم.

قالت المرأة بجوارنا:

- قبّلها!

أعلنتُ، وأنا أوقفه:

- لدي شروط.

تراجع إلى الخلف.

قلت:

- تعرف أن الطريق لا يزال طويلاً أمامك. لقد ساعدتك بأفضل ما أستطيع، وسوف أستمر في ذلك، لكنني بالتأكيد لست معالِجة يا آدم، لا أعرف كيف أساعدك عندما تصبح... ذلك الرجل.

قال، وقد أصبح جاداً:

- أعرف. لقد جئتُ إلى هنا لكي أفكر إلى أي مدى ذهبتُ. أنا لست الرجل نفسه الذي وقف هنا قبل أسبوعين، لكنني أعرف أنني قد أصبح ذلك الشخص ثانية إن لم أحظَ بمساعدة، إن لم أساعد نفسي. أشعر أنني مُنحت فرصة للحياة - لقد ساعدتِني لأحصل على تلك الفرصة، وسوف أتشبّث بها وأحاول الاستفادة منها إلى أقصى

حدّ. أنا متأكد أنني سأفسد الأمور في بعض الأحيان، لكنني أشعر حقيقة للمرة الأولى منذ زمن طويل أنني أريد أن أجرب الاستمتاع بحياتي. لذا نعم، سوف أبدأ في رؤية شخص لهذا الشأن. لا أريد أن أنحدر إلى هذه الدرجة ثانية.

تشابكت أعيننا وابتسمنا. مالَ إلى الأمام وتبادلنا قبلة. هتف لنا الرجل والمرأة ثم سمعتُ وقع أقدامهما وهما يتركاننا وحدنا ويمضيان في طريقهما عبر الجسر.

خلع آدم جاكيت بدلته ووضعها على كتفيَّ المرتعشين. كانت أسناني تصطك، وأصابع قدمي مجمدة من البرد.

- نسيتُ أن أعطيك هذه.

- دسّ يده في جيبه وأخرج فردة حلق أمي الضائعة.

- بات وجدها في السيارة هذا الصباح.

- شكراً.

همستُ، وقد غمرتني الراحة. أمسكتُ بحجر الزمرد في يدي بقوة، وأنا أشعر بالشرف أن أمي قد أصبحت شريكة في واحدة من أروع لحظات حياتي. كنت أشعر بها هناك معي.

وبينما كان آدمي يقودني إلى الجانب الآخر من الجسر، قلت معترضة:

- لا نستطيع مغادرة الحفلة.

لفَّني بذراعه قائلاً:

- لقد غادرناها بالفعل. إنها حفلتي. أستطيع أن أفعل ما يحلو لي. وسآخذ المرأة التي أحبها وأعود بها إلى الفندق.

ابتسمت.

- تعرف، لقد توصلتُ إلى فكرة لكتابي.

قلتُها بخجل. راودتني تلك الفكرة وأنا أقضي اليوم مندسة تحت لحافي، أبكي على حياتي. إلهام جاء من أغرب الأماكن.

- حقاً؟ ما هي؟

- سأسميه «كيف تقع في الحب». سأحكي فيه كيف قابلتك.

ابتسم.

- سيكون عليكِ تغيير الأسماء.

- سيكون عليّ أن أفعل أكثر من ذلك. أعتقد أن هناك سبباً وراء الانتظار عشر سنوات قبل أن أبدأ فيه. كنت أحاول أن أكتب الشيء الخطأ. سأكتبه كرواية؛ بهذه الطريقة لن يعرف أحد أنها قصة حقيقية.

قال، وهو يقبّل أنفي ويأخذ يدي.

- إلّا نحن.

وافقته.

- إلّا نحن.

سرنا يداً بيد عبر جسر هابيني، ووصلنا بأمان إلى الجانب الآخر.

27

كيف تحتفل بإنجازاتك

كنت أقف... في شارع تالبوت حاملة لافتة «أجمل التهاني» في يدي، وواضعة قبعة احتفالات على رأسي، ونفّاخة في فمي. كنت أتلقى بعض النظرات البغيضة من المارة، لكنني حاولت تجاهل حرجي والتركيز على النازلين من الحافلة أمامي مباشرة. كان آخرهم أوسكار، الذي بدا مهزوزاً جداً وهو يركز، ورأسه منكسة، على نزول الدَرَج.

نفختُ بصفارة الاحتفالات فرفع رأسه لي في دهشة. انفرج وجهه عن ابتسامة وضحك وأنا ألوح باللافتة في وجهه، ما اجتذب ابتسامات الحشد.

صرخت:

- لقد فعلتَها! لقد قطعتَ كل هذا الطريق إلى هنا!

ابتسم ابتسامة واسعة، وقد بدا عليه الحرج، لكنه بدا فخوراً بنفسه.

كيف تشعر؟

- أشعر بأنني... حي.

ضرب الهواء بقبضته وهو يقولها، كما لو كان سينفجر.

ضحكت.

- عظيم! وتذكر هذا الشعور يا أوسكار، كلما مرّ بك يوم محبط أو لحظة تردّد، تذكر كم هو رائع أن تشعر بأنك حي. طيب؟

أومأ برأسه في حماسة:

- طبعاً، طبعاً، لن أنسى هذا.

- اتَّصِل بجيما وحدد موعداً يوم الثلاثاء. سنعمل على الحصول على وظيفة لك، الآن بعد أن أصبحت تعرف طريقك إلى المدينة.

قال بقلق:

- جيما عادت؟ أنا أحب جيما. لكنك تعرفين أنني أفضّل أيام الاثنين. هذا يساعدني على بدء أسبوعي.

كانت جيما قد وافقت على العودة بعدما أرسلتُ لها بالبريد كتاب كيف تخبر شخصاً أنك غيرت رأيك من دون أن تظهر بمظهر مَن يغير آراءه. وفي اليوم التالي وجدت على مكتبي كيف تتعامل مع رئيس عمل صعب وعادت إلى العمل في الصباح الذي تلاه. ولم نناقش هذا الموضوع بعدها قط.

- سأكون في تيبيراري يوم الاثنين.

قلتها بسعادة، وأنا أتطلع إلى رحلتي القادمة. كنت قد تخلّيت عن مساعي العثور على «مكاني السعيد» بعدما أدركتُ أنّ ذلك الكتاب ليس إلّا حفنة من النفايات لم تنجح سوى في أن تجعلني أشعر أسوأ تجاه نفسي لأنني لم أتمكن من العيش وفقاً لنصائحه. وكنت قد اشتريته لأقرأه وأنا أجلس في بيت القوارب في تيبيراري ذات يوم بينما كان آدم في مكتبه، وشعرتُ بإحباط كبير حتى أنني رميته في البحيرة. المفارقة، أنني كلما فكرت في مشاعري في تلك

اللحظة، كانت ابتسامة تعلو وجهي ويراودني شعور هائل بالحرية، شعور أستطيع أن أستدعيه عند الطلب.

في طريقنا لشراء شيء لنأكله قبل أن يذهب أوسكار ليلحق بالحافلة العائدة إلى بيته، رن الهاتف. كان المحقق ماغواير. توقفتُ عن السير، واستمرّ أوسكار حتى أدرك أنني لم أعد برفقته.

استدار وناداني:

- هاي، ماذا حدث؟

حدقتُ في الهاتف الذي كان يرن، وأنا أدرك للمرة الأولى أنني على الأرجح سأشعر بذلك في كلّ مرة مع آدم في المستقبل المنظور، غير واثقة فيما سيجلبه مستقبله، ومتسائلة دائماً إذا كان بخير وأنا لست معه. أخيراً أجبت على الهاتف، خائفة ممّا سأسمعه لكنني خائفة أكثر من تجاهله.

صاح قائلاً:

- أنا أتصل نيابة عن كارولين. عيد ميلادها السادس عشر الأسبوع القادم. ولدينا حفلة يوم الجمعة. لو رأيتِ كيف تستعدّ لأقسمتِ أنها ذاهبة إلى الأوسكار اللعين. على أية حال، تريدك أن تأتي.

تنحنح وقلّل من النبرة العدوانية:

- وأنا أيضاً أريدك أن تأتي.

- أشكرك يا إيدِن. سوف آتي.

قبل أن يغلق الخط أضاف:

- آه، وأحضري معك رجل الجسر أيضاً، إذا أردتِ. إذا، تعرفين، كان في مكان طيب في هذه اللحظة.

نعم، في هذه اللحظة كان في مكان طيب. الحياة سلسلة من

اللحظات، واللحظات تتغير دائماً. تماماً مثل الأفكار، السلبية والإيجابية. ورغم أنه ربما كانت من طبيعة الإنسان أن يستقرّ، فهذا أمر غير منطقي كما هي الكثير من الأشياء الطبيعية، غير منطقي أن يسمح لفكرة واحدة أن تسكن رأسه لأنّ الأفكار مثل الضيوف، أو أصدقاء وقت الرخاء. فور أن تصل، يمكن أن تغادر، وحتى الأفكار التي تستغرق وقتاً طويلاً لتخرج بالكامل يمكنها أن تختفي في غمضة عين. اللحظات ثمينة؛ أحياناً تتلكأ وفي أحيان أخرى تمضي سريعاً، مع ذلك يمكن أن تُنجِز فيها الكثير؛ يمكن أن تغيِّر رأياً، يمكن أن تُنقِذ حياة، ويمكن أن تقع في الحب.

سيسيليا أهيرن

كيف تقع في الحب

أمامها أسبوعان. أسبوعان فقط لتعلّمه كيف يقع في الحب.

ذات ليلة، وهي تعبُر جسر هايبني في دبلن، تُفاجأ كريستين برجل لا تعرفه، آدم، يستعدّ للقفز. تُسرع إلى إنقاذه وتُقنعه بقبول اتفاق غريب: إذا أمهلها أسبوعين -أسبوعين فقط حتى عيد ميلاده الخامس والثلاثين- ستُثبت له أنّ الحياة تستحقّ أن تُعاش.

لكن مع مرور الوقت، بدا ما وعدَت به كريستين أمراً صعباً...

رواية تجعلك تضحك، تبكي، وتحب الحياة، هذه هي سيسيليا أهيرن في أفضل حالات تأملها وتشويقها.

❖ ❖ ❖

«رواية عظيمة، محرِّضة على الحياة، تشقّ طريقها بخفّة وبراعة من الظلام إلى النور».

مجلة غلامور

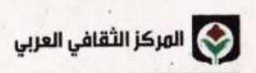
«شخصيات مفعمة بالحيوية وقصة تقع في حبها؛ واحدة من أفضل روايات سيسيليا أهيرن حتى الآن».

مجلة هيت

❖ ❖ ❖

سيسيليا أهيرن واحدة من الكتّاب الأكثر رواجاً في العالم. وُلدت في دبلن ونشأت فيها. نُشرت أعمالها حتى الآن في ما يقرب الخمسين دولة وبيعت منها أكثر من خمس وعشرين مليون نسخة. تحوّلت اثنتان من رواياتها إلى فيلمين، وكتبت عدداً من المسلسلات التلفزيونية.


ISBN 978-9953-68-838-1


المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com